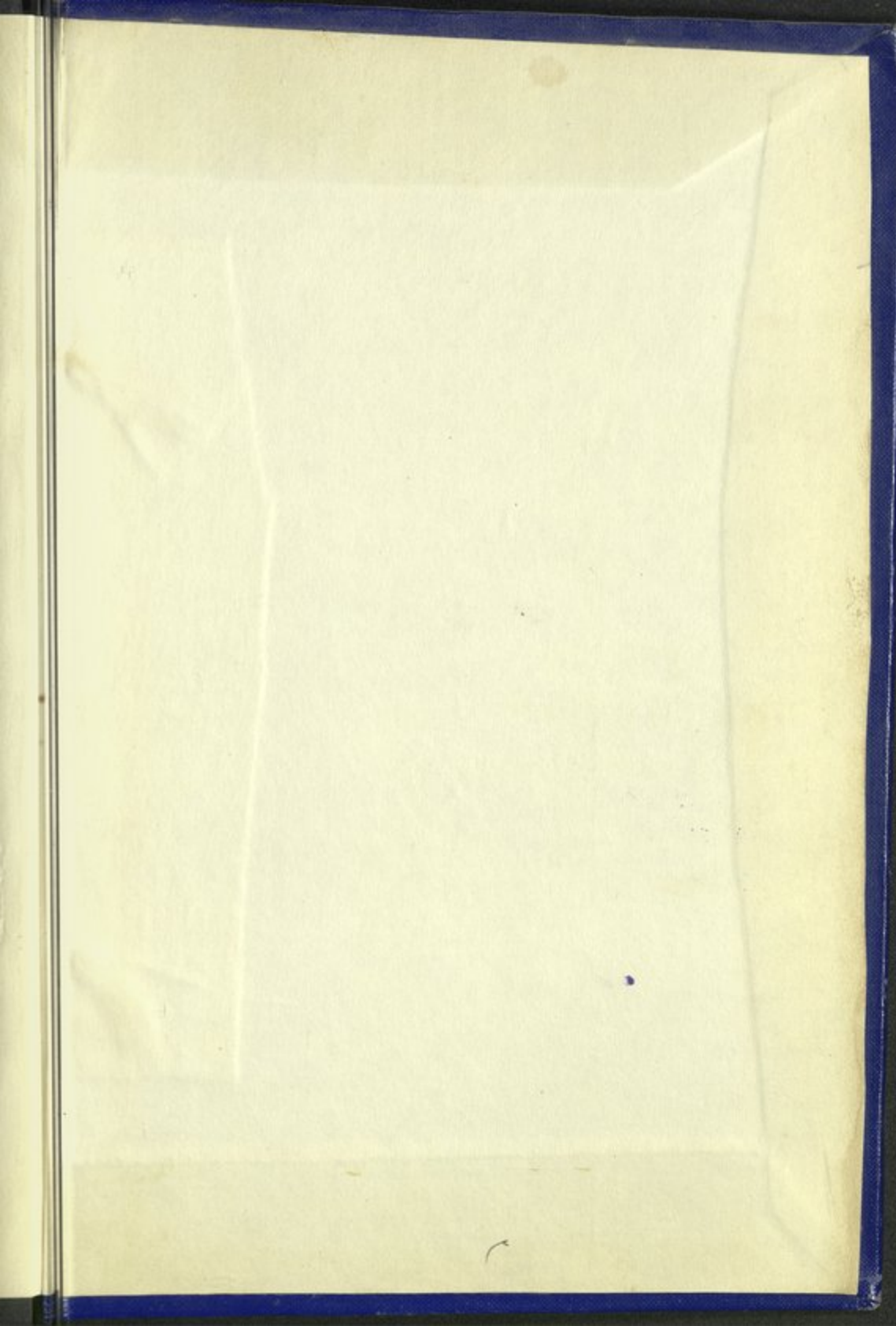
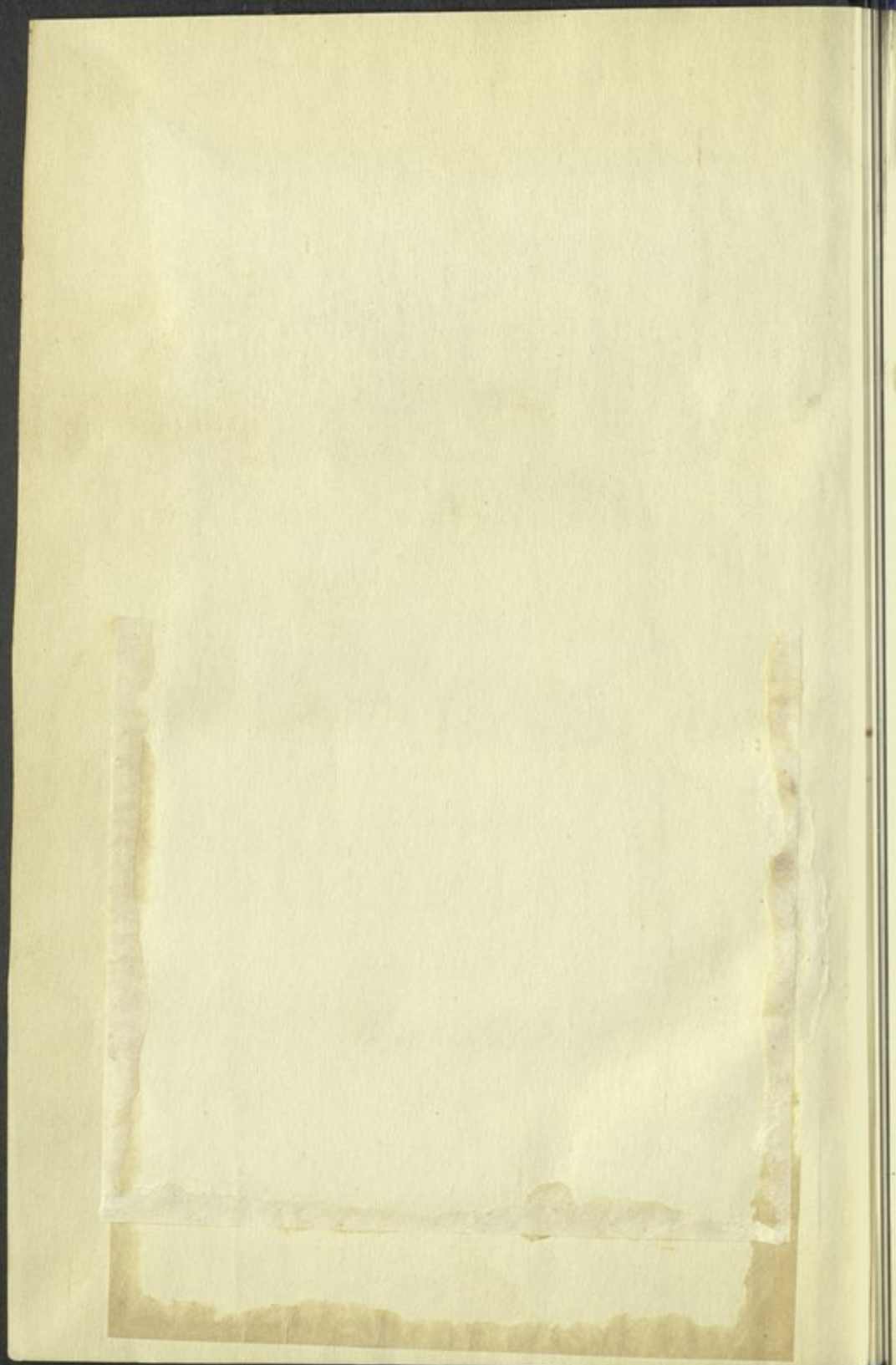


كتاب

٢٠

892
M945
CA





08

L2A

Cont. July 1957.

الجزء الاول والثاني مجلدان معاً

892.7408

M94162A

C.1

البداية

البداية

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بمقام

الدكتور زكي مبارك

57139

٢ - ١

الطبعة الثانية

سنة ١٩٣٥ م - ١٣٥٤ هـ

حقوق الطبع محفوظة

يطلب من

الكتبة المحمدية التجارية بميدان الجامع الأزهر بمصر

صندوق بوسنة رقم (٥٠٥) بالقاهرة

الجزء الاول
مجلدان

1937

الاهداء

إلى الطبيب الموفق
الدكتور محمد عبد الحى
اهدى هذا الكتاب .

المخلص
زكى مبارك

مصر الجديدة فى أول رجب سنة ١٣٥٤هـ

طبع فى

المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر

مقدمة

الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩١٤ بدأت أنشر بعض الرسائل الأدبية في جريدة الأفكار ، ولا أزال مع تقادم العهد أتذكر كيف تخيلت عنوان تلك الرسائل ، وكيف طاب لي أن أسميها البدائع ، أما أثر المقال الأول في نفسي فسيظل باقيا ما حييت ، وما ظن القارئ بشاب يتوهم أن الأدباء هم الناس كل الناس ، وأن مظهر الأدب مقال ينشر في جريدة سيارة فيحدث الناس عنه ، ويمسى موضع الأسفار في الأندية والمجتمعات !

وكم تمنيت لو اتسع الوقت فأرجع إلى مجموعة (الأفكار) في دار الكتب المصرية لأرى بواكير (البدائع) وأشهد كيف واجهت الجمهور أول مرة ، وكيف كان أسلوبى في ذلك الحين ولكن ما حاجتى إلى ذلك وأنا أعرف أنى لم أصدر يوما إلا عن نفسي ، فكان أسلوبى دائما صورة لما أنا عليه من حلم وجهل وشك ويقين ، وعقل وفتون ، وإنى لأتذكر أنى ترقيت مقالى الأول وأنى قرأته حين ظهر نحو خمس مرات ، فمن الخير أن أصرح قرائى بأنى لا أزال أترقب مقالاتى في البلاغ وأكون أول قارئ فى أكثر الأحيان فان لم يكن بد من بيان المنهج الذى سلكته منذ ابتدأت أكتب إلى اليوم ، فأنى أحدث قرائى بأن السرفى نجاحى يرجع إلى أصلين :
الصدق والوضوح

أما الصدق فالناس جميعا يشهدون أثره فيما نشرت من الرسائل والقصائد ، وقد أفصحت عن سرائر نفسي مرات كثيرة ، أظهرها ما جاء في كتاب « ذكريات باريس » إذ أقول :

« وأعود إليك يا صديقي فأخبرك أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب : فقد فهمت كل شيء وعرفت كل شيء ، وبقي قلبي كالغابة في ضمير الظلماء . فان قلت لك إنني أشكو خيبة في الحب ، أو إخفاقا في المجد ، أو غدرا من الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول . وأكد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصدقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات

وأنا لم أنجح في شيء من ذلك : لأن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب فانا عند انصار الحزب الوطنى شعبى يناصر الوفديين ، وعند الوفديين وطنى يتشبث بالملحقات من زيلم إلى جغبوب

وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار وفاجر عند الأبرار ، فانا فى كل بيئة أجنبى وفى كل أرض غريب »
وأما الموضوع فهو عندى ميزة أصيلة ولا أكاد أخط سطورا إلا بعد أن تتمثل الفكرة أمامى فى مثل يياض الصبح المشرق ، وما عرضت لمعنى دقيق إلا كشفته ، ورفعت عنه أستار الغموض ، وتركته يضافح القارئ وكأنه من البديهيات

ويضاف إلى هاتين المزييتين مزية ثالثة هى الحيوية العنيفة فى نقد الآراء ، فانا فى كل ما أكتب وما أقول محارب لا يرى الحياة إلا

في حومة القتال ، وليس الأدب عندى مزاحاً أتلهى به في الأسفار
والأحاديث ، وإنما هو عراك في ميادين الفكر والعقل والخيال
وهذه المجموعة التى سميتها البدائع تمثل مذهبي في الأدب أصدق
تمثيل ، وما ترونه فيها من الكلام عن الأشخاص لا يقل حيوية عما
تحدثت عنه في عالم المعانى ، وقد وفقت إلى رسم شخصية الشيخ محمد
المهدى والشيخ سيد المرصفي وهما إمامان نسيهما الناس ، واستطعت
أن أدل القارىء على بعض الملامح من إسماعيل رافت ولطف السيد
وتحدثت عن السباعي وشوقي وحافظ بأسهاب ، أما الغراب طه
حسين فقد ترقت به وزففته إلى قراء البدائع في جلوة طريفة ستنتقل
أخبارها من جيل إلى جيل

يبدو كتاب البدائع في الطبعة الثانية وكأنه كتاب جديد ، كان
جزءاً واحداً فأصبح جزأين ، ونظر المؤلف في الطبعة الأولى فحذف
منها أشياء كثيرة لم يرها أهلاً للطبعة الثانية ، وكان في الطبعة الأولى
أشعار كثيرة فاكتفى المؤلف بحياتها في الديوان ، ولم يثبت في الطبعة
الجديدة إلا قصيدة « ساعة حب » التى نظمها بعد ظهور الديوان

وقد حرص المؤلف على تأريخ الرسائل ليستطيع درس نفسه حين
يشاء ، أو حين يشاء التاريخ ، فسيكون لمؤلف « النشر الفنى » منزلة
في تاريخ الأدب بعد أن تفتى النزوات الوقتية التى يملها الحقد على
خصومه من أبناء الزمان

فان رأيت أيها القارىء شواهد من اختلاف الفكرة والأسلوب
فذكر انى اردت ان أدلك على التطور الذى اتصل بشخصية زكى
مبارك من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٣٥
وفى هذا الكتاب فصول كان كتبها « الفتى الأزهرى » بين

سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٢ والفتى الأزهرى صديق حميم كان ألف لجنة لاصلاح الأزهر والمعاهد الدينية ، وكانت رسائله يوم صدورها ثورة فكرية ضج لها المسئولون فى تلك المعاهد وتركت فى أنفسهم أثرا بليغا

وإنما اثبت رسائل « الفتى الأزهرى » لتكون صورة تاريخية للحياة الأزهرية ، ويسرنى ان اسجل ان الأزهر تطور فى حدود ما رسم « الفتى الأزهرى » من ضروب الاصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق

وفى الكتاب فصول كتبها المؤلف وهو فى باريس ، وبعض تلك الفصول يشرح الحياة التعليمية فى البلاد الفرنسية ، وبعضها يشرح ما فى باريس من ضروب الغنى والرشد والعقل والجنون وفى الكتاب فصل مطول عن دواعى الشعر كان نشره المؤلف فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ وفيه حوار بين المؤلف وبين السيد حسن القاياتى ، ومزية هذا الفصل أنه يسجل انزواء الشعراء فى ذلك العهد ، ويبين كيف انطوت صحيفة الشعر فى أيام الدماء ، وما أردت باستبقاء هذا الفصل أن أتجنى على فلان أو فلان ، وإنما هو واجب تؤديه لذمة التاريخ

وقد خلا الكتاب من الذكريات السياسية فلم يقع فيه من ذلك غير رسالتين ؛ وأولاهما كتبها المؤلف وهو معتقل سنة ١٩٢٠ والثانية كتبها أخيرا عن ذكرى شهر مارس سنة ١٩١٩ ولم يرد بأثبات هاتين الرسالتين إلا تسجيل حالة نفسية عاناها واكتوى بنارها يوم كان من خطباء الثورة المصرية

وفى الكتاب أقباس من النزق والطيش أبقاها المؤلف وهو

كاره ، لأنه يعلم أن من حق نزواته وبدواته أن تسجل في كتاب ،
وفي النزق والطيش عناصر من نور الحق لو يعلم المتزمتون ، وهل
كنت أول كاتب سطرت يمينه ما يملئ الهوى والوجدان حتى أطوى
ما كتبت في اللهو الجامح والوجد المشبوب ؟

ومن العجب والله أن نعتذر عن تسجيل ما أملته سرائر القلب
والروح ، ولكن هذا الاعتذار هو الشاهد على ما يسود هذا
العصر من التزمت والرياء

ألم يكف مانعاني من لؤم الحاسدين والحانقين ؟

ومن هو الرجل الصالح الذي تفرض علينا تقواه أن نطوى ما
كتبناه في الوجد والتشبيب ؟

أكتب هذا لمن عساه يعترض حين يراني أقول في رسالتي عن
عيد الحرية في باريس :

« إن الفوز الأكبر أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه
أما هذه الصور التي لا تضحك ولا تعبس إلا وفقا لشائع الآهواء
والأغراض فهي أقل حياة من الدمى والتماثيل ، وأين يكون
أصحابنا المتزمتون من الدمى والتماثيل وهي لم تصنع إلا لتمثيل ما دق
ولطف من وثبات العقول ، وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس »
يشهد القارئ في هذا الكتاب طوائف مختلفة من الصور
الوجدانية والأدبية والاجتماعية ، وما أدعى أن القارئ سيرضى
عنها جميعا ، وهل فكرت في رضاه حتى أنتظر منه ذلك ؟ ولكنه
سيؤمن ولا ريب أنه يواجه شخصية مستقلة تمام الاستقلال ،
فإن رأى علما فهو علم المؤلف ، وإن رأى جهلا فهو جهل المؤلف ،

ومن الناس من يعلم عن جهل ، ويجهل عن جهل ، كما يتفق للغراب
« طه حسين »

في هذا الكتاب صورنا الحياة كما عرفناها بالعقل والقلب
والوجدان ، فلم يأسرنا أحد من أهل المشرق أو المغرب ، فإن رأى
القارئ أطيافاً لما قرأنا في الآداب العربية والفرنسية فليعلم أن ذلك
لم يقع إلا طوعاً لتجاوب العقول والقلوب ، وليعرف أننا كنا
صادقين يوم قلنا في مقدمة الطبعة الأولى :

« ما بال فريق من الناس يؤمنون بما خلقت له أيديهم وأرجلهم
وعيونهم وآذانهم ، ثم يرتابون فيما خلقت له عقولهم ؟ فلا وربك
لا يؤمنون حتى يعرفوا أن المؤمن عن نعمة العقل مسئول . وما
كنت لأعق العقل وقد حكمه الله يوم هداني إلى الإيمان ، فمن كان
يريد أن يرى غضبي للحق وعبادتي للجمال ، فليقرأ هذا الكتاب ،
ومن كان يريد أن يرى صورة مكررة لمن سلف من الكتاب
والشعراء ، فليعلم أن الخمول أحب إلى من أن أكون صدى لأحد
من القدماء ، أو المحدثين ، وما أهون التضحية في سبيل الابداع إذا
انحصرت في الخمول »



أما بعد : فإلى قراء اللغة العربية أقدم هذا الكتاب راجياً أن
يقع من المنصفين منهم موقع القبول ، وأسأل الله أن يتجاوز برحمته
عما أخشى أن يكون وقع فيه من عنف الرأي وطغيان البيان
زكى مبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب العهد الماضي

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين فصلاً ممتعاً في المقتطف عن « النثر العربي في نصف قرن » تناول فيه طائفة من المسائل التي تعنى مؤرخ الآداب حين يراجع أساليب الكتاب واتجاهاتهم العقلية في الخمسين سنة الماضية ، وأعفى نفسه من التحدث إلى القارىء عن شخصيات الكتاب النافرين في مصر وغير مصر ، وآثار هذه الشخصيات في أساليبهم النثرية « وقد رأيت بهذه المناسبة أن أتكلم عن شخصية واحدة من شخصيات الكتاب في العهد الماضي ، وهي شخصية رجل عرفته وصحبته وأخذت عنه : هي شخصية المرحوم الأستاذ الشيخ محمد المهدي بك ، المتوفى في ١٦ يناير سنة ١٩٢٤

حياته وآراؤه

ولد المرحوم الشيخ محمد المهدي في قرية من قرى مديرية الشرقية ، وطلب العلم في الجامع الأزهر وفي مدرسة دار العلوم وقام بطائفة من الأعمال العلمية أهمها تدريس آداب اللغة العربية

بمدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية ، وأشهر الأساتذة الذين تلقى عنهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ حمزة فتح الله ، وأشهر من أخذ عنه من رجال الأدب : الدكتور طه حسين ، وله معه مواقف في النزاع بين القديم والجديد كانت تصل أحيانا إلى الجدل العنيف كان الأستاذ المهدي أول من تلقيت عليه الأدب في الجامعة المصرية ، وقد صحبته فيها أربع سنين ، وسمعت محاضراته عن عهد الجاهلية ، وعهد بنى أمية ، وعصر بنى العباس ، وخص الأدب في الأندلس بسنة كاملة كانت من أخصب سنيه في العهد الأخير ، وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل إلى المحطة ، وقد كان رحمه الله يؤثر سكوني الضواحي على سكوني العاصمة ، فكانت الفرص كثيرة لمخاطبته في شتى المسائل وشجون الحديث ، ويمكن الحكم بأنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر ، واستمعوا نداء هذا الجيل .

كان يؤثر اللغة الفصيحة في جميع محادثاته ، وكان يتحرز من اللحن ويتوقاه كما يتوقى الحر مدارج الهوان ، وكان يرى من الممكن أن تفاهم مع جميع الطبقات باللغة الفصيحة ، ولا يكلفنا ذلك أكثر من اختيار الألفاظ المألوفة حين نحاور من لا يفهمون الجزل من الكلام الفصيح ، وكان كثيرا ما يتهكم بعلواء الأزهر حين يلخون وهم يعرفون في مثل عبارة « مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة » وقد نشأ عن حرصه على اللغة الفصيحة أن ذاعت عنه الفكاهات والملح

بين زملائه وبين تلامذته ، فهذا يقول إنه اختلف مرة بسبب لغته مع سائق الترام ، وذلك يقول إنه ساق أحد الباعة إلى القسم بعد أن تلاحيا : أولهما بلغة السوق وثانيهما بلغة القرآن !

وكان من رأيه أنه يجب أن لا نهجر الألفاظ الغريبة في الكتابات الأدبية والعلمية والفنية ، لأن غرابة الألفاظ لم تنشأ إلا حين هجرها الأدباء والعلماء والفنيون ، فلو أننا أحيينا في كل رسالة كلمة أو كلمتين لبعثنا ميت اللغة وأثرنا دفين التعابير ، وكان لنا من ذلك غناء أى غناء كان رحمه الله من المجددين ، مع شيء من الحيلة والحذر ، فربى ابنته تربية حديثة ومكن لها من ورود مناهل العلم في الغرب ، وزار بنفسه العواصم الأوروبية ، وإن لم يتكلم غير العربية ، وكان لكل مدينة في نفسه تقدير خاص ، ولا يزال تلامذته يتندرون بقوله في وصف إحدى الحواضر الإسبانية « تصر في منديل » ! وتزوج في أخريات أيامه امرأة جميلة ، وقد حدثني رحمه الله أنه اشترط « أن يرى وجهها وأن يسمع صوتها » إذ كان يعتقد أنه لا قيمة للوجه الحسن بدون الصوت الجميل ، وكان كثيراً ما يسوقه مثل هذا الحديث إلى الكلام عما فعلته الخنساء حين اختبرت من جاء يخطبها لنفسه ، فلما زهدت فيه قال :

وتزعم أنتى شيخ كبير فهل حدثها أنى ابن أمس ؟

وكان الأستاذ يقول وهو يؤكد وجوب اختيار الزوجة « إنك لا تشتري حزمة فجل قبل أن تقلبها ؛ فكيف تأخذ العشيرة قبل أن

تعرفها « وكان يأسف على حرمان المرأة من النهوض ، ويعجب من استصغار حملة الأدب ورواة الشعر لشأن المرأة ، وغمطهم من حقها وإهمالهم الأدب إذا كان من جانبها ، وقلة عنايتهم بتدوينه إذا كان مروياً عنها ، ويقول : « فان لم يكن ذلك كذلك فما بالنا نسمع من أسماء الشواعر في الجاهلية العدد العديد ولا نرى لواحدة منهن ديواناً حافلاً بمجموعاً مرتباً مشروحاً كما نرى ذلك لأكثر الشعراء ، فقد عنى العلماء بدواوينهم رواية وشرحاً وترتيباً ومفاضلة ، وبذلوا وسعهم في إظهار معانيها المخترعة ومقابلة بعضها ببعض ، وماخذ المشترك منها والموازنة بين المأخوذ والمأخوذ منه ، ومقارنة الديباجة والوضوح والمتانة والسلاسة والسلامة من عيوب اللفظ وما شاكل ذلك بنظائرها من كلام الشاعر الآخر ، ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية لشاعرة من شواعر الجاهلية فيما أعلم ، حتى الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعه في ديوان ليحفظ ، كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال » وكان يعزز رأيه هذا بأن أبا زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يحجى فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، مع أن في كلام ليلي العفيفة وجليلة بنت مرة والخنساء ويلي الأخيلية ما لا يذكر بجانبه شعر كثير من أصحاب المذاهب والمشوبات والملحقات والمنتقيات ، وأن المفضل الضبي اختار مائة وعشرين قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من

بنى حنيفة ، ثم يقول : « فهذه مكانة شعر النساء في نظر المؤدبين والرواة والعلماء في ذلك الزمن ، وكأنما الذين جاءوا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل ، فما رأيتهم دونوا شعر ليلى الأخيلية في ديوان كما دونوا شعر المجنون ، ولا شعر عليّة بنت المهدي كما دونوا شعر أبي العتاهية ، ولا دونوا شعر ولادة بنت المستكفي كما دونوا شعر ابن زيدون ، وقس على هذا سائر الفضليات بعدهن ، خصوصاً بعد سقوط بغداد ثم أفول قرطبة . فإن شعر المرأة في هذا الزمان قد اختبأ تحت جهالات الرجال ، ولم يظهر منه إلا بروق لا تلبث أن تزول » وقد وصل بدراسته الدقيقة إلى أن الفروق بين أشعار الرجال وأشعار النساء من جهتين : الأولى من جهة صفة الشعر والثانية من جهة فنونه . وملخص الجهة الأولى أن شعر المرأة يجلي أخلاقها أكثر مما يجلي شعر الرجل أخلاقه ، وأنه يدور حول موضوعها ولا يسكاد يخرج عنه ، وأنه بعيد عن الحوشية قريب من الفطرة ومتناول العامة ، وأنه أصرح من شعر الرجل لأنها لا تكاد تبقى شيئاً في نفسها ، وأنه أشد أثراً في النفوس من شعر الرجل وخصوصاً ما كان منه في الفجائع . وأما من جهة الفنون فقد هجرت المرأة وصف الجمال ومجالس الشراب لغلبة الحياء عليها ولاستقباح ذلك منها ، وأن مادتها أغزر من مادة الرجل في الرثاء .

أسلوبه في الالتقاء والانشاء

كان رحمه الله من أبرع الناس في الالتقاء ، وأجملهم في الأداء ،

كان فصيح المنطق حلوا للسان ، لا يمل حديثه ولا خطابه ، وإن طال .
 وكان ينشد الشعر كما يجب أن ينشد ، وكما يتغنى قائله أن ينشد . ولقد
 كان ينشد الشعر وهو يحاضر في الجامعة المصرية فيقع من نفسه
 ومن أنفاس السامعين أجمل موقع ، فاذا عدت إلى الشعر نفسه في
 مظانه وجدته دون ما سمعت في الروعة والجمال ، وعلمت أن
 لأسلوب المحاضر في الأداء أثرا كبيرا في تكيف النثر الجيد
 والشعر البليغ

أما منهجه في الانشاء فهو إيثار الصراحة والوضوح والجلاء
 وأسلوبه في الكتابة من الأساليب النقية الجميلة ، وهو عندى أبرع
 كتاب مصر في المدة التي أرخها الدكتور طه حسين ، لولا أنه كان
 من المقلين

مثال

أراد رحمه الله أن يحدد (معنى الأدب) فقال :
 « الأدب مصدر أدب الإنسان فهو أديب ، ومثله أرب فهو
 أريب ، إذا صار فيه خلق يدعو إلى المحامد ، وينهى عن المقايح .
 والتأديب التقويم على أشرف الخلال ، ومنه الحديث : « أدبني ربى
 فأحسن تأديبي » والأدب والتأديب بهذا المعنى يكادان يدخلان في
 كل شيء . ولهذا قسما إلى أقسام لا تكاد تنحصر ؛ فكانا في النفس
 والدرس والمعاملة والمعاشرة وفي طبقات الناس وفي الأمم ، وفي
 الأكل والشرب والنوم واللباس والحديث إلى غير ذلك من كل ما

يعوزة التقويم . وقد أفرد له العلماء التأليف في فنونه الكثيرة وضروبه المختلفة ، وقام المصلحون في كل أمة بالدعوة إليه على وجه الصحيح ، ولتشعب هذه الأقسام وصعوبة لمح الذهن لها جميعاً انحازت للأدب في الأذهان معان عدة متوزعة في أذهان الناس فإذا أطلقت كلمة الأدب في حفل من غير إضافة ولا قرينة ذهبت الظنون فيها مذاهب ، وفهمها كل قوم على مقدار ماتبين لهم من معناها بعرف أو دين أو قانون أو اصطلاح

«وقد كانت هذه الحال عند العرب أنفسهم : فانا رأيناهم يطلقونه على معان عدة لا تكاد تخرج عن المعنى العام لها . فانهم يطلقونه على الظرف ، ويريدون منه تارة البراعة وذكاء القلب ، وتارة الحذق بالشئ ، وقد يريدون حسن الهيئة وحسن التناول ، وربما أرادوا به الظرف في اللسان وهو ضرب من الأدب ، ومنه قول عمر رضى الله عنه في الحديث : إذا كان اللص ظريفاً لم يقطع . ومعناها : إذا كان بليغاً جيد الكلام احتج عن نفسه بما يسقط عنه الحد . ومثل ذلك إطلاقه على الكياسة ، وقد جاء في حديث ابن سيرين : الكلام أكثر من أن يكذب ظريف . ومعناه : أن الظريف لا تضيق عليه معاني الكلمات فهو يكتفى ويعرض ولا يكذب . وقد اجتاز العرب هذا الحد ، وأطلقوه على الرياضة والخضوع في الدواب ، ومنه قول مزاحم العقيلي :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل

فقد سمي الجمل أديباً

« وإذا كانت هذه المعاني وأشباهها في لسان العرب فليس من البدع أن يذهب مدونو الأدب في تدوينه طرائق ، كل على حسب المعنى الذي مثل في ذهنه : فمن نحاه به نحو الخلق وطهارة النفس وتهذيبها من أدران الرذائل ألف في مكارم الأخلاق ، وسمى تأليفه أدباً . ومن نحاه به منهم نحو حسن تناول ألف في محاسن المعاشرة والتعامل ، ومن نحاه به منهم نحو الظرف في اللسان وهو البراعة وذكا القلب ألف في النوادر والأجوبة المسكتة والطرائف المستملحة ، وسمى ذلك أدباً . ومن نحاه به منهم نحو الصواب في المنطق وصون اللسان عن الخطأ في كلام العرب ألف في الفنون العربية ، والناحون هذا المنحى هم حملة اللسان إلينا وهم السواد الأعظم من مؤلفي الأدب ، وهم طوائف كثيرة ، نظرت كل طائفة إلى حال من أحوال اللفظ العربي وألفت فيه : فنظرت طائفة إليه من جهة معانيه فدونت معاني الألفاظ ، وهم علماء متن اللغة . ولمحتة فئة من جهة هيئته وصورته فألفت علم الصرف ، وتبعه قوم من جهة انتساب بعضه إلى بعض بالأصالة والتوليد فألفوا علم الاشتقاق ، وتأمله آخرون من جهة تركيبه وأحوال أواخر مفرداته في التراكيب فألفوا علم النحو . واتجهت طائفة إليه من ناحية الأسلوب ومطابقته لمقتضى حال الخطاب فألفت علم المعاني ، وتفقد آخرون من جهة مراتب وضوحه فألفوا علم البيان ، وبهر قوما محاسنه اللفظية والمعنوية

فألفوا البديع . ولمح قوم الموزون منه فألفوا العروض والقافية
ونظر قوم إلى الثمرة من كلام العرب وأنها القدرة على البيان قولاً
وكتابةً فألفوا فن الانشاء وهو الاجادة في المشور ، ونظر آخرون
إلى محاكاته بالموزون فألفوا قرض الشعر ، وقوم رأوه من جهة
رسمة ودلالته الكتائية فألفوا الخط ، وآخرون رأوه من جهات
عدة فقطفوا من كل روض زهرة وألفوا فن المحاضرات وهو
لا يختص بشيء »

ثم قال « بقي أن ننظر إلى المراد بالأدب هنا في دروس الجامعة
فنقول : المراد منه كل ما ينمي ملكة اللغة في اللسان والقلم وتربية
الذوق في الاختيار والانشاء ، والارشاد إلى مناهج النقد الصحيح .
والوسيلة إلى ذلك اختيار الرائع من الأساليب والرائع من المعاني
وعرضه على الطلبة لبيان وجوه الحسن فيه ، والمقارنات بين الفحول
من الشعراء ، والمصاقع من الخطباء ، والبلغاء من الكتاب ،
وبيان وجوه التفوق مع الالمام إلى أمهات المسائل من فنون اللغة
أثناء الموازنات والنقد ، ومعركة أذواق العصور المختلفة والنص على
أجودها وأسلمها . وهذا مؤد إلى الالمام بشيء من تاريخ الأدب لربط
الموضوعات بعضها ببعض مما لا يسع الأديب أن يجمله ولا يتم له
العلم بدونه كالأغراض التي قيل فيها الشعر ، والبواعث عليه من
السياسة والجوائز والعشق ، وكتقسيم الشعراء في بعض العصور
إلى أحزاب وبيان أثر كل حزب ، فان ذلك مما يتوقف عليه فهم مرامي

أشعارهم ، وكذكر تاريخ الشاعر الموازن أو الخطيب أو الكاتب أو المؤلف وأثره ومؤلفاته ، وماذا بقى منها وما الذى وصل إلينا »

نقد هذا المثال

يرى القارى أن هذه الكلمة التى حدد بها كاتبها «معنى الأدب» غاية فى الوضوح والجلال ، وهى تاريخ مضبوط لتطور كلمة الأدب وتنوع مدلولها فى مختلف العصور ، وهى كذلك غاية فى الاحاطة والشمول ، ويبعد أن تجد فيها أثراً للضعف أو الغموض أو الاضطراب . وقد اقتطفنا هذه الكلمة من المحاضرة التى ألقاها رحمه الله فى الجامعة المصرية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ وهى تدل على تطور معنى الأدب وتاريخه فى نفسه أيضاً ، فقد رأيت يتردد وهو يحاضر بالجامعة فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٣ فى التفرقة بين الأدب وبين تاريخ الأدب ، ويكاد ينكر أن يكون بين الأدب وتاريخه فرق ، أو أن يكون لكل منهما وجود خاص ، وقد كان هذا التردد طبيعياً فى ذلك الحين إذ كان هذا الفن حديث النشأة فى اللغة العربية ، وكان الباحثون فيه لا يجدون ما يحتذونه من نماذج القدماء أو المحدثين على أنه رحمه الله ظل إلى أخريات أيامه يعتمد فى دراسة الأدب على تفقد ما للشعراء من نصارة الديباجة ، وبلاغة المعنى ، وغزارة الفنون ، وحضور البديهة ، وقلة السقط ، وكثرة الغوص على المعانى وجمال الأخذ ، ووفرة المادة ، وبراعة الأسلوب ، وكان هذا يضطره فقط « إلى الامام بشىء من تاريخ الأدب لربط الموضوعات

بعضها ببعض» كما قال ، وكذلك ظل منهجه منهجا وسطا بين الأساليب القديمة والمناهج الحديثة ، فلم يكن يسلك سبيل المؤلفين المتقدمين الذين كانوا يجمعون في كتبهم بين الشعر الجيد ، والنثر المختار والحكم المأثورة ، مع ذكر شيء من المشاهد والأيام والمفاخرات والمنافرات ، ثم يستطردون إلى شتى المسائل في التصريف والاعراب ، ثم يعودون إلى التحدث عن أخبار الملوك ، ونوادر الشعراء والخطباء ؛ ولم يكن يسلك سبيل المجددين في تاريخ الآداب الذين يرون من الواجب درس الحياة الاجتماعية قبل نقد آثار العقول ويرون من الواجب كذلك أن يدرس سقط القول كما يدرس جيده وأن يتتبع الناقد حياة من ينقده من الكتاب والخطباء والشعراء والمؤلفين ليرى كيف كانت ألوان نفسه في أشكال حياته — ولكل حياة طائفة من الأشكال — وإنما كان يحاول رحمه الله أن تكون أبحاثه متعة من متع النفس ، لا دروساً تتناول بالنقد والاختبار والتحليل مترك لنا الأولون من أثر قوى أو ضعيف

والذى يعينى من ذلك كله هو أسلوبه الخالص من شوائب الضعف والتكلف ، والبرىء من موجبات اللبس والغموض وقد يتعذر أن يجد فيه القارئ جملة تنقصها كلمة ، أو يمكن فيها الاستغناء عن كلمة ، وإني لأشبهه بالصيدلى البارِع الذى يحكم الجمع بين أجزاء الدواء بحيث لو حذف جزء لأصبح الدواء ضاراً أو غير مفيد.

مثال ثان

وأراد أن يمد للموازنة بين الخطباء فقال :

« ليت وهل ينفع شيئاً ليت ! ليت مخترع الحماكي كان حياً في
السنين الخوالي وأسعد التاريخ والعلم والأدب بحفظ أصوات
الخطباء وهم يتدفقون على منابرهم تدفق السيل في منحدر الوادي
حتى إذا حاولنا أن نقارن اليوم بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين
ناطقتين لا يفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكنا حكماً دليلاً اليقين
المحس به لا الظن المتحسس منه . وكان طريق الاستنباط من
المسموع ميسوراً لكل سامع ، لا كطريق الاستنباط من المكتوب
الذي قطعه التاريخ فقطعت به سبل العلم ، وأنفق الباحثون أموالهم
وأعمارهم في جمع شتاته ، وقلما يجدون جزءاً يلتمس مع جزء

ماذا تفيد الأمانى ! قد انهار هذا الركن الركين من بناء الموازنة
التي نحن بصدها بموت أولئك الخطباء ، ولم ينجى في بال الأولين
من الرواة والكتاب أن يصوروا لنا في روايتهم عنهم ، وكتابتهم
فيهم ، حالهم في الأداء ، وكيف كانت أصواتهم في مفاتيح الخطب
ومقاطعها ، وعند الطلب والاستنهاض والاسترحام والاشفاق والرجاء
والغضب والرضا والحياء والبذاء والتواضع والاستكبار والشجاعة
والجبن والتسرع والتأني والاحكام وإقامة الحجة ، وما شاكل هذا
من أطوار الخطباء — وقد كنا نتهم أنفسنا بقصر النظر وقلة البحث
ونبرى الأولين بحسن ظننا فيهم أن يكونوا قد فاتهم هذا ، فبحسبنا

جد البحث في المظان التي وصلت إلينا فما شفينا منها غلة ، ولا وصلنا
إلا إلى شيء قليل من غير طلبتنا كلباس الخطيب وإشارته واتخاذ
المحصرة والاتكاء عليها والاشارة بها ، ونحو هذا مما هو قشور
بالإضافة إلى اللب المتروك . وإن أعجب من هؤلاء فعجبي من أنفسنا
اليوم أشد ؛ فأننا فيما أعلم لم نقيد خطبة واحدة في الحاك ، من خطب
مشهورينا ، وقلما يشير كتابنا إلى صوت الخطيب إذا نوهوا بخطبته
وأكثرهم لا يزيد عن مثل قوله « أجاد وأفاد ، وأغرب وأطرب
وسحر وبهر ، وجال في كل مجال ، وتفتحت له الآذان ، وشخصت له
الآبصار ، وأخذت الدرر تتحدر من فيه تحدر اللآلي . من العقد
النظيم » وهكذا من كل ما يفيد التقريظ العام ، ولا يصور من
الخطابة إلا صورة مبهمه ، ولم نر من غنى من الأدباء وأصحاب الصحف
بوصف خطابة من خطب من عصرنا وصفاً ممثلاً من جهة الأداء
كأن يقول : « إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً ، وعند
هذه منخفضاً ، وعند تلك يكاد يكون همساً ، وعند كذا كان صياحاً
أو كان بطيئاً في كيت سريعاً في زيت ، أو كان يقول والألفاظ تواتيه
كأنه يقرأ من صحيفة أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخرأ ، أو يتحسس
منها كالذي ينشد الضالة ، أو أنها كانت مرتبة متناسقة ، أو مقتضبة
مفككة ، أو غير ذلك مما يشخص مجموع الخطابة . ومن منا
استفاد تشخيص خطابة المرحوم عبد الله أفندي نديم مما كتبه عنه
الجرائد والمجلات ؟

هذا عيب من عيوبنا القديمة يجب أن يتقيه قادة الكتاب اليوم حتى يكونوا أسوة لسواهم — وإذا كانت المرازنة بين أصوات الخطباء المتقدمين غير ميسورة؛ وفاتنا أن نقارن في جهازة الصوت وهزاته وإيقاعه ومخارج الحروف والطلاقة والاحتباس كما فاتنا أن نقارن بين وحى الملاحظ وحركات الاستحسان من الجمهور، فلا يفوتنا أن ننظر إلى الوجوه التي أبقي لنا التاريخ صورها ونقارن بينها « إلى آخر ما قال

نقد هذا المثال

في هذه الكلمة تظهر تلك العملية السليمة ظهوراً قوياً؛ ويرى القارئ كيف تمثلت فكرة الخطابة في نفس ذلك الباحث الفنان فهو يتمنى لو أن الحاكى كان حياً في السنين الخوالي وأسعد العلم والأدب والتاريخ بحفظ أصوات الخطباء « حتى إذا حاولنا اليوم أن نقارن بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين ناطقتين، لا يفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكمنا حكماً دليلاً يقين المحس به، لا الظن المتحسس منه» وهذه عبارة غاية في الدقة وحسن الأداء، ثم يعجب لأن يفوتنا اليوم أن نسجل في الحاكى خطب المشاهير من رجال البيان. ولينظر القارئ كيف سخر ذلك الناقد البصير من العبارات المبهمة والأوصاف الفضفاضة التي تصلح لبوساً لكل موصوف كقولهم «أجاد وأفاد، وأغرب وأطرب، وسحر وبهر» وكيف تنبه إلى أن الكاتب يجب أن يصف الخطابة «وصفاً ممثلاً من جهة الأداء

كأن يقول: إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً
 وعند هذه منخفضاً، وعند تلك يكاد يكون همساً، وعند كذا كان
 صياحاً، أو كان بطيئاً في كيت، سريعاً في ذيت، أو كان يقول والألفاظ
 توانيه كأنه يقرأ من صحيفة، أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخرأ
 أو يتحسس منها كالذي ينشد الضالة، أو أنها كانت مرتبة متساقطة
 أو مقتضبة مفككة، أو غير ذلك مما يشخص مجموعته الخطابية»
 وقد لام المتقدمين على إغفالهم هذا النوع من الوصف وهم يتحدثون
 عن الخطباء، وذكر أنه لم يصل بعد البحث إلا إلى شيء قليل من
 غير طلبتنا كلباس الخطيب وشارته واتخاذ المخرصة والالتكأ عليها
 والاشارة بها، ونحو هذا مما هو قشور بالاضافة إلى اللب المتروك»
 وهو في هذا اللوم يتجنى على المتقدمين، فقد غنى كثير منهم بوصف
 الخطابة «وصفاً مثلاً من جهة الأداء» ولو شئت لضربت لذلك الأمثال
 ويكفي أن نراجع بعض ما قيل في الخطباء مدحاً أو هجاء لنرى
 كيف تنبه الأولون إلى الجوهر فيما يوصف به الخطيب، فقول مكي
 ابن سواده:

ملأ بهر والتفات وسعلة ومسحة عشون وقتل الأصابع
 من الأوصاف الدقيقة التي تنطبق على كثير من الخطباء المتخلفين
 ومثله قول الراجز في خطيب متعثر اللسان:

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق
 وفي جهارة الصوت وجودة الخطبة، ومواتاة القريحة، يقول

شاعر في مدح معاوية :

ركوب المنابر وثابها معن بخطبته مجهر
تريع إليه هوادي الكلا م إذا ضل خطبته المهندر
وفي وصف الخطيب بالحزم ومراعاة مقتضى الحال يقول
الشاعر في خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء
آثاره الأدبية

وقد يحسن أن ننص على أن هذا الأسلوب البارع لم يكن
أسلوب الأستاذ المهدي رحمه الله طول حياته ، فقد رأيت له طائفة
من الرسائل كتبها في العهد الأول من حياته الأدبية ، وفي تلك
الرسائل يكثّر السجع وتكثّر معه زخارف البديع ، وقد كان ذلك
الطراز بدعة شائعة في ذلك الحين ، والسجع في ذاته حلية نفيسة
لولا أنه قيد يضطر الكاتب إلى التعثر فتظلم في عباراته
آثار الاضطراب

ولم يعن رحمه الله باظهار آثاره ، وهي الآن متفرقة في أما كن
شقي بعضها في أيدي أهله ، وبعضها في مكاتب أبنائه من طلبة القضاء
الشرعي والجامعة المصرية ، وعندى من آثاره رحمه الله طائفة من
المحاضرات القيمة ، سمعتها منه وراجعتها عليه ، وقد أستطيع يوما
جمع شتات تلك الآثار في سفر خاص . والله بالترقيق كفيل .

في سبيل الوفاء

وفي أخريات سنة ١٩١٧ استقال رحمه الله من منصبه بالجامعة المصرية ، واستقال معه حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك الخضري - بإشارة من وزارة الحقانية - وكانت الجامعة يومئذ أهلية لاتنال من الحكومة ماهى خليفة به من التأييد ، فأقام طلبة الجامعة للأستاذين المهدي والخضري حفلة تكريم في فندق شبرد في مارس سنة ١٩١٨ وقد قلت لتلك المناسبة قصيدة في توديع الأستاذ المهدي ، ليست عندي من الشعر المختار ، ولكن لا بأس من إيراد القطعة الآتية في سبيل الوفاء

وما كانت الآداب إلا طرائفا	من الشعر أو ما يستجاد من النشر
فأبرزها المهدي عذراء غضة	تأود تحت الحلى في الحلال الخضر
مباحث لو غدى زهير بروحها	لأضحت قوافيه أدق من السحر
ولو فقه النيل المبارك كنهها	لحول ذياك المزيج إلى خمير
ولو أذن الدهر العبوس لوقعها	لأصبحت الأيام ضاحكة الثغر
ولو عرفت مصر المفداة قدرها	لبات لما يلتقى البيان على جمر
فيا واحدا عز البيان بفضلها	على طول مالاقي البيان من الهجر
لبعدك في الأحشاء نار ذكية	تفتت من كبدي وتأكل من صدري
صبرت عليها يعلم الله راغما	على حين لا غوث يؤمل من حر
وإني لأرجو أن أكون حددت شخصية الأستاذ المهدي بعض	

التحديد في هذا البحث الوجيز ، وأن أكون وفقت إلى بعض ما
يوجبه الوفاء بالعهد ، والاعتراف بالجميل ، نحو أستاذنا الفضله مدى
الدهر مدين . والسلام .

يونيه سنة ١٩٢٦

اخلاق الناس

قلب ماشئت من مؤلفات القدماء فسترى أن المؤلفين كانوا
يهتمون في أكثر الأحيان بمحاربة الرذائل الاجتماعية ، لاسيما
الغيبة والنميمة لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس . أما
المؤلفون في العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات
البالية التي لا تصلح لأقلام المحدثين ، وإنى لأكتب هذه الفقرات
في هيبة وحذر خشية أن يقول قائل : ماهذه الرجعة إلى أوهام
الأولين !

ويسألني من أرى من الأصدقاء : أين تسهر ؟ وأين نراك ؟
والسهرات عند هؤلاء هي جلسات سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس
ويجرى فيها من السفه والبذاءة ما يندى له الجبين ! ويأويل من تكرم
عليه نفسه فلا يشترك في لغو الحديث ، فهو عندهم ثقیل الظل
بارد الأنفاس !

والتظرف في عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين

وفي شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام ، فهم زينة
الأندية الرقيقة التي لا تجرى فيها كلمة خير ، ولا تعرف زواياها
غير الافك والبهتان من عبث القيل والقال . وفي كهول اليوم
طوائف تنلس هذه الأنواع البشرية التي تحسن تلفيق الأراجيف
والأكاذيب ، وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب
وأدباء الكهول أن يجيدوا شيئا ، وهم يقضون ثلاثة أرباع الوقت في
تلك الأحاديث الممجوجة التي تتنافر مع سباحة الطبع ، وسلامة
الذوق ، ورجاحة العقل

أين أسهر ؟ أنا أسهر في بيتي حيث آنس بوحشة الليل ، فقد
ضجرت من إخوان الزمان ، وعادت الوحدة أحب إلى نفسي من
صحبة من يلبسون ثوبا للمحضر و ثوبا للمغيب !!

أين من يعرف أدب النفس في هذه الأيام ؟ وأين الرجل الذي
تثق بكرمه ومروءته ، وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل
اللغو والفضول ممن يبعثون النائم ذات اليمين وذات الشمال ؟
وأين من يزن ما يقول ، ويفكر في عواقب ما يقول ؟ وأين من سلم
أديمه في هذا البلاد فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف ؟ دلونا أيها الناس
على رجل واحد سلم عرضه وشرفه ، وحفظ معروفه وجميله ،
واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين ، وكيد المفسدين .

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب
واتهيت إلى النتيجة الآتية : الغيبة والنميمة من الرذائل الانسانية

يقع فيها المصريون وغير المصريين ، ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستيحيون الاغتياب ، ولكنهم لا يستيحيون البهتان . فالرجل قد يغتابك ولكنه يتحرج من أن يصفك بما ليس فيك ، وقد ينم ولكن نمائمه خالصة من المفتريات .

أما المثقفون منا — وأأسفاه! — فيجمعون بين الرذيلتين :
النميمة والافتراء (١)

ومعنى هذا أن من الأجانب من يعصمه الحياء من خلق
الأكاذيب ، وأن فينا من تنقصه فضيلة الحياء

إننا نتحدث كثيرا عن الوطنية ، والوطنية لا تقوم إلا على
فكرة الوطن ، والوطن لا يحب إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء
فإن المودات والعلاقات هي أساس التقديس للأفكار والأشخاص
أيها المغتابون والنمامون ! أتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية
وأتم أعداء أنفسكم لو تعلمون !

١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١

(١) أظن أن الدكتور يريد طائفة خاصة من أذعياء المعرفة والثقافة
وإلا فكيف تجتمع الثقافة الحققة وتلك الرذائل في شخص جدير بأن
يكون مثقفا . اه مصححه

الشباب المصرى

بين التردد والاقدام

قلق الشباب ورغبته فى معالى الامور — نفرة بعض الرؤساء من الشخصيات القوية — كلمة عمن يتمرغون فى وحل الميرى وفي ترابه — غفلة الشبان عن تقدير الحرية — اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب فى قتل عزائمهم

كتب إلى موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية :

« كتبت إليك رسالتى هذه راجيا منك أن تطرق موضوعا ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه ، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة فكثيرا ما يحاول الانسان تنفيذ خطة يرسمها فاذا به بعد أن كان متحمسا نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر السكسل والاسترسال فى الأمانى والأحلام ، وأصارحك ياسيدى بأنى من هؤلاء وأن مثلى كثيرون . فانى اقتطعت دراستى والتحققت بوظيفة وأصبحت أندب حظى لعدم استكمال تعليمى ، وكل همى أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسى . ولكنى رغم هذه الرغبة أجد عزيمتى الخائرة تخوننى فى تنفيذ ذلك رغم محاولتى مقاومتها ... وتنقضى الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسى فأجد أنى لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، وهذا ما

أفزعني من نفسي وجعلني أقصدك كي تعالج هذا المرض . وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلني أنك الرجل العصامي الذي طلب العلم وما زال يطلبه دون أن يقف في وجهه ما يعوقه — وما أكثر تلك العوائق — فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما في استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك ، والله ولي جزائكم بما تخدمون به الوطن والانسانية »

ويستخلص من هذه الرسالة ما يأتي :

أولاً — عندنا شبان لا يرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى في ميادين العلوم والآداب ثانياً — يقاسى أولئك الشبان مرارة الحمية والاختناق أحيانا ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأمانى والأحلام .

ثالثاً — بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حساباً عسيراً يصل به إلى الخوف والفرع والاشفاق

رابعاً — من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخنود أما أنا فلست أخشى خطراً على صاحب هذه الرسالة ، فانها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والاقدام . والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال . وسأحتفظ برسائله ليظل اسمه عندى أعرفه به يوم يقدمه جده وسعيه ، وترفعه نفسه إلى بعض ما يريد ، لأنه لا يصل إلى « كل » ما يريد إلا القانعون

بالقليل ، والانسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطعم مهما
 ابتسمت له الحظوظ . وقديما حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل
 المروءة لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك
 مكرما ، أو مع النساك متبلا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين :
 إما في البرية وحشيا ، أو مركبا للملوك .

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التي تقتل رجولة الشباب
 في العصر الحاضر وتجب اليهم الكسل والخمول ، وأهم تلك الأسباب
 أولا — شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل
 إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين ، وإنما يصل إليها عن طريق
 السفالة والنذالة والانحطاط . وبرهانهم على ذلك أن هناك ناسا
 ارتفعوا بلا مؤهلات ، وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة
 والوصولية هي المؤهلات النافعة في هذا العصر ، وأن الاستعداد
 لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل
 العالية ، وأنهم يرون في المعاهد العلمية وفي الدواوين شواهد كثيرة
 لهذه الحال . فكم من رجل تبوأ منصبا وهو لا يدرك خطره ولا
 يعرف قيمته ، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل
 والسفاف ، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم
 نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤسائهم رأوا فيهم
 صلاحية للتجسس ونقل الأخبار ، وهذه ظاهرة شنيعة ملهوسة
 الأثر في كل مكان

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال
وأهون ما ترمى به الشبان من المآثم هو ما يقررونه في أذهان
من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال في خيال
وأن الحزم في اقتناص الفرص قبل أن تشرذ ، وأن الشخصية
الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق
ولعل الدنيا لم تفسد يوماً كما فسدت في هذه الأيام ، فقد
استطال الأوغاد ، وأصبح الأحرار يعيشون في أوطانهم كأنهم غرباء
وكثيراً ما نجد الوصولي السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته
عن مواطن الضيم والهوان :

« حضرته عامل راجل » !

والمستول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء
الذين لا يأنسون بغير الضعفاء ؛ ولا يسلبون الأعمال إلا لكل
شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة « ييك أفندم » كما كان يقول الأتراك
وأيّن أين الرئيس الذي يحب في مرءوسيه إباء النفس ، وقوة
الشكيمة ، وصلابة العود ؟

أيّن أين الرئيس الذي يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن
ورجاء البلاد ؛ فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل ، ويغريهم بحب
البأس والاستطالة والكبرياء ، لأنه لا يسقط المصري إلا حيث
تخذله نفسه ولا يجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به
عادية الطامعين .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل
والنبيل والشهامة سلاح مفلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق
والمداهنة والرياء .

وقد أذكر أنني لقيت مرة شابا أعرفه فسألته عن عمله وقد
قضى عهد الدراسة العالية فأجاب :

« أتمرغ في تراب الميرى »

فابتسمت وقلت : لا بأس !

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملا يلحقه بمن يتمرغون في وحل
الميرى لا في ترابه !

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص
عليها ، لأن الشباب في ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل
وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال ، والمرء إن
لم يقف على قدميه في شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأى ، أو تصلح
له حال ! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض
بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح
ورحم الله من قال :

إذا المرء أعيته المروءة يافعا فمطلبها كهلا عليه شديد

ثانيا — غفلة الشبان عن تقدير الحرية ، فإن الزاهدين في الرقى
ليسوا إلا قوما ألفوا الاستعباد ، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا
فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظيف ويطمعون في حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة في الحرية أشرف تمثيل فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعاً ذليلاً ، يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع .

والعلم هو الذي يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصى المراتب الرفيعة . ولا يطمع في السيادة إلا من يعد نفسه لها إعداداً صحيحاً أما الخامل الراضى عن حاله فلا حظ له من الرفعة ، ولا نصيب له من الاستقلال . وفي خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله ، فليكن في ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقاً آخر ، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود .

ثالثاً - اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب في قتل عزائهم ، فهم ينتظرون أن يكونوا دائماً (مسنودين) بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا في ظلال من يملكون الأمور ولكل شاب عذر من حكومته : فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم في زمانه ويأسى على أن لم يولد في عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب ! وقديماً قال المتنبي :

أنى الزمان بنوه فى شيبته فسرهم وأتيناها على الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون . ونحن لا نريد لشباننا أن يعتمدوا على الدولة فى إنهاضهم من كبواتهم فإنه لا خير فىمن يعتمد على سواه ، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء

بأنفسهم ، وأن يكون الفتى قوة كاملة هي في ذاتها دولة ذات حول
وطول وسلطان .

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣١

الغزل في شعر شوقي

رسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر شوقي كتبها المؤلف في باريس
في شهر مارس سنة ١٩٣١

— ١ —

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين في باريس فأعارني الجزء الثاني
من الشوقيات ، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب ، وإنما اقتصرت
على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان ، فمن
الخير إذن ألا يتكرر ما يكتب ، وإن كان لكل منا مذهبه الخاص
ولأقيد أولا أن شوقي مسئول عن ذلك الشرح الموجز
الذي ذيلت به الشوقيات ، فهو في أغلب الأحيان شرح ضعيف
وقد يتعدى الضعف أحيانا إلى الغلط الشنيع . ومن أمثلة ذلك
التعليق على قوله :

لوجلوا حسنك أو غنوا به للبيد في الثمانين صبا
فقد جاء في الشرح ما نصه : هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي
قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان
وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذى ظل يراجع هذا الجزء
من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد ؛ فليس هذا البيت من شعر لبيد
وإنما هو من قصيدة لأبي محلم الشيباني - إن لم تخنى الذاكرة -
والقصيدة برمتها مثبتة فى الجزء الأول من أمالى القالى



إن شوقى يعرف رأى فى شعره ، وقد أكون أول من أنصفه
بين النقاد المعاصرين ، فهو إذن خليق بأن يفترض أنى لا أتحمّل عليه
إن قلت إن أضعف الجوانب فى ديوانه هو باب النسيب
لقد عتب على مرة لأنى لم اختر من شعره فى كتاب « مدامع
العشاق » غير أربعة أبيات ، ولعله يفهم أن عذرى فى ذلك مقبول
لأن شعره فى الغزل أضعف من أن يمس القلوب ، فضلاً عن أن
يفصح عن مدامع العشاق

إن النسيب فى جملة يرجع إلى عنصرين : الأول وصف ما يجد
المحب من لوعة الشوق ، والثانى وصف ما فى المحبوب من الملاحظة
والجمال ، ويمكن أن يقال إن شعر شوقى خال من أوصاف الوجد
المبرح لأنه عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس . فكان يتنقل من
حب إلى حب ، ومن حسن إلى حسن ، فلم يقع لذلك فى وقدة الهجر
أو أسر الصدود .

ذلك اعتذارنا عنه ، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد ، ولو آثرنا

الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب ودقة
الاحساس بحيث تنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من
أسراب الملاح

إنها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع إلا لمن
يحبون في قصد وفي عفاف ، هي فكرة ساذجة دافعت عنها فيما
سلف . أما الواقع فهو أن الشاعر المرفه الاحساس يتزايد بلاؤه
وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصبابة ومطالعة الجمال

الشاعر أشقى الناس بشاعريته ، لأنه أعرفهم بخطر ما تبذل
الطبيعة من أسباب الحسن والفتون ، وقد أتيح لشوقي أن يشهد
من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه ، ولكنه لم يقل
شيئا عن القلوب التي أشقتها السعادة في الحب ، ولم يتحدث عن آلام
السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم في كوثر الوصال

إنه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير
ما كان يرى الأقدمون : فخيرة الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه
منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد . وهذا الحسن
- إن لم يلفظ الله - ماض في الفتك بلفائف القلوب ، وقد جدت
للأرواح أزمات جديدة ، ومطامح جديدة ، لم يشق بها الأولون
فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي
وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في
نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظلمة والالتئاع

وهذه المؤاخذة توجه إلى الأدب في جملة ، لأن قراء العربية في هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم ، وجمدت مشاعرهم ، عن فهم ما في هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والأذكياء منهم جنباء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر في انحطاط الأدب العربي الحديث ... وإلا فآين في مصر الشاعر أو الكاتب الذي استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ؟

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواص ، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام عند تلك الغايات الصغيرة ، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكرى القراء في حيرة داجية سوداء ، حيث لا يجدون من يترجم عن ظمأ أرواحهم ، وهيام قلوبهم ، وقلق نفوسهم ، وكان الظن بمن أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا إلى الجمهور غذاءه الروحي والعقلي في صورة أخاذة تلقى شيئا من النور في طريق الأرواح الحائرة ، أو تلقى قبسا من الثورة في أنفوس من تغشاهم الخمود

ولعل أظفح رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك - فيما أظن - أنه ينذر في الشرق أن يكون شيء من الأمر بيد الشباب : فنحن نعيش

في قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلاء الذين
يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر
مضى الادراك

لنترك هذه الخواطر التي تقض بعض المضاجع ، ولنأخذ في
الكلام عن غزل شوقي :

لاحظت أن شوقي حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه باغفال
شيء من شعره القديم ، فتجاوز في ديوانه التليد والطريف ، والغث
والسمين ، وأنا لا أكتفي القراءة أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا
فمن العسير على الشاعر أو الكاتب أن يتنابى شيئا من منظومه
أو منشوره ، وكل رجل منا حين يعود إلى آثاره يقع صريع الفتنة
والاعجاب ، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع
أنفسهم : فقد يتفق أن يسوء رأى المرء في إحدى قصائده أو رسائله
ولكنه مع ذلك يضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود !
وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه
أن يهبها للنسيان ، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كآبائه
يتساوى حظهم عنده من البر والاشفاق

وقد أحرق البحترى جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر
لابنه من بعده ، وعندى أن تلك جرأة عظيمة أن ي تلف الرجل بعض
آثاره مراعاة لمصالح الأهل والأقرباء وفي ظنى أن ذلك ما كان يقع

هي لا يعلو
الليل

لو قيل للبحترى: أحرق هذه الأهاجى لأنها ضعيفة لا تستحق البقاء
وإنما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقى فهو فى رأينا أبعد
نظرا من أن يخفى عليه ضعف الايات الآتية:

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ماخنت رب القنا والمشرقيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثرعك المتمنى كل حاجاتى

فليس فى هذه الايات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه
أثبتها فى الديوان لأنه قالها ، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على
أى حال أمير الكلام!! وإلا فما هو القوام الذى ، وما هى الأعين
اللاتى؟ اللهم إلا أن يريد أن يأتى بشاهد جديد لحذف صلة الموصول!
ثم ما معنى قوله:

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثرعك المتمنى كل حاجاتى
وكيف غابت عليه تفاهة كلمة «حاجات» فى مقام التشبيب

ومن الغزل البارع جداً قول شوقى:

ياناعما رقدت جفونه مضناك لا تهذا شجونه
حمل الهوى لك كله إن لم تعنه فمن يعينه
عد منعا أولا تعد أودعت سرك من يصونه
بيني وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه
رشايعاب الساحرو ن وسحرهم إلا جفونه
الروح ملك يمينه يفديه ما ملكت يمينه

ما البان إلا قدده لو تيمت قلبا غصونه
 هذه قطعة جميلة ، لم يضعف منها إلا قوله :
 رشأ يعاب الساحرون وسحرهم إلا جفونه
 لأنه لا يكفي أن يقال : « السحر معيب ، ولكن سحر هذه
 الجفون لا عيب فيه » والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من
 أن ينزل إلى توافه المشكلات . فهل يدري القارئ ماذا أضاف
 شوقي إلى هذه القطعة الجيدة ؟ لننظر كيف يقول :

ويزين كل يتيمة فمه وتحسبها تزينه
 فما معنى هذا ؟ معناه أن ثنانيا المحبوب تزين اللاء ، على حين
 يظن أن اللاء تزينها . . . وما نظن شوقي يقدر أن هذا معنى
 جميل . والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله
 الحسين بن مطير

منعمة الأطراف زانت عقودها بأجمل مما زينتها عقودها
 فإن هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول : لأن النحور قد تكون
 أجمل وأروع من نفائس العقود . أما أن تكون الثنانيا أجمل من
 اللاء التي تزدان بها فذلك خيال مقلوب
 ثم ما معنى قوله بعد ذلك

ما العمر إلا ليلة كان الصباح لها جبينه
 وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقي إسقاطها من الديوان
 ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء

وسترى في الأبحاث الآتية مبلغ ما وصل إليه في فن النسيب

— ٢ —

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب ؛ وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب : فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام ، وهي بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنى ويرهف إحساسه للتلحين والتطريب ، ومن مساوئها أنها تفرض على الشاعر ما لا قبل له باحتماله من التغنى بعواطف قد تكون خمدت في صدره منذ أزمان . على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الاسفاف وحسب القارئ أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء بالنسيب ؛ وذلك أغرب ألوان الشذوذ ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هي في مذكري بمصر ، فليعذرني القارئ إن اكتفيت بالإشارة إليها في هذا الحديث

وقد سلك شوقي هذا المسلك ، فباب النسيب في ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة ، فهو في جملة نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء . وهو في هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التي لا ينبغي أن يشرك

الشاعر بها أحدا من الناس

الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذ الشاعر وسيلة لقصائد
المدح ، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال
ويبتذلوه في غير إشفاق فانه لا يغتفر لشوقي وقد درس ميسيه
ولامرتين وفرلين أن لا يتقى الله في لغته ويرحمها من ذلك الجذب
الموحش الذي ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون في جبن وغفلة
وجمود عن التسريح بحمد الجمال

ومع هذا فلشوقي مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده
وسنعود اليها في الرسالة الآتية ، ولكنها لقلتها لا تسمو به إلى
منزلة معاصريه في الأمم الأوربية ، ولا تلحقه بمن أجادوا التشبيب
من أسلافه كعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس
وابن زيدون



وقد عرض شوقي لتشطير بعض أبيات النسيب ، والتشطير
والتخميس من الفنون المستحدثة في الشعر العربي ، وهو عمل قبيح
لا أثر فيه للعاطفة وإنما يرجع إلى الذكاء . فلننظر كيف صنع شوقي
مثلا في قول أبي نواس :

يا ويح أهلي يروني بين أعينهم على الفراش ولا يدرون مادائي
والقاريء في غنى عمن يرشده إلى روعة هذا البيت الجميل
وقد حوله شوقي إلى الصورة الآتية :

يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم

ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى

وينظرون لجنب لاهدوء له على الفراش ولا يدرون مادائى
فان هذا التشطير لم يستقم لشوقى إلا بحذف كلمة « يرونى »
ووضع كلمة « أبلى » مكانها . ثم عاد فأتى بكلمة « وينظرون »
فى البيت الثانى ليستقيم له الشطر الاخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض
الشئ حين تدخل شوقى لاتمامه ، وكان قبل ذلك غاية فى الرقة
والوضوح

ولشوقى بيت سائر وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس ، وقد أشرت مرة إلى أنه عرض
فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية ، وهو فوق ذلك لا يمثل
الحرائر من الحسان ، وإنما يمثل الساقطات اللائى تنبو عنهن العيون
فى الحانات ، وما أظن شوقى ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة
اللهم إلا إن زعم أنه كان (إيروس) العصر والأوان !

وقد فتن شوقى بالسلاسة التى كانت من نصيب ذلك البيت
فأراد أن يضيف إليه بيتا ثانيا لتم بهما صور العشق فقال :

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فأين هذا من ذاك ؟ ذاك بيت ألفت به السليقة فجاء غاية فى
الاستواء ، أما البيت الثانى فهو من آثار التكلف ، لأن الشاعر

توهم أن الصورة تتم به ، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين
فان كان شوقي في ريب من صدق هذه الملاحظة فليحدثنا
كيف صح له أن يقول بعد ذلك :

يوم كنا ولا تسلك كيف كنا تنهادى من الهوى ما نشاء
فان ذلك وقع بالطبع بعد السلام والكلام وقبل الفراق !
وجاء في الديوان ما نصه :

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء في مجلس فذكر أحدهم
بيتا للها زهير وهو :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف
فقال :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
لعل الذي لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته
فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف

وكان على شوقي أن يلاحظ أن بيت الها زهير هذا ليس من
الجودة بحيث يستحق هذه العناية ، فان من السذاجة أن يتوجه الناس
إلى المحب قائلين : نسمع أنك تحب ؛ فهل لك أن تقول لنا ما طعم
الحب وما لونه ؟ وأغرب من هذا وأدخل في السذاجة أن يعلل
شوقي وجاهة السؤال بقوله :

لعل الذى لا يعرف الحب يعرف
 فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين
 أم الأمر لا يخرج عن عبث الألفاظ !



وهناك قصيدة صنعها شوقى ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم
 إليه ، فقد قال البارودى :

أتغلبنى ذات الدلال على صبرى ؟
 ثم سكت . فرأى شوقى أن يكمل البيت هكذا :
 إذن أنا أولى بالقناع وبالخدر
 ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية
 وقبل نقد هذه القصيدة نسال شوقى : هل كل مغلوب على صبره
 فى الحب خليق بالخدر والقناع ؟
 لا أظن ! وإلا فهناك قصائد صرح فيها شوقى بأنه يأس مغلوب !
 وإلى القارىء القطعة الآتية :

وليل كأن الحشر مطلع فجره	ترأت دموعى فيه سابقة الفجر
سريت به طيفا إلى من أحبها	وهل بالسهى فى حلة السقم من نكر
طرقت حماها بعد ما هب أهلها	أخوض غمار الظن والنظر الشزر
فأراغنى إلا نساء لقينتى	يبالغن فى زجرى ويسرفن فى نهري
يقلن لمن أهوى وآنسن ريبة	نرى حالة بين الصباة والسحر

إليكن جارات الحى عن ملامتى ^{الحي} وذرن قضاء الله فى خلقه يجرى
وأخرجنى دمعى فلما زجرته رددت قلوب العاذلات إلى العذر
فساء لنها ما اسمى فسمت فجئنى يقلن أمانا للعدارى من الشعر

فقلت أخاف الله فيكن إتنى

وجدت مقال الهجر يزرى بأن يزرى

أخذت بحظ من هواها وبينها

ومن يهو يعدل فى الوصال وفى الهجر

هذه آيات فى غاية الانسجام ، ولأجل هذا أثبتتها شوق

فى الديوان ، ولكن مامعناها ؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة ، قاهرية بالطبع ، لان هذا من
شعره القديم ، وللقاهريات تقاليد فى الصيانة والعفاف . ومع هذا
طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين ، وأحاط به النساء
يزجرنه وينهرنه ثم توجه أولئك النساء إلى محبوبته يسألنها
ماشأن هذا الزائر ؟ وهنا أجهد الشاعر فى البكاء فخدمت حمية
النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوق ! ولم تكذ تلفظ هذا
الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من
الشعر الأمان ! وفى هذا الموقف كان الشاعر كريما ، فقد طمأنهن
قائلا إنه يخاف فيهن الله !!

إن هذه الصورة المنكرة لاتقع فى حى وضع إلا موسومة
بسقم الذوق ، فكيف صح وقوعها فى مدينة القاهرة قبل

ثلاثين عاما !!

كل هذا لم يكن ، ولكن شوقى أراد أن يتكلم ، فليكن ما أراد
لأنه يقول للشعر كن فيكون

وعلى القارىء أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة
كانت شمائلهن من هذا الطراز : ولو فى خيال أمير الشعراء !!

— ٣ —

نجوى القلب

شوقى شاعر محسود ، فقد ملا جميع الاسماع وأشجى كثيرا من
القلوب ، وقد أتبع له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين
عاما ، وهى زعامة حقة لا يمتري فيها إلا المكابرون . وكفى شقى خصومه
فى هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض إلا كما يصنع
المطر فى متين الحصون .

لا تسأل عن السر فى عظمة شوقى ، لأن الشعر فى أكثر
الأحيان من النفحات الإلهية التى لا تنال بالجد وعرق الجبين ، فليس
هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود
وقد أفصح عن ذلك أبدع إفصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شانى أنا أسمو إلى نباهة شأنه

كان بالسبق والميادين أولى لو جرى الحظ في سواء عنانه
 إنما أظهروا يد الله عندي وأذاعوا الجميل من إحسانه
 ما الرحيق الذي يذوقون من كر مى وإن عشت طائفا بدنانه
 وهبوني الحمام لذة بجمع أين فضل الحمام في تحنانه
 وتر في اللهاة ما للبغي من يد في صفائه وليانه
 وكذلك يجيد شوقي حين يسلم خياله إلى فطرته الجيدة ، ويسف
 حين يتكلف ويتصنع ، لأنه لا يتقن الصنعة إلا الشعراء المحرومون
 من هبات الروح

وقد راجعت ما قال شوقي في النسب فكان أكثر ما شاقني
 عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب ، وكلمة الشباب لها في
 شعر شوقي وفي حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم إلا من
 عاشوا كما عاش ، أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت
 حياة مثله بين قن المال والجمال والشباب

وشوقي رجل ألقى في غيابات الماضي أطيب الأحلام والأوهام
 فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين ، ولكن كاهله لا يزال قويًا ولا
 يزال يقول : هات ما عندك يا زمان ! ولا يزال في ذلك الجسم قلب
 حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس .

غير أن شوقي أذكى من ذلك ، فهو يعلم علم اليقين أنه لا بأس
 الجمال بصباه كما كان يفعل في أيامه الخوالي ، وإنما ينقاد الجمال إليه

لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية ، وطبعت اسمه في صدور
الناطقين بالضاد . كل هذا جعل شوقي من أشعر الناس حين يتحدث
عن هزيمته في الحب ، وكان لا يعرف الهزائم في ذلك الميدان
فيارحة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر ، ثم كتب عليه أن
يشهد في آخر أيامه وقائع الاخفاق !

وإلى القارىء نجوى شوقي لقلبه وقد تقطعت حباله في أودية الجمال:
شيعت أحلامى بقلب باك ولممت من طرق الملاح شباكى
ورجعت أدراج الشباب وورده أمشى مكانهما على الأشواك
وبحانبي واه كائن خفوقه لما تلفت جهشة المتباكى
شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه فإذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أني طويت حباتي من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبي كل غاية لذة بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبق مني يا فؤاد بقية لفتوة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى ونشد شد العصابة الفتاك
واليوم تبعث في حين تهزني ما يبعث الناقوس في النساك

وإلى القارىء قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية :

صحا القلب إلا من خمار أمانى يحاذيني في الغيد رث عنانى
حنانك قلبي هل أعيد لك الصبا وهل للفتى بالمستحيل يدانى
تحن إلى ذاك الزمان وطيبه وهل أنت إلا من دم وحنان
إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة ولم تذكر إلها فلست جنانى

أتذكر إذ نعطي الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان
 وأنت خفوق والحبيب مباعد وأنت خفوق والحبيب مدان
 وأيام لا آلو رهانا مع الهوى وأنت فؤادى عند كل رهان
 لقد كنت أشكو من خفوقك دائما فولى فيا لهفى على الخفقان
 سقاك التصابي بعد ماعلك الصبا فكيف ترى الكأسين تختلفان
 وما زلت في ريع الشباب وإنما يشيب الفتى في مصر قبل أوان
 ولا أكذب البارى بنى الله هيكلى صنعة إحسان ورق حسان
 أدين إذا اقتاد الجمال أزمى وأعنو إذا اقتاد الجمال عنانى
 والفرق بين القطعتين واضح ، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن
 الشاعر ألقى به - وهو واحد محزون ، أما الثانية فوسط بين الجيد
 والردى . لأن الشاعر قالها وهو شاب يتكلف سامة الشيوخ ليثبت
 أن الفتى يشيب في مصر قبل أوان المشيب . والضعف ظاهر في قوله:
 أتذكر إذ نعطي الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان
 وقوله :

وأيام لا آلو رهانا مع الهوى وأنت فؤادى عند كل رهان
 والفتور ملموس في قوله :

وأنت خفوق والحبيب مباعد وأنت خفوق والحبيب مدان
 على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين :

وما في الأرض أشقى من محب ولو وجد الهوى حلو المذاق
 تراه باكيا في كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق

فبيكى إن نأوا شوقاً إليهم ويسكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التئائي وتسخن عينه عند التلاقي
وفي القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض في عرض نفسية
الشاعر ، فهو يحدثنا أولاً أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا
من المستحيل ، ثم يعود فيذكر أنه لا يزال في ريع الشباب وأن الله
بنى هيكله صنعة إحسان ورق حسان ، فهو في أول القطعة يندب
شبابه ، وهو في آخرها يتغزل في نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن
الرطيب ! وفي هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعنى ما يقول
ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة :

أرقت وعادتنى لذكرى أحبتى شجون قيام بالضلوع قعود
ومن يحمل الاشواق يتعب ويختلف

عليه قديم فى الهوى وجديد
لقيت الذى لم يلق قلب من الهوى لك الله يا قلبى أنت حديد
وهذا شعر لا بأس به ولكن مامعنى قوله :

لك الله يا قلبى أنت حديد ؟

إننا نظن أن هذا التعبير لا يخلو من ابتذال

ومن الانصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة
القطعة الآتية :

وروض كما شاء المحبون ظله لهم ولا سرار الغرام مديد
تظللنا والطير فى جنباته غصون قيام للنسيم سجود

تميل الى مضى الغرام وتارة
 مشى في حواشيها الأصيل فذهبت
 وقامت لديها الطير شتى : فأنس
 وباك ولا دمع وشاك ولا جوى
 وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة
 غشيناه والأيام تندى شبيبة
 رأت شفقا ينعى النهار مضرجا
 فقالت وما بالطير ؟ قلت سكينة
 أحل لنا صيدان : يوم الهوى مها
 يحطم ربح دوننا ومهند
 ونحكم حتى يقبل الدهر حكما
 ونحن لسultan الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وإن كنا ننكر عليه البيتين
 الأخيرين ، لأن شوقى لم يكن يوماً من رجال السيف ، حتى
 يصطاد المها فى يوم الهوى ويصطاد الاسود فى يوم الجلال ، وهو قد
 سرق هذا المعنى من عبدالله بن طاهر إذ يقول :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجلى على أننا نذيب الحديد
 وترانا عند الكريمة أحراراً راو عند الغواني عبيداً

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل : لأنه كان من كبار القواد
 ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجا ، فى حين أن شوقى حدثنا فى
 مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يحتاز ميدان عابدين على ظهر أتان !

الجزل والرقيق

شوق يؤثر الرقيق على الجزل في الغزل والنسيب ، ولا عيب فيه إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل إلى النعومة واللين ، وإلى القارئ هذه الآيات :

يا حسنه بين الحسان في شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيون وما لهن به يدان
ملك الجوانح والقوا د ففى يديه الخافقان
ومناى منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكى حسنه من لاله فى الحسن ثان
فدعوه يعدل أو يجور ر فانه ملك العنان
حق الدلال لمن له فى كل جارة مكان
والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه « حسن فى شكله » من التعابير العامة ، ولكن لا بأس فاعل ذلك الظبي كان يلعب فى الحارة حينذاك وعبارة « من لاله » عبارة ثقيلة كان ينبغى نفيها عن هذا الغزل الرقيق وزكاة الحسن ما موضعها هنا؟ إن الشاعر يجارى بعض المتقدمين فى هذا المعنى ، وكان ينبغى أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء ولشوقي قطعة رقيقة قالها فى بعض الناس ووهبها للغناء ، وهى

منك ياهاجر دائى وبـكـفـيك دوائى
 يامنـى روحى ودنيا ي وسؤلى ورجائى
 أنت إن شئت نعيمى وإذا شئت شقائى
 ليس من عمرى يوم لا ترى فيه لقائى
 وحياتي فى التدانى ومماتى فى التنائى
 نم على نسيان سهدى فيك واضحك من بكائى
 كل ما ترضاه يامولا ي يرضاه ولائى
 وكما تعلم حبي وكما تدري وفائى
 فيك يا راحة روحى طـال بالواشى عنائى
 وتواريت بدمعى من عيون الرقباء
 أنا أهواك ولا أر ضى الهوى من شركائى
 غرت حتى لترى أر ضى غيرى من سمائى
 ليتنى كنت ردا لك أو كنت ردائى
 ليتنى مأوك فى الغلا ة أو ليتك مأى

وهذا شعر مقبول ، ولكن هل يستطيع شوقي أن يدلنا على
 بيت واحد فيه شيء من الابداع؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء
 هذه المعاني التى ردها مئات الشعراء؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهى التى يقول فيها :

وقالوا فى البديل رضا وروح لقد رمت البديل فرمت صعبا
 وراجعت الرشاد عسلى أسلو فما بالى مع السلوان أصبى

إذا ما الكأس لم تذهب همومي فقد تبث يد الساقى وتبا
على أنى أعف من احتساها وأكرم من عذارى الدير شربا
وهى قصيدة أكثرها مستجاد ، وإنما نقلنا هذه الأبيات لنسأل
شوقي عن معنى قوله :

إذا ما الكأس لم تذهب همومي فقد تبث يد الساقى وتبا
لأننا لانفهم موجب هذه الدعوة البشعة فى الشطر الأخير
وما ذنب الساقى إذا تحجرت نفس الشارب فى حضرة الصهباء ؟ وقد
نفهم أن يكون شوقي أعف من احتسى الراح ، إن كانت تبقى على
عفاف ، ولكننا لاندري كيف رأى أن يحسدنا أنه أكرم من
عذارى الدير شربا !! لقد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى
الشاربين فتكا ، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات ، فإن الراح
لا تثير معاني الحنان إلا فى النفوس الضعاف !
ثم ما قيمة قوله فى كلمة أخرى :

حببتك ذات الخال ، والحب حالة إذا عرضت للبرء لم يدر ما هيا
وإنك دنيا القلب مهما غدرته أتى لك مملوءاً من الوجد وافيأ
وبين الهوى والعذل للقلب موقف كحالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة كتخصر ك بين النهى والردف واهيا
وياليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان
وما قيمة قوله أيضاً يستعطف محبوبته :

فحسب خدى من عيني ما شربا فمثل ما قد جرى لم تلق عينان

وأين وجه الحسن في قوله :

يامن هجرت إلى الاوطان رؤيتها فرحت أشوق مشتاق لأوطان
أتذكرين حنيني في الرمان لها وسكبي الدمع من تذكاراتها قاني
وغبطى الطير ألقاه أصبح به ليت الكريم الذي أعطاك أعطاني
وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارىء بما في
باب النسيب من مواطن القوة والضعف ، أردنا بها توجيه الانظار الى
الجزء الثاني من الشوقيات ، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل
النبل الذي يقول :

وقلت له صبراً فكل أخى هوى على يد من يهوى غداً سيتوب

ليالى الاعتقال

حضرة الأخ أنيس افندى ميخائيل

وصل خطابك البديع ، بعد عشرين يوماً قضاهما تحت أثقال
الرقابة ولم يصلني قبله في معتقل (سيدي بشر) غير خطاب الأخ
الشيخ عبد المجيد زهران ، فما أوفاه يا صديقي وما أوفاك !
سأضرب صفحاً عن الدمة التي سكبتها على القرطاس ، لأن مثلي
لا يبكي له ولا يبكي عليه ، وإنما خلقت لأكون مثلاً في الشمم والاباء
ولو كان بي حب الدعة والطمأنينة لما مكثت في المعتقل هذه الشهور
الطوال فقد فكر القوم في مساومتي لأول لحظة وطئت فيها ثكنة

قصر النيل . ولكنى أقذيت عيدونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء
 فى سيدى البلاء . وأقسم لوسلم المصريين جميعاً وخرج مصطفى
 كامل من قبره فصاح الانجليز لما كان فى ذلك مايزحزحنى قيد أنملة
 عن معاداتهم حتى يكون الجلاء ، وأعيذك أن تحسب أن
 جلاء هم عن مصر إن تم ونحن أحياء نسينا ما فعلوا بنا وبأهلينا
 منذ كان الاحتلال !

أترك ذلك . وأحدثك عما يحول بصدري فى هذه الظلمات . أنا
 حزين يا أنيس ! وكيف لا أحزن وفى المعتقلين أنفسهم أنصار
 لمشروع ملتر الذى يعرض الآن بين التصفيق والهتاف ! ياويلتاه !
 حتى المعتقلين المعذبين يصدقون بأن انجلترا منحتهم الاستقلال !!
 متى تنكشف هذه الغمة فأخرج من بين هذه الاسلاك لأساعد
 الحزب الوطنى فى الغارة الشعواء التى شنّها على أولئك الشياطين
 الذين مكنتهم الليالى من ناصية هذا الشعب الوديع !

ليست انجلترا هى العدو الوحيد للامة المصرية ؛ بل هناك عدو
 آخر لا يزال يبطش بالامة غير وان ولا راحم . ألا وهو الجهل . هذا
 هو العدو اللدود الذى تستعين به انجلترا لاغتصاب وادى النيل
 ولولاه لما رحب المرحبون بأعضاء الوفد حين جاءوا لعرض
 مشروع ملتر . بل لولاه لحقت على هؤلاء كلمة العذاب ! وسأعرف
 ما اصنع حين أعود إلى القاهرة ولو بعد حين . سأعرف كيف أحارب
 الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رؤوس من يستغلون جهل

الامة فينالون به ما لهم من سيء الاغراض ؛ ومنكر الشهوات ،
والله بصير بما يعملون

تسألني عن ليالى الاعتقال ، وأجيبك بأنها ليال سود
لا فرق بين أنصافها والسرار ، ويكفى أن أذكرك أن هذه الليلة
ليلة العيد ، ومنذ لحظة كان الاستاذ الشيخ عبد الباقي سرور يتسم
ويقول : لقد استرحت هذه الليلة من أولادى ، فما يفك عمامتى أحد
ولا يضحك من صلاتي إنسان .

وكان الشيخ محمد يوسف يرفأ قيصره وهو ينشد قول
ابن الـاحف : (علي بن احم) ٢

رحمنا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا
وكان الشيخ شافعى البنا يلاعب الشمعة وهو يتغنى بقول المتنبي :
عيد بأية حال عدت يا عيد بـمـاضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهمو فليت دونك بيـدا دونها بيد
أما أنا فكنت أترنم بقولى :

ليالى النيل واللذات ذاهبة وجدى عليكـن أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكن واحدة فى سنتريس ويـدنى بعض خلانى
إذا تبين دهرى كيف يرحنى من ظلم همى ومن عدوان أحزاني
وبمناسبة سنتريس أذكر أنى أرسلت خطابا للاخ الشيخ احمد
الدكرورى أصف به شوقى إلى مغانى ذلك البلد الجميل ، أين أنا من

سنتريس؟ وأين منى سنتريس؟

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد
فاذا تمثّل في الضمير رأيتّه وعليه أغصان الشباب تميد
حسبك هذا يا أنيس، ولاتنس أن تزور الشيخ عبد العزيز
صقر، وأن تكتب الأخ العزيز محمد افندى محمود حسين، فاما
الشيخ على مبارك فسأعرف كيف أناقشه الحساب!

وأعود الى الثورة الخطيرة التي تشب في جوانحي كلما فكرت
فيما يعمل الانجليز لقهر الأمة المصرية. لييك يا مصر! لن تموت
ونحن أحياء!

(ملحوظة): لا تذكر لأحد كيف وصلك هذا الخطاب فقتشد

الرقابة على المعتقلين المعذبين!

مارس سنة ١٩٢٠

لا تسبوا الدهر!

لقيني أحد أصدقائي في الأسبوع الفائت وبادرني بقوله: لقد
أغضبت الزمخشري حين فسرت قوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا
تبصرون) وقد عزمت بحول الله وقوته أن أغضب الزمخشري مرة
ثانية بتأويل قوله عليه السلام: «لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله»
فليس معنى هذا الحديث أن الدهر اسم من أسماء الله، كما توهم ذلك

كثير من الفقهاء: ولكن معناه أن الدهر الذي تسبونهُ — وهو نظام الكون الذي تحرمون كل شيء حين تخرجون عليه — هو عند الله كاسمه واجب التقديس !!

وسب الدهر عادة قديمة: فرد لها رواة الأدب بابا سموه (شكوى الزمان) وقد تنبه بعض الشعراء إلى هذه الضلالة الفاشية فرثي لأصحابها بقوله:

كل من لا قيت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟
وكان رسول الله رأى جموع الكسالى الذين يحسبون أنفسهم
خلقاء بأن يملكوا ناصية العالم، ولا يعملون شيئا، حتى إذا حاقت بهم
عواقب كسلهم، بسطوا ألسنتهم فى سب الدهر، وشكوى الزمان،
فأراد عليه السلام أن ينهائهم عن هذا الخلط السكراء بقوله: « لا تسبوا
الدهر فان الدهر هو الله »!

لقد ملائم الدنيا صراخا وعويلا: فهل أغنى الصراخ
والعويل؟ أفسدتم على الناس فطرهم بأذاعة الآراء السقيمة
والمبادئ المهلكة؛ فمتى تفتحون أعينكم لتروا نظام الكون كما
خلقه الله، لا كما صورته لكم شهواتكم، وأهوائكم!! نحن صرعى
خطلكم، وقتلى جهلكم، فلا عفا الله عنكم، ولا عاد زمن كنتم فيه
من المسكرمين!!

شكوى عليل

عزيزتى فتحية

لا تطيق يمتأى الكتابة إلا بألم شديد! وذلك لوتعللين سبب
حرمانى من الكتابة إليك منذ حين! وكم تمنيت كلما أدت اللقائف
على تلك اليد الجريحة، لو أن يمتاك الجميلة هى التى تتولى برفقها ضمد
ذلك الجرح البليغ! ولكن هيهات يافتحية، ما كل مأمول ينال،
وكم أنشدت كلما أدنى الخيال محياك الجميل:

إن عيني تعودت كحل هند جمعت كفها مع الرفق لنا
إى والله! فلو رأيتك الآن لفزعت إلى صدرك، كما يفزع
الضحيان إلى الظل الظليل! وما كان هذا الجرح يباق بعد قدومك
إلا كما يبقى الحزن بعد قدوم الرحيق! ولقد كنت خليقاً أن أطرب
لذكراك كلما ألح على المرض، فاعتصمت بذكرى أيامنا الخوالى،
ولكنى ما فكرت فيك إلا امتلأت حقداً على الدهر، فسقطت
صريع جرحين: جرح فى اليد، وجرح فى الفؤاد! فيا عجباً كيف
صارت ذكراك مثاراً اللهم، وكانت كالواحة فى الوادى الجديب!!
الآن — وقد انتصف الليل، ونامت عن شكواى العيون —
أتسمع لعل فتحة تطرق الباب ثم أتبين أتى أرجو ما لا يكون،
وأترقب المستحيل. وهأنذا أعود إلى مساهرة الأنين

سبحان من لو شاء سوى بيننا وأدال منك فقد أطلت عذابى

أرواح الكتاب

عزيزتى فتحية :

وصل إلى خطابك السادس ، وكنت جديرا بشكر يمينك الجميلة على ما صنعت أناملها الحسان. ولكنى لأزال أشعر بالوحشة ، كأن لم تمكّتي إلى حرفا ، ولم يصلنى منك كتاب ! غير أنى لأأنكر أن قلبى يخفق فى كل صباح ، كلما قرب قدوم البريد ! ولقد صرت أحسب حملة الرسائل شرذمة من الملائكة ، ينقلون السلام من قلب الى قلب ، ويصلون بين النفس والنفس ، حتى لقد هممت أن أسبح بحمدهم فى أوقات التوزيع ، كما يسبح فريق من الناس للشمس عند الشروق !!

أجل ! لا أزال أشكو الهجر والصدود ! فاذا كنت تحسبين أن فى هذه الرسائل براء لقلبي من جواه ، وجسمى من ضناه ، أو اذا كنت تظنين أن فى إرسالها إلى إمتاعا لنفسي التى تكلف بالحسن وتولع بالجمال ، أو اذا كنت تأملين أداء ما يفرض الحب على فتاة تعلم أن حياة عاشقها أثر من آثار يديها ، كما كانت حياة الزهر أثرا لما للشمس من ضياء : اذا كنت تنتظرين شيئا من ذلك فأنت واهمة يافتحية ! نعم واهمة وإن ألم فؤادك الذى يفيض بالاحساس - إن الرسائل التى تكتبينها إلى ليست من إملاء قلبك الشفيق

ولكنها كلمات منقولة من الروايات التي يتراسل فيها المحبون ، على أن الرسائل التي تكتب في القصص على هذا النحو لا تمثل أفئدة الأوانس ، لأن كتابها رجال يتمثلون عواطف النساء ! فهم مقلدون وحاكون ! وإنه لمن المخجل أن يملأ عالم الأدب بتقليد التقليد ! فأنت تمثلت عواطف رجل كان تمثل عواطف امرأة ! وجدير بخطاب هو تمثيل التمثيل أن ينال من قلب القارئ ما ينال الحديث المعاد .

لم أكد أقرأ خطابك الأول حتى بعثت إليك بزجاجة من العطر كتب عليها تاجرها الخاص (احذروا من التقليد) وكنت رجوت أن لا يفوتك النظر في هذه النصيحة الثمينة ! ولكن خاب الرجاء ، وتوالت رسائلك على هذا النمط الذي أشفق على أصحابه أن يموتوا وهم أحياء ، وإنهم لميتون !

ستقولين عاشق لا يحسن الخطاب ، وإنى لكذلك فقلما يظرف الشيوخ ، ولكنك ستعلمين الآن أنى لم أطع غير داعي الاخلاص . ألا ترين يافتحية أنى كثيرا ما أتحين الفرص لأحدثك وأنت غافلة ، وأنظر إليك من حيث لا تشعرين ، طمعاً في أن أظفر منك بلفتة لم يشنها التصنع ، أو خطرة لم يفسدها التقليد ؟ أتخسبين أنه لو أقبلت على فتاة ملء العين والقلب كان في مقدور الجمال أن يزحزح هواك من قلبي حتى تحل منه مكانا كان قبلك غير مأهول ؟ وهل ترين أن ذلك لو صح - على سبيل الفرض والتقدير - كنت أقدر على التفوه بكلمة الاخلاص والفناء في الحبيب ؟ وإذا كان محالاً أن

أفتح ذراعى لفتاة غيرك وهى تقبل على وتصدف عن سوى
فكيف أطرب من كلمات تقدمها معشوقة إلى عاشق ، من حيث
لا يصح لفتاك المدله أن يسمع لغير مايجرى على شفتيك من حديث ؟
أم كيف أعتد بخطاب وضعه رجل على لسان امرأة ، فكان غاية فى
المسخ والتشويه ؟

لم يرقنى من تلك الرسائل إلا ما فيها من الأغلاط الاملائية لأنها
تمثلك وقد حفظت بعض القطع المختارة فبدا لك أن ترسلى شيئا منها
إلى محبك المسكين ، ظنا منك أنه يسكن إلى الكلام الجزل ، ويخلد إلى
القول الرصين ، وقد فاتك أن تذكرى أنى حفظت فى عهد الحداثة
أكثر ما كتب الحريرى ، والخوارزمى ، والبديع ، ومن اليهم من
فحول الأدب وأعلام البيان ، وأنى وإن نسيت أكثر ما حفظت
لأزال أملك من آثارهم ما يغينى عن النظر فى أكثر المخطوطات
الجديدة التى تقترب فى مبناها من تلك السبائك التى تعز على من رامها
وتطول . فما كان أغنانى إذا عن !! . .

إن هناك فرقاً بين عاطفة الحب وبين الحاسة الفنية ، فانا أنعم
برسائلك من ناحية غير ناحية الصباية . ولست أناجيك حين
أقرؤها لأنك لم تصورى بها قلبك وهو يفيض حنانا على محبك
الذى يعيش فى أهله كالغريب ! ولولا أنك كتبته بخطك الذى يسحر فى
خلوصه من شوائب التنميق ، وأفضت عليها عبقا من روحك

حين الاختيار؛ ولولا أنها منك يافتحية، لعددتها من سقط المتاع!!
 لأنني لا أطرب للآداب والفنون، إلا من حيث هي وسائل إلى
 القلوب الصوادف، وقد منحتني قلبك والحمد لله والحب! فما الذي
 حال بينك وبين إرساله إلى في ثنايا الخطاب؟ أتذكرين الكلمة البديعة
 التي وصلتني منك في العام السالف؟ أنا أذكرها لك الآن لتعلمي أني
 أعشق الروح قبل أن أعشق ما يصور الروح، تلك هي قولك في
 حلو العتاب (والدي واخذ على خاطره من سيادتكم) وكذلك فلتعلمي
 أن اللغة الفصيحة لا تحلو منك إلا بعد أن تتذوق الآداب. وبهذه
 المناسبة أرجو أن لا تكتبي إلى ثانية باللغة الفرنسية لأنني لم أطمع
 بعد في أن أسمع منك رجوع الحمام في أبراج باريس! وكم تمنيت أن
 تدرك الفتيات المصريات سر اللغة العربية فيسمع منهن المصريون
 ما كان يسمعه توبة من ليلي الأخيلية، وما كانت تدخل به ولادة
 على فؤاد ابن زيدون

عفا الله عنك يافتحية فقد أخطأت كما يخطئ بعض الناس.
 وإنني لأرجو أن لا يكون النهوض فرديا في مصر على حين أصبح
 خلقا عاما في كثير من الامصار والممالك، فان عدت إلى التقليد بعد
 مبعث الابداع فسيطول اللوم والتأنيب. أما الآن فلك من غفلة
 الجمهور شفيع، والسلام

اكتوبر سنة ١٩١٨

حديث الحب

— ١ —

كتبت الأنسة الادبية حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله الحب)
وقد أنحت فيها على الحب والمحبين . قالت فى أثنائها عن نفسها :
«لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» ثم قالت : «الحب عدو
لدود للانسان . فيجب أن يبعد عن القلوب ، ويجب أن تعيش
القلوب فى جو غير جو الحب»

(.... تباعدوا عن الحب)

وقد رأيت أن أجيبها عن كلمتها تلك بهذه الكلمة الصغيرة . قلت :
تلوم حياة على العاشقين رويدا ورققا بنا يا حياى
جهلت الغرام فليت المحب هنيئاً العينيك فى الناعسات
أليس كذلك أيها الاستاذ زكى مبارك ؟؟ اليك يساق
الحديث ، والسلام

(شاعر)

(السكرية)

- ٢ -

في مصر شاعر كبير، وافر الأدب، كثير الحياء، يحدثك وكأنه يستفيد منك فيملئ عليك ما يبهرك من آياته البينات، وما زلت أذكر كلمة صديقي الأستاذ الشيخ سليمان نوار وقد حدث هذا الشاعر الجليل منذ ثمان سنين، إذ قال لي بعد هذه المحادثة: انك لاتدرى أتعدده من الشعراء، أم تعدده من علماء الأدب، فتذكرت إذ ذاك قول القدماء في الاصمعي: إنه أعلم الشعراء، وأشعر العلماء ولهذا الشاعر طابع خاص في النسيب، يكاد يتمثل في قوله:

أحس في القلب وقدأ يارب لا كان حبا

وقد اخترت هذا البيت لقربه من كلمته في حوار الآنسة حياة فهمي:

تلوم حياة على العاشقين رويدا ورفقا بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلبت المحب هنيئا لعينيك في الناعسات
ولهذا الشاعر المقيم (بالسكرية) فضل الاشادة بكاتب هذه
السطور، فقد دعاني الى حساب الآنسة حياة، وهو يعلم كيف عجزت
عن حساب الآنسة منيرة، وإني بهذا العجز لمختال فخور!!

يرى سيدى الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب فلامت
المحبين ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب، لأن المرأة
كالسياسي سواء بسواء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله
أعلم بما يكتبون، فاذا قال السياسي (لا) فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا

قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديق الأديب فاني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الافكار سنة ١٩١٩

عهد السياسة كاذب لله درك ياسجاح

وقد قال (تاسو) الشاعر الايطالى المعروف : إن المرأة تفر وتود أن تلحق وهى فارة ، وتأتى وتود فى إباطها أن تسرق ، وتناضل وترغب أن يظفر بها فى النضال ! فقول الآنسة حياة « لست بمن تغلب الحب على قلوبهم » معناه ان الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد !! وقولها (الحب عدو لدود للأنسان ؛ فيجب أن يبعد عن القلوب) معناه : الحب مادة الحياة ، فيجب أن تزود به القلوب وقولها تباعدوا عن الحب معناه : أقبلوا على الحب ، بأسماعكم ، وبأبصاركم وقلوبكم أيها الشباب !

هذا يا صديقى ما تريده الآنسة حياة فهمى . فهى حين تقول « لعن الله الحب » إنما تريد « حيا الله الحب » !

ولا يفوتنى قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال : أنت تأمر يننا بأن لانحب (سمعا وطاعة!) ولو انى سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاما لنجوت من الحب ، ولا سترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكنى يامولاتى لسوء الحظ قد أحببت ، وقد ضربت بمحبتى الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب

على يدك الطاهرة ، جعل الله في يمينك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك
أن تصفى لى طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن أسماء
الحب الضلال ؟؟

أنا فى انتظار الجواب !

ملحوظه - أرجو أن تحترس الأنسة حياة ، وهى تكتب
انواع العقاقير من أن تنهائى عن التطلع إلى العيون والحدود
والثغور والنحور والنهود ، فانه لاسييل إلى مثل هذا المتاب ! وإنما
أريد أن أسلو وأنا أعبت بأفنان الجمال ، كما يرد الشارب الكأس
وهى توهج بين أنامل الساقى الجميل !!

— ٣ —

رغب الأديب الكبير النابه والكاتب الفنان اللبق الأستاذ
زكى مبارك فى كلمته الى الكاتبة الأدبية الأنسة «حياة» أن تصف
له دواء للسلة عن الحب . فقد اعتزم الأبلال منه فيما يقول . بعد
أن مست فيه العيون وتوزعت ليه الغيد . بيد أنه اشترط عليها فيما
استوصفها إياه من الوصفات والعقاقير الاتحميه بواعث الشوق
ولا تحجر عليه أسباب الهوى ودواعى الشجن فقال «أرجو أن
تحترس الأنسة حياة وهى تكتب أنواع العقاقير من أن تنهائى عن
التطلع الى العيون والحدود والثغور والنحور والنهود : فانه
لاسييل الى مثل هذا المتاب . وإنما أريد أن اسلو وأنا أعبت بأفنان

الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقى الجميل
فكان كمن يتقى الداء بالداء ويستكف النار بالحلفاء . وأكبر الظن
أن تلك الوصفات وهذه العقاقير لا تصاب في «صيدلية» أنسة خفرة
حية مثل الأنسة حياة !

من أجل ذلك نقش على صديقنا النبيل أن يتقبل منا أن
نستطب لدائه عنها ، ونصف له الدواء ، نحن لا هي . أجل إنه لعزیز
علينا أن يرمى ذلك الجفن الغضيض بالاطراق ، ويندى ذلك الجبين
الوضاح بالخفر ويخرج ذلك الخد بالحياء ، فليأذن لى في أن
أنشده قولى

تناهب لبك سود العيون ن وقسمت فى كل نهد ونحر
دواؤك عند مراض اللحا ظولا يبطل السحر الابسحر
ذلك دواؤك الذى يطيب لك ويقر بعينك تناوله . ولاندعوك
الله بالشفاء ، من ذلك الداء ، وإن أبيت إلا جفوة للحب ، وعريدة
على من تحب ، فطالما سمعناك تنشد مثل قول الشاعر :

أعز الله أنصار العيون وخلص ملك هاتيك الجفون
ودام لها على ضعفى اقتدار وإن هي أفسدت عقلى ودينى
وبعد فهنيئلك تلك السلوة . وندعو الله لصاحبك سألبة لبك
بل ندعو عليك لالك بمثل ماقلته أنا لشبيبها آفا من كلمة :

لا شفى الله منك جفنا مريضا وشفى من جراح جفنيك مريض
آمين آمين . والسلام عليك حسن القاياتي

كيف عرفت فقيد اللغة والادب

الشيخ سيد المرصفي

كلمة رثاء - كيف رأيت الشيخ المرصفي لأول مرة - كيف كان يحاور الطلبة - فضله على كاتب هذه الرسالة - كيف نشأ وكيف تعلم - تفرد بالتعمق في فهم اللغة والادب - رأيه في قدم العالم - كيف ثارت في درسه مسألة القبر النبوي - حقه على مشايخ الازهر - إيمانه بجلال القرآن واحترامه للرسول - رأيه في محمد هلال - موقفه في مسألة الشيخ علي عبد الرازق - كيف ثار عليه الدكتور طه حسين - اشتراكه في الثورة العراقية ورأيه في تضامن المصريين - حبه للمال وسخريته من السخاء - رأيه في الحجاج - كيف أقضى بصره تحت ضوء المصباح

باريس في ٧ مارس سنة ١٩٣١

كنّا في ساعة أنس، وكان الرفاق يتحدثون في صفاء، فيلقون الكلام على عواهنه ذات اليمين وذات الشمال، وجرى في المجلس تدريس الادب في المعاهد المصرية، فانطلق المحدثون يسلقون - مدرسي الأدب بالسنة حداد. فقلت: كيف غاب عنكم أيها الرفاق ان تذكروا دروس الشيخ المرصفي في الازهر الشريف؟ فقال قائل منهم: أتريد الشيخ سيد المرصفي الذي مات منذ أسابيع؟ - مات منذ أسابيع؟ وكيف؟ لعله مرصفي آخر أيها الرفيق!

- المرصفي الذي نعتة جريدة الاهرام وجريدة الشورى هو مؤلف أسرار الحماسة وشرح الكامل ، فهل هو صاحبك الذي تريد؟
ثم كانت لحظة دارت فيها الأرض ، ومادت السماء ، وانطلق الرفاق في حديثهم لا يلوون على شيء وظللت في حزن صامت عميق هو أشجى وأوجع من البكاء والنحيب

أيتها النفس أجملی جزعا إن الذي تحذرين قد وقعاً
مات الشيخ المرصفي دون أن أبلل أ كفانه بدموعي ، ودون
أن أحمل نعشه إلى مقره الاخير

فيما أيها الرجل الذي عرفت بفضلله أسرار اللغة العربية
واستطعت بفضلله أن أرفع رأسي بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام
أيها الرجل ، أنا مدين لك بكل شيء في حياتي اللغوية والأدبية ، ولا
يزاحمك في قلبي إلا إنسان واحد هو فقيده الأدب والبيان الشيخ
محمد المهدي الذي خلانا وراح مبكيا عليه منذ سنين

لست وحدی تلمیذك أيها الشيخ الجليل ؛ فهناك مئات انتفعوا
بعلمك وأدبك ، ولكنني الرجل الوحيد الذي بكى لموتك في حرارة
دونها بكاء الأطفال ، وكاد نعيك يقض مضجعه في هدأت الليل
وينسيه معاني الحياة في مدينة الحياة



في سنة ١٩١٣ رأيت في الازهر رجلا تحيل الجسم ، غائر العينين ، لاتفصح سياه عن شيء ، وحوله عشرة من الطلاب ، وهو ينشد بصوت شجي حنون :

حماسة بطن الوادين ترنمى سقاك من الغر الغواذى مطيرها
أينى لنا لازال ريشك ناعما ولازلت في خضراء جار نيرها
فجلست أستمع لانشاده ، وماهى إلا لحظة حتى تبينت أن
الذى يحرم من دروس ذلك الرجل لا يخرج من الازهر إلا بصفقة
المغبون . ثم أخذت أواظب على تلك الدروس في حماسة وإعجاب
وكانت عادة الرجل أن يلقى الاسئلة على الطلبة في تجاهل العارف ، ثم
يتركهم يستنبطون الجواب ، وبعد يومين من اتصالى بدرسه جاءت
كلمة ابن عباس (ماعصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبى
ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله : أهذه مثلبة أم منقبة ؟ فأجاب أكثر
الطلاب بأنها مثلبة ، وأجبت وحدى بأنها منقبة . فقال : وكيف ؟
فقلت يريد ابن عباس أن شعر ابن أبى ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل
الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال !

فقال الشيخ رحمه الله في حماسة شديدة (إيه يا عروس الأدب !)
وكانت أول كلمة حبت إلى قلبى دراسة الآداب .
كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت أبكر إلى درسه لأقرب

منه . وكنت أكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسا هي اليوم أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف . وكان الشيخ تعود أن يراني أمامه ، فجئت يوما متأخرا ، ورفض الطلبة أن يفسحوا لي المجال ، فقال الشيخ : (أين زكي) فأجبت من بعد : هأنذا يا مولاي ! فقال الشيخ رحمه الله : (وسعوا له وسعوا له لعله ينفع) !

فان كان من بين آلاف القراء قارئ واحد استطاب ما أكتب ولو مرة واحدة فليذكر أن الفضل في ذلك يرجع إلى تشجيع الشيخ سيد المرصفي طيب الله ثراه . وإني لأذكر أنه كان يلقي درسا في مسجد السلطان برقوق ، ثم حضر الشيخ على الزنكلوني حفظه الله فقال الشيخ : إنه ليحزنتي يا شيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها ، وإني لأخشى أن يضع منا زكي مبارك كضائع منا طه حسين !

هذه أشياء لا تقال ، ولكن لها دلالتها على رفق ذلك الرجل - كان - بتلامذته ، وعطفه عليهم ، وتشجيعه إياهم ، فليس ذكرها من الزهو في شيء ، وقد يكون فيها تذكرة لبعض الأساتذة الذين يشيخون بوجوههم عن تلامذتهم ولا يعرفون أن التلميذ ينتظر من أستاذه ما ينتظر الابن من أبيه ، وأن كلمة واحدة قد تنقل الطالب من حال إلى حال : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعي ، فكنت

أحضر جميع دروسه وأصاحبه في الطريق ، وأمضى إلى بيته فاطلع على مالهديه من مكنون الذخائر الادبية واللغوية وأنشده شعرى فيقومه ويصلح منه في رفق كثير .

وجاءت أيام شغلت فيها عنه ، فكتب إلى في سنة ١٩٢٨ يقول « لقد شغلتك الشواغل كما شغلت ولدنا الدكتور طه حسين فاعدت أراه ولا أراك » فمضيت اليه أزوره فوجدته قعيد بيته وقد أضناه المرض وهو بالرغم من قسوة الهرم ماض في تصحيح شرح الكامل فسألني رحمه الله عما شغلني عنه ، فاعتذرت بدروسي في الجامعة المصرية فقال : كم درسا تلقى في الأسبوع ؟ فاجبت : عشرة ! فقال : أتم إذا فعلة لا أساتذة ! ولماذا إذن تقولون جامعة وتشغلون بكم الناس ! وتلك كانت آخر مرة رأيت فيها ذلك الأستاذ الجليل



ولكن كيف نشأ الشيخ سيد المصرفى وكيف تعلم ؟ وكيف وصل إلى ذلك المركز الخطير ؟

المدعش حقا هو أن رى ذلك الرجل يصل إلى تلك القمة العالية في فهم اللغة والأدب بدون أستاذ . وقد يقال : إن صيت الشيخ حسين المصرفى بلديه هو الذى أوحى اليه فكرة التعمق في الدراسات اللغوية . ولكن الشيخ حسين المصرفى من طراز آخر ، وليس بين الرجلين صلة ظاهرة من الناحية العقلية . والذى

يقرأ كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي لا يرى فيه إلا مجموعة من معارف المتقدمين ، نقل أكثرها بلا تصرف عن كتاب الصناعتين

يضاف إلى ذلك أن الشيخ سيد نشأ فقيرا معدما ، وكان الأزهر حين اتصل به لا يعرف ما اللغة ، ولا يدرى ما الأدب ، وكان المتأدبون يعيشون بين أهله غرباء

والشيخ سيد حين دخل الأزهر عاش أزهريا صميما لأول عهده ، فكان يحفظ المتون ، ويراجع الشروح والحواشي والتقارير ، وكان يقع له أن يحدثنا في درسه عن الساعات الطويلة التي كان يقضيها في حضرة الشيخ الشرييني ، وبلغ به الأمر مرة أن لعن علماء الأزهر أجمعين في إحدى المناسبات ، فتأفف بعض الطلاب ، فقال الشيخ :

« أنا مالي ، أنا أفكر فيكم ، أنا خلصت ، أنا خلصت »

وكنت في تلك اللحظة أتأمل وجه الشيخ وأرقب تغير أساريره ، فرأيتة يقول في صوت خافت وقد واجه صفحات الآمالى « أنا خلصت ! ولكن كيف ؟ بعد ماضيت شباي فيما لا يفيد من علوم هؤلاء الناس ! »

فليت شعري كيف استطاع الشيخ سيد أن يخلص من الدراسات الأزهرية ، ويفرغ لدراسة اللغة والأدب ، بحيث أمكنه أن يكون نسيج وحده في هذا الباب ؟

وهنا لانجد بدا من أن نصارح القراء بأن الشيخ سيد
المرصفي عاش وحيد زمانه في مصر والشرق نحو ثلاثين عاماً كان
هو الحجة البالغة في فهم اللغة والأدب والقرآن، وكان لا يستطيع
إنسان مهما كبر أن يزعم أنه يقارب الشيخ المرصفي في فهم
النصوص القديمة، وحسب القراء أن يذكروا أنه هو الرجل الفذ
الذي تفرد بدرس الأراجيز، ونسخها بخطه وشرحها شرحاً وافياً
لا زيادة بعده لمستزيد، في عصر قل فيه من يستطيع أن يواجه
رؤية أو العجاج

وهذا الذي أقوله لا مبالغة فيه، وهو رأى المنصفين من الذين
تلقوا عن الشيخ المرصفي أو صاحبه، وفي ذلك ما يضاعف الحيرة
لمن يريد أن يعرف كيف انقطع ذلك الرجل لدراسة اللغة والأدب
في عهد كان الانقطاع فيه إلى الأدب من أمارات الفلاكة والجنون
وهل يستطيع القراء أن يدلونا كيف كان يمكن رجلاً أزهرياً
فقيراً معدماً أن يصل بجهد إلى مقارعة الكسائي وسيبويه وابن
الأعرابي والزخشرى؟ وكيف أمكنه أن يتفرد بتلك القوة نحو
ثلاثين عاماً؟

لقد فكرت كثيراً في الظروف التي كونت الشيخ سيد المرصفي
ثم انتهيت إلى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء



كان الشيخ المرصفي غريباً بين الأزهريين لا يحب أحداً ولا يحبه أحد ، وقدمرت أيام كان يتقرب فيها إلى ربه بلعن علماء الأزهر ولذلك أسباب نبذ بعضها في هذا الحديث :

جرت في درسه مرة عبارة : (العالم قديم) فقال : إى والله !
العالم قديم

وهنا نقرر أن الشيخ المرصفي كان له إيمان خاص ، وكان لا يتورع أن يذكر أن أكثر الناس على ضلال ، فلم يسكد الأزهريون يتسامعون بأنه يقول بقدم العالم وأنه يعتقد غير ما يعتقدون حتى انطلقت ألسنتهم بدمه وثلبه ورميه بالكفر والفسوق .

وقد استطاع الأزهريون مرة أن يحملوا الشيخ حسونة النواوى على تعطيل درسه إلى أن أشار الشيخ محمد عبده باعادته ، وهناك حكاية مستفيضة لا بأس من ذكرها في هذا المقام ؛ فقد تحدثوا أنه مرت في درس الشيخ المرصفي عبارة جاء فيها أن الحجاج قال عمن يطوفون بالقبر النبوى « إنما يطوفون حول جيفة » وكان الشيخ طه حسين يومذاك يواظب على دروس الشيخ المرصفي ، وكان فيما زعموا يتشهى الاحاد والخروج على الدين ، فأخذ يقول : كلام الحجاج صحيح ، وصحيح جدا ، ولم لا يكون صحيحاً وكل جسم ميت أو سيموت ، وكل ميت جيفة أو سيصير جيفة ، وجسم النبي ككل

الاجسام ، وكل الأجسام تبلى فجسم النبي يبلى ، وكل بال جيفة فجسم النبي جيفة الخ ، فقامت مناوشة عنيفة بين الطلبة وبين الشيخ طه حسين ، ووصل الصدى إلى الشيخ حسونة فأمر بتعطيل درس الشيخ المرصفي ، وكانت أول مرة اتهم فيها الدكتور طه بالمروق وأخذ الأزهريون ينسبون مرقه إلى الشيخ المرصفي ، في حين أن الشيخ وتلميذه لم يقصدا الاساءة إلى الرسول .

وهذه القالة السيئة التي دارت حول الشيخ المرصفي جعلته يحتقر مشايخ الأزهر ويحقد عليهم ، ولا يذكر أحدا منهم بخير حتى الأموات منهم . وأذكر أن المرحوم الشيخ مصطفى القاياتي كان يلقي دروسا في الأدب والانشاء ، وكان الطلبة يقبلون عليه أيما إقبال وكنت من المعجبين بالطريقة الخطائية التي كانت تصبغ بها دروسه فسألت الشيخ المرصفي مرة عن رأيه فيه فأخذ يتجاهل السؤال فألححت عليه ، فلم يكن منه إلا أن قال : وأين الشيخ مصطفى من أبيه ؟ لقد كان أبوه ملكا .. وبهذا فر من الجواب !

ولكن هل معنى هذا أن الشيخ المرصفي كان رقيق الدين ؟ أستطيع أن أؤكد أن الشيخ المرصفي كان من أقرب الناس إلى ربه وإن لم يكن من أحرصهم على التمسك بالحروف ، فقد كان ذلك الرجل دقيق الاحساس أمام القرآن المجيد ، ولم أجد فيمن عرفت من كان يفهم القرآن كما يفهمه غير المرحوم الشيخ عبد العزيز جالوش وكان جمال القرآن يحمله أحيانا على الذهول ، وكانت له لحظات

يقضيها أسير الخشوع لروعة القرآن الشريف ، وكان يسمى النبي عليه السلام « سيدنا رسول الله » وكانت كلمة « سيدنا » حية في نفسه حياة قوية جدا لا يدركها إلا المؤمنون الفانون في الله والرسول



أشرت في صدر الكلام إلى أن هناك مئات انتفعوا بأدب الشيخ المرصفي ، ولتحديد ذلك أذكر أن أدبه وعلمه وصلا إلى الناس عن طريق تلاميذه ، أما هو فلم يتلمذ له شخصيا إلا عدد قليل ، ولذلك أسباب : منها أنه كان ضعيف الصوت فلم يكن يستمع إليه في الأزهر أكثر من عشرة طلاب ، ومنها أنه كان قاسيا عنيفا في معاملة الطلاب الذين حرموا سلامة الذوق واشتعال الذكاء ، وكانت أصغر قذيفة يلقي بها في وجه الطالب المتنطع عبارة : « نعم ، يا ابن خروفا ! » وكان من العسير عليه أن يصبر على الطالب المتوسط الادراك وكذلك كان يطرد بعض الطلاب في كثير من الأحيان ، ومنها أنه كان يحبس الطلبة في درسه نحو ثلاث ساعات ، وأين من يصبر على ذلك في زمن عرف أهله بالسامة والملال . لاسيما إذا لاحظنا أنه كان يواجه مشاكل دقيقة من لغوية ونحوية وصرفية في عناية لا يصبر على لأوائها إلا الأقلون

وأظهر الأسباب في انصراف الناس عن درسه يرجع إلى أنه كان يفسد الطلبة على مشايخهم إفسادا لا صلاح بعده . فقد كان سئ الظن جدا بمدرسي الأزهر ، وكان يراهم جميعا كسالى أذعياء ، وكان فوق هذا يراهم في الإيمان من العوام المقلدين . ولهذا كان لا يتعلق به إلا الطلاب الذين يتأهبون للثورة على الأزهر وتقاليده ، حتى ليندر أن يوجد بين الثائرين على التعاليم الأزهرية شاب لم يصله بالشيخ المرصفي سبب قريب أو بعيد

ولنقيد هنا أن تلامذة الشيخ المرصفي لم يقصروا على الأزهر وحده ، فقد كان يعطى كثيرا من الدروس الخصوصية لعشاق اللغة والأدب من غير الأزهريين وأظهر تلامذته الأجانب عن الأزهر الكاتب المعروف محمد إبراهيم هلال

كان محمد هلال بك غنيا ، وكان كريما ، وكان فيما يظهر خفيف الروح عذب الحديث فتعلق به الشيخ المرصفي تعلقا شديدا ، وظل يتغنى به طول حياته ، ولا أذكر أنه سألى عنه إلا وعينه مغرورة بالدمع .

ومن موجبات الأسى أن محمد هلال بك اضطر في الأعوام الأخيرة أن يتكسب من قلبه المرهف البليغ ، فكانت أخبار ذلك تقع على الشيخ المرصفي وقع الصاعقة ويقول : لعالك أيها الجواد المتلاف ! كان الشيخ المرصفي شاعرا ، ولكنه لم يقل شيئا جيدا إلا في محمد هلال بك ، وكان يرى أن الشعر لا يطيب في إنسان سواه ..

وتلك إشارات تثبتها للادب والتاريخ



ومن تلامذة الشيخ المرصفي على عبد الرازق ، وطه حسين
وقد كان هذان الرجلان يمجداه كل التمجيد إلى أن جاءت حكاية
كتاب الاسلام وأصول الحكم ، فنفضا أيديهما من وداه أسفين
وتفصيل القصة أن الشيخ المرصفي كان عضواً في هيئة كبار
العلماء التي قضت بحرمان الأستاذ على عبد الرازق من لقب العالمية
وفصله من منصب القضاء . وقد كان حكم الهيئة بالاجماع ، وكان
ينتظر من الشيخ المرصفي أن يدافع عن تلميذه ولكنه لم يفعل
وكان هذا الموقف سبباً كافياً لأن يبسط الدكتور طه لسانه
في أستاذه القديم ، فكان يقول بدون تورع : ماذا تنتظرون من رجل
كان يتقاضى سبعين قرشاً فأصبح يتقاضى أربعين جنيهاً ! يريد أن
الشيخ المرصفي جبن عن نصرة تلميذه خوفاً من الفقر وتعلقاً بالثراء
والواقع أن الظروف كانت سيئة جداً ولم يستطع الشيخ
أبو الفضل الجيزاوي نفسه أن يدافع عن الشيخ على ، مع أنه كان من
أكثر الناس احتراماً لأسرة عبد الرازق ، والدكتور طه نفسه
لم يدخل الميدان مدافعاً عن الشيخ على ، ولم يكتب في مناصرته إلا
مقالة واحدة لم يذيلها باسمه الصريح ، ولهذا معناه عند من يعقلون !

يضاف إلى ذلك أن الشيخ المرصفي كان قد أسن جداً وفقد نشاطه ، وانضوى طائعاً بحكم السنين إلى صفوف المحافظين ، فلم يكن ينتظر منه أن يناصر رجلاً وصفوه بالكيد للدين والخروج على التقاليد

وقد عاتبت الشيخ المرصفي بعد ذلك فقال : الشيخ على رجل فاضل ، ولكن قلبه أحمق

فيادكتور طه ، من لك بأخيك كله ، لعل له عذرا وأنت تلوم !



اشترك الشيخ المرصفي في الثورة العراقية ، ثم اعتقل مدة قصيرة فلم يسأل عنه احد ولم يفكر فيه صديق . فلما خرج من المعتقل وضع لنفسه خطة سار عليها طول حياته ، وهى سوء الظن بتضامن المصريين ، وقد بلغ به الأمر أن يرفض الاشتراك في جمعية أزهرية تكونت سنة ١٩١٥ للدفاع عن الدين ، وحجته في ذلك كانت أن العلماء كسائر المصريين لا تصح الثقة فيهم ، ولا يحسن الركوب إليهم ... وهذه كلمة ثبتها للتاريخ ، راجين ان تكون الجماعات المصرية أعلى من أن يصدق فيها هذا الرأى الفظيع .. وكذلك كان رأى الشيخ المرصفي سيئاً في الهيئات الاسلامية جميعاً ، فلم يكن يفكر في شرق ولا غرب ، ولا تتعلق نفسه بشئ غير التدريس والتأليف

وكان رحمه الله يحب المال حبا جما ، وكان لا يتخرج من إعلان أن
السخاء المعروف عن العرب لم يكن إلا ضربا من الجنون
وقد وقعت في درسه مرة العبارة الآتية :

وقف رجل على باب بيت وقال : هل من لبن يباع ؟ فقالت
ربة البيت : إنك يا هذا لثيم ، أو حديث عهد بقوم لثام ! هل يبيع
اللبن كريم ، أو يمنعه إلا لثيم ؟

فقال الشيخ : يا سبحان الله ! أنا لا أفهم هذه الأشياء
وكان إذا سلم عليه أحد الطلبة فرأى يده ناعمة لينة قال له : مالك
كده يدك زى يد الأولياء !

ثم ينطلق فيعجب كيف يأكل المتصوفة طعام الناس ثم تقبل
أيديهم ، ويقول : هم الذين يجب عليهم أن يقبلوا أيديكم لأنكم
تطعمونهم ، فما هذا الحال المقلوب !

وجاء في درسه مرة قول بعض الأعراب يودع رفيقاله :
انصرف راشدا يرحمك الله !

فقال الشيخ : هذا هو الكلام . ولكنكم تجدون علماء الأزهر
جميعا يكتفون بعبارة واحدة :

« الله يفتح عليك »

وهي عبارة كانت تجرى على السنة المشايخ جميعاً حتى غيرها
أستاذنا الشيخ الظواهري بعبارة

« بارك الله فيك »

فهي الآن فيما أظن كلمة الشيوخ أجمعين أكتعين أبصعين!
 وكان الشيخ رحمه الله قد لقي الأمرين من أصحاب المكاتب
 فقد كانوا يأخذون مؤلفاته ثم لا يفكرون في الحساب فقرروا أن يبيعها
 بنفسه ، وهي خطة عوجاء ، وهذا هو السبب فيما أصيبت به مؤلفاته
 من الخمول

كان الشيخ المرصفي بخيلا على نفسه في كل شيء ، إلا في اقتناء
 الكتب ، وقد شكوت إليه مرة أني لا أملك نسخة من لسان العرب
 فقال في انفعال : بع ثيابك واشتر نسخة من اللسان

وكان رحمه الله يرى أن العرب اختصوا من بين الأمم بالفصاحة
 والبيان ، فكان يقول كلما جاء شاهد جميل : هم العرب يقولون
 ما يشاءون !

وكان رحمه الله يحترم الجبابة من القواد أمثال زياد والحجاج
 وكان يعيب على المشايخ أن يقولوا في الحجاج : قبحه الله ! وقد غضب
 أحد الطلبة يوما من ثناء الشيخ على الحجاج ، فرفع الأستاذ بصره
 وقال للطالب : لو نشأت في عصر الحجاج لكنت رجلا !

وقد نظر الشيخ مرة في الكتاب فزاغت عينه عن السطر
 المطلوب فقال :

رحمة لك يا عيني ! لقد طال ما أقذيتك تحت ضوء المصباح !

• • •

وبعد فهذه كلمات تمثل شخصية الشيخ المرصفي بعض التمثيل
أردنا بها التقريب لا الاستقصاء . فرحمة الله على ذلك الرجل الذي
كل نفع من اتصلوا به ، وهداهم سواء السبيل في فهم نصوص الآداب
وما نزع من اننا وفيناه حقه ، وإنما أدينا بعض ما يفرض الوفاء
والسلام عليه بين الأبرار

فيه قولان !

الح بعض الأدعياء على أبيه أن يدعى العلم !! وزوده بهذه
النصيحة : اذا سئلت عن شيء لم تعرف وجه القول فيه فليكن
جوابك (فيه قولان) فسمع الوالد نصيحة ولده البار ! وكان الناس
قديمًا قلبا يعنون بغير المسائل الفقهية والنحوية ، فسأله سائل عن
طهارة الكلب فأجاب : فيه قولان ، فقالوا صدق لأنها موضع خلاف
بين الشافعية والمالكية !! وسأله آخر أيرفع الخبر أو ينصب بعد ما ؟
فأجاب فيه قولان ! فقالوا صدق لأن فيها خلافا بين الحجازيين
والتميميين !

وكان في المجلس رجل ماكر ظريف فلاحظ أن هذا الرجل جاهل وأنه ينفذ خطة رسمت له . فسأله : أفي الله شك ؟ فأجاب المسكين فيه قولان !

فجاء ابنه — رضى الله عنه ! — وقال صدق في جوابه فان فيها قولين في الاعراب ! ولكن هيهات أن تغني المغالطة بعد أن ضحك الناس من عمامة أبيه !

وهكذا تجرى الحال في مصر : فكل مشكلة لها وجهان ، وكل أمر فيه قولان ، ولا يعلم إلا الله متى يعرف المصريون كيف تحدد نقط الخلاف .

الادب الجديد

أ كنت تحسبنا في حاجة إلى أن نبني داراً جديدة للبرلمان لو أن قصر « اللابيرانت » موجود ؟ إننا لو فعلنا ذلك لكننا من المسرفين وهل ترى من الحزم أن نبني قناطر أخرى بمحاذاة القناطر الخيرية وهي ما هي في متانة البناء^(١) ؟ وهل ترى من حسن الإدارة أن نحفر مجرى آخر للنيل يسير فرع رشيد أو فرع دمياط على حين لم يشك أحد الظماً بالقرب من هذين الفرعين ؟ وهل تجد من الرأي أن يبنى مسجد جديد فوق القلعة مع أن مسجد محمد على يسع أضعاف المصلين هناك ؟

(١) تغيرت الحال ، فقد كتب هذا المقال منذ زمان

الأمر واحد أيها القارىء، في عالم المحسوسات وفي عالم المعقولات
فما بالناس نبنى ما لا حاجة اليه في الآداب باسم التجديد والابداع ؟
وأريد أن أقدم لك هذا الموضوع بشيء من التفصيل : هل تذكر أن
النقاد الأقدمين فضلوا جريرا على الفرزدق لأن هذا ماتت امرأته
« النوار » فلم يسكها إلا بقصيدة جرير في بكاء امرأته :

لولا الحياء لهاجنى استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار
وهذا لا يدل عندى على أن الفرزدق أضعف من جرير في الرثاء
ولكنه يدل على حبه للقصد وبغضه للأسراف ! وإلا فما الحاجة
إلى أن ينظم في رثاء امرأته قصيدة جديدة وأمامه قصيدة جرير تسعده
على البكاء ؟

إن عرائس الشعر في عالم المعقولات تشبه الأنهار في عالم
المحسوسات ، فكما لا يجوز أن تحفر نهرا جديدا تلتف في سبيله
ماشئت من المباني والمزارع من غير حاجة ماسة ، لا يجوز أن تنشئ
قصيدة جديدة تسهر من أجلها ليلك من غير سبب معقول . وليس
معنى التجديد والابداع أن تزيد أو تنقص ما أجاد فيه من قبلك
الكتاب والشعراء ؛ وإنما تكون مبدعا حين تنشئ آثارا جديدة فيما
غفل عنه الأقدمون أو قصر فيه المحدثون . ولا ضرب لك الأمثال :
ألم تشك مرة غدر الصديق ؟ ألم تحاول النيل من أخ كان وفاؤه
حبيب الحياة ، ثم عاد غدره نكد الحياة ؟ فان كنت وقفت هذا
الموقف في حياتك الوجدانية ؛ فهل تذكر أنك فزعت بعد نية القطيعة

إلى الصفح الجميل

كثير منا عالج هذا الموقف العصيب ، ثم هم بأن يحبر عنه رسالة
أو ينظم فيه قصيدة ، ولكن ألا يكون من العبث أن يفعل ذلك
وقد سبقه الشريف الرضى إلى الغاية القصوى فى استبقاء الصديق
وإليك ما قال الشريف :

ولم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهرا متبلجا وأدمج دونى باطنا متجهما
ولو أننى كشفتته عن ضميره أقيمت على ما بيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ومن حمل العضو الاليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه أقول عسى ضنا به ولعلها
صبرت على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لا يرعوى كان ألوما
هى الكف مض تركها بعددائها وإن قطعت شانت ذراعا ومعصما
دع المرء مطويا على ما ذمته ولا تنشر الداء العضال فتدما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعه على مضض لم تبق لحاولا دما
خبرنى بربك ما الذى ينقص هذه الصورة الشعرية حتى تحاول
بناءها من جديد ؟ وما الذى بقى فى نفسك بعد هذا التفصيل حتى
تتورط فى الفضول ؟ إذن فلتكن هذه القطعة أنشودتك حين
يبدو لك ما يسوء من صديق قديم

وبعد هذا ؛ أتذكر أنك ظمئت إلى بعض الشغور ، وأنت حين
وردت عدت وأنت صديان هائم ، ثم هممت بأن تقول شعرا فى

هذا المعنى الجميل ؟

قل الحق فكلنا ظماء ، ولكن هل وجدت أبدع من قول ابن

الرومي :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تدان
وألثم فاه كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهجان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى

ليرويهِ ما تلثم الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وماذا عسى أن تصنع إذا حاولت بسط هذا المعنى البديع ؟ إنك
لا بد مفسده إذا أقدمت على هذه المحاولة ! ويجب أن تعلم أن الثوب
حين يلبس الجسم لا يجمل به بعد ذلك أن يتسع ولا يحسن به أن
يضيق ، وكذلك الصورة الشعرية حين تلبس المعنى المراد

وهل تذكر أنك هجرت بعض البيوت غير قال ولا صادف
ثم أقبلت على بعض البيوت غير عاشق ولا وامق ، وأنت عجبت
لترك حبيبك إرضاء لبغيضك ، حين أقبلت على بيت عدوك وأوليت
بيت حبيبك الصدود ؟ وهل تجد في مثل هذا الموقف أجمل من قول
الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أت عزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
أصبحت أمنحك الصدود وإني قسما إليك مع الصدود لأميل
فصدت عنك وما صدت لبغضة أخشى مقالة كاشح لا يعقل

وتجنبي بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل
ولئن صددت لأنت لولا رقبتي أهوى من اللأى أزور وأدخل
فما الذى فات الشاعر فى هذا الموقف حتى تضع له غير هذه
الآيات ، ففي البيت الأول خلاصة الحديث وفى الآيات التالية
إيضاح وتفصيل ، ولعلك لا تجد أحكم من قوله :

وتجنبي بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل
وهل تذكر أن صديقا لج فى عتابك وكنت فى وده من
الأوفياء وأنك أردت إقناعه بأن الحياة قصيرة ، وأن الحزم كل
الحزم فى الانصراف عن العتب واغتنام أوقات الصفاء ؟
هذا معنى فطرى يجول فى جميع النفوس ، ولكن هل تجد فيه
أجمع من قول سعيد بن حميد :

أقل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميل
لم أباك من زمن ذممت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألت مدة ولكل حال أقبات تحويل
والمنتمون إلى الاخاء جماعة إن حصلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقت لتسكين بحسرة وليكثرن على منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق جبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت - ولا سبقت - ليمضين

من لا يشا كله لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مودة وليفقدن جمالها المأهول

وأراك تكلف بالعتاب وودنا باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثرت عتبنا ويطول ؟ !
ألم تر إلى الشاعر وقد سد في وجه صديقه منافذ الفراق ؟ ألم
تر إليه وقد تحسر على أيام كان يظنها ظوالم وهو الآن يبكيها بالدمع
السخين ؟ فما معنى ذلك ؟ أليست هذه دعوة رفيقة إلى اغتنام الصفو
العتيد ؟ ولاتنس خوفه من أن يموت أحد الصديقين فتكون قاصمة
الظهر ، وغائلة الفؤاد ، وتأمل رفقه في قوله :

ولئن سبقت - ولا سبقت - ليمضين

من لا يشا كله لدى خليل

بربك هل تجد أرفق من هذا الدعاء ؟ وهل ترك لك الشاعر
شيئاً تقوله في هذا الباب ؟ إذاً لا تحاول أن تضع شعراً جديداً في
هذا المعنى الذي وفاه سعيد بن حميد حتى لا يقبل المزيد !

ولا أشك أيها القارئ في أنك رزئت مرة برجل أأقول ؟ فإن
لم يكن ذلك ، فاعلم أنه سيكون . وإني مقدم لك قول ابن هاني
الأندلسي في هذا المخلوق :

ياليت شعري إذا أوما إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وخبيث الزاد يضررها جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ! ما أمضى أسنته ! كأنما كل فك منه طاحون
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الحناجر أم أين السكاكين ؟
كأنما الحمل المشوى في يده ذو النون في الماء لما عضه النون

يخفض الرز من قرن إلى قدم وللبلاعيم تطريب وتلحين
 كأنما كل ركن من طبائعه نار وفي كل عضو منه كانون
 كأنما في الحشا من خمل معدته قرنفل وجواريش وكمون
 قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا وجاذبتنا أعنتها البراذين
 هذه نماذج من الأدب القديم . وقد قدمت لك أن من العقل
 أن ننفع بما للأسلاف من الأدب الممتع الرصين ، ومن الأدب
 ماضى ميراثا للإنسانية جمعاء ، فلننتفع به كما هو ولننفعه من التغيير
 والتبديل . وإذا شئنا أن يكون لنا أدب جديد فليكن في موضوعات
 جديدة لم يتناولها الأقدمون ، وإلا أضعنا ما طمحوا إليه من الخلود
 وأسأنا الانتفاع بما قدموا من جهود !



رفقا بالورق والخبر والمطابع يا حملة الأقلام ! لا تكونوا أبواقا
 للقدماء ، بل كونوا شيئا يذكره التاريخ ! لا خير في الكاتب إن حرم
 الصدق والأمانة ، وليس في السارقين صادق أمين ! اكتبوا بأنفسكم
 ولأنفسكم ، فإن لم تستطيعوا ففي الأدب القديم ما يروى ظلماً كم
 لو تعلمون

فبراير سنة ١٩٢١

أحاديث ...

فائدة مهمة جداً

ما كنت أعرف ، ولا كان غيرى من مدرسى الأدب فى مصر يعرف كيف يغلب على الأسماء العربية فى الأندلس والمغرب وجود مثل زيدون ، وعبدون ، وعيشون ، وخلدون ، وهبون ، وسعدون الخ . و كان الظن أن هذه من صيغ جمع المذكر السالم ، ثم غلبت على أسماء الافراد

ولكن اسمع ما حدثنا به المسيو كولان الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس :

اللغة الاسبانية تضيف إلى أواخر الاسماء لفظ (اون) للتعظيم وقد نقل العرب ذلك عن الأسيان حين اتصلوا بهم فى الأندلس فقالوا فى زيد (زيدون) وفى وهب (وهبون) وفى عيش (عيشون) الخ ..

وقد جاء فى كلام لسان الدين بن الخطيب عن اسمه حفص ما معناه : لقد كان مكثفياً باسمه حفص ، فلما أيسر واستغنى تطاول واستكبر وسمى نفسه (حفصون)

ومن أمثال أهل المغرب (إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى كلبون)

أليست هذه حقا فائدة مهمة جدا ؟

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ أحمد زكي باشا كان يلقي محاضرة منذ نحو خمسة عشر عاما عن عرب الأندلس ، فذكر من خصائصهم أن منهم من كان يقول ستين وعشرة في مكان السبعين وكان الأستاذ يريد أن يقول إن مروتهم في التعبير وصلت بهم إلى مثل ما يعبر اللاتينيون

فلنعرف الآن أن عرب الأندلس لم يقولوا ستين وعشرة في مكان السبعين إلا تأثرا باللهجات اللاتينية ، أو تسهيلا للتفاهم مع الانبياء المستعربين

صك أم شيك ؟

كانت الجمعية المصرية في باريس تعيد النظر في لائحتها وكنت حاضر او معي الأستاذ كولان فكان الأعضاء يسألونني أن أحول بعض الكلمات الأعجمية إلى كلمات عربية ، فلما جاءت كلمة « أرشيف » رأيت أن أحولها إلى « سجل » وهي كلمة وردت في القرآن (يوم نطوى السماء كطلى السجل للكتب) بغض النظر عن احتمال أن تكون في الاصل دخيلة على اللغة العربية

ثم جاءت كلمة (شيك) فرأيت أن يوضع مكانها كلمة (تحويل) وهي لفظة مستعملة في إدارة البريد لنفس المعنى الذي تؤديه كلمة (شيك)

ولكن المسيو كولان أسر إلى بتفضيل كلمة (صك) لأنها أصل كلمة

(شيك) فقد نقلها الانجليز أولا عن الفرس فقالوا (تشيك) ثم نقلها الفرنسيون عن الانجليز فقالوا (شيك) ^(١)

فاذا كانت كلمة (صك) هي الاصل المنقول عنه فلم تتخطاها إلى

كلمة شيك ؟

ولا عبرة باحتمال أن تكون في أصلها فارسية ؛ لأنها موجودة في اللغة العربية منذ أكثر من عشرة قرون ، وفي هذا ما يكفي لعدّها من أصول العربي الفصيح

فلنقترح إذاً على بنك مصر إحلال كلمة صك محل كلمة شيك ... وكلمة بنك هل تغير أيضاً ؟ والجواب أن كلمة بنك قد تعربت ، في حين أن كلمة شيك لا تزال عليها المسحة الأعجمية

الجهاد في سبيل الله

الاستاذ كولان يعدّ من أوائل المتعمّعين في فقه اللغة العربية ، وقد سأله كيف أتبحر له - وهو أعجمي - أن يصل إلى هذه الثقافة المتينة في لغة العرب ؟ فأجاب بأن السر في ذلك أنه ظفر بأساتذة متفوقين فهو أولا تلميذ المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين ، وهما من كبار المستشرقين ، وهو ثانياً عاش في مصر وتلمذ للشيخ أبودرة

(١) ومعنى هذا أن كلمة صك ذهبت إلى أوروبا ثم عادت إلينا وعلى

رأسها برنيطة !

هذا جميل ، ولكن من هو الشيخ أبودرة ؟
هو رجل فاضل من المدرسين بالازهر الشريف وقد اتصل
حيناً بالجامعة المصرية وجرت على يده القصة الآتية
لما أفرج عن المرحوم سعد باشا وانتقل هو ورفاقه من مالطة إلى
باريس قرر طلبة الجامعة أن يرسلوا إليه برقية تهنئة وكان الشيخ على
أبودرة أكبر الطلبة سناً وعلماً ، فأرأوا لذلك أن يطلبوا إليه تحرير
البرقية ، فكتب صدرها هكذا :

« إلى المجاهد في سبيل الله والوطن سعد باشا زغلول »
فاعترض فريق من الطلبة قائلين : كلمة « المجاهد في سبيل الله »
تغضب إخواننا الاقباط ، لان الجهاد في سبيل الله لا يكون الا
لاعزاز كلمة الاسلام ، وسعد باشا يعمل لاعزاز كلمة مصر فقط
فمن الواجب إسقاط كلمة « في سبيل الله » والاكتفاء بعبارة « الى
المجاهد في سبيل الوطن سعد باشا زغلول »
تلك أيام خلت ، وأظننا فهمنا الآن أن الجهاد في سبيل مصر هو
أيضاً جهاد في سبيل الله ، لان الله لا يرضى أن يقنع المصريون بالضميم
والهوان تحت راية الاحتلال

الآنسة مى

وبمناسبة الشيخ على أبو درة أذكر أن الجامعة المصرية لذلك
العهد لم يكن فيها من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة هى الآنسة مى
وكانت نعمة من الله ساقها إلينا فى تلك الأيام ، وكنا جماعة من المحرومين

لا نعرف الجمال إلا اذا قرأنا كتاب تزيين الاسواق أو مصارع العشاق
وفي أحد الأمسية جاءت الأنسة مى تسأل عن الحجرة التى تلقى فيها
دروس الفلسفة العربية ، فتحامت أن تسألنى ، لأنى فيما يظهر كنت
«غلباويا» ولأنى كنت نشرت كتابا عن حب عمر بن أبى ربيعة
الفاجر الملعون ! وكذلك لم تجد الأنسة مى أوفر من الشيخ أبى درة
فى لحيته المستديرة وقفطانه الفضفاض ، وكانت هذه المحاورة :

— الأنسة مى : أين حجرة الفاسفة العربية يا أستاذ ؟

— الشيخ أبودرة : نعم يامولاتى ! نعم يامولاتى ! نعم يامولاتى
ولم يستطع الشيخ أن يتجاوز هذه الجملة . فتقدمت إلى الأنسة
مى (فدللتها على السبيل) ثم عدت إلى الاستاذ أبى درة فقالت له
« فضحتنا ياسيدنا الشيخ ! ماهذا الهذيان ؟ »

وانتظر الشيخ أبو درة لحظة حتى أفاق من إغمائه ثم قال :
سبحان الله ! أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال !

فزلقته ببصرى وأنشدت :

أعلى هلا إذ كلفت بها كنت استعنت بفارغ العقل
أرسلت ترجو الغوث من قبلى والمستغاث اليه فى شغل

وقد وصلت هذه الحكاية إلى مسامع المرحوم إسماعيل بك
رأفت ، وكان رجلا غزلا هدهد مر السنين ، فلما لقينى قال : تعال
يامبارك أجب على هذا السؤال : ما معنى كلمة مى ؟

ففكرت طويلا ولم أهتد إلى الجواب

فقال : مى معناها الخمر ، وهى كلمة فارسية ، والفرس يسمون
الخمارة (مى خانة)

فقلت : أشكر لك ياسيدى الأستاذ ، ولكن ما مناسبة هذا
السؤال ؟ فأجاب : قدرت فقط أنك قد تبحث عن معنى هذا الاسم
فأردت أن أعفيك من عناء البحث عن معناه

فيا أيها القراء اعلموا أن (مى) معناها الخمر ، وأن الآنسة مى
معناها المدموازيل صهباء !!

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة فقدرك المعلى عن ذاك يغينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة فحسبنا الوصف إيضاها وتبيننا

تصفية حساب

كان الأستاذ لطفى بك السيد مراقب الجامعة المصرية فى عهدها
الأول ، وقد أخبرني أحد الثقات أنه تحدث فى إحدى سهراته بأن
بعض الطالبات فى الجامعة المصرية شكوى إليه مرة أن الطلبة
يجذبون شعورهن وقت الدرس ، وأنه لذلك فكر فى إبعاد الطلبة
عن الطالبات !

وهذا خطأ يحتاج إلى تصحيح ، فإن الجنس اللطيف ما كانت
تكثر أزهاره إلا فى دروس المسيو لويس كليمان ، وكان جمهور
الطالبات من عناصر أجنبية ، وكان حرصنا شديدا على معاملتهن
بالرفق والحنان

وأنا أقسم بالله أنى كنت فى غاية الأدب ، فإن كان فى ريب من

ذلك فليعد التجربة من جديد !

ولكن هل يستطيع لطفى بك أن يراجع مثل هذا الحساب ؟
لقد كان ذلك الرجل نارا تضطرم في عهد الشباب ، وهو
اليوم كتلة من الرزاة والوقار ، وإن كان يخف أحيانا ، كما تزلزل
الجبال !

فيارب باعد بيننا وبين وقار لطفى بك ، فقد يكون نزق
الشباب أحب اليك من وقار الكهول !

٢٩ فبراير سنة ١٩٣١

درس الادب

في الازهر الشريف^(١)

نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر من دراسة الآداب العربية
ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة التي وضعها قوم
أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد ، ونود لو تفضل
القائمون بإدارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذي رموا اليه
حين ألقوا بالطلاب في بيداء من الخلط والتعقيد، لنطمئن كما اطمأنوا

(١) نشرت في جريدة اللواء في نوفمبر سنة ١٩٢٢

ولنترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا مال الطلبة من
قلوب وعقول !!

لانتظر أيها القارئ، من كاتب مثلي أن يحدثك عن جهود العلماء
في نشر الآداب العربية في ذلك البيت العتيق ، فاني لا أريد أن
أفجعك في آمالك وأحلامك ، ولا أريد أن تعلم ما أعلم من أمر
أولئك الذين يحسبون أنهم حارسو لغة القرآن وهم يفعلون بها مالا
يفعل الأعداء ! وماضك يقوم بخطئهم العد من حملة الشهادة العالمية
تمضي السنون والقرون وما تظهر لهم رسالة في اللغة أو مؤلف
في البيان !!

وحسبك أن تعرف أن الاحاطة بالآداب أو الفهم فيه ، مما
يغض هناك من أقدار الرجال ، فإن كنت في ريب من ذلك فأت
بشاهد واحد يدل على أن الخبرة بالآداب العربية كانت مرشحاً
للدخول في هيئة كبار العلماء !!

وهل سمعت يوماً أن طالباً أخطأ النجاح لأنه لم يعرف منازل
الخطباء في الدولة الأموية ، أو مراتب الشعراء في الدولة العباسية
وهل تحدث العلماء في ناديم بأن فلاناً غير كفء لدراسة التفسير
أو الحديث ، لأنه لم يفقه ذوق العرب الذين تلقوا كلام الله وكلام
الرسول ؟ وهل كتب واحد من المفتشين في الأزهر والمعاهد الدينية
كلية واحدة فيها ملاحظة وجيهة عن دروس المطالعة والانشاء ؟
وهل يجرؤ مدرس واحد ممن يدرسون للطلبة كتاب العقد الفريد

فيدعى ولو كذباً أنه خير بما فيه من مظان الخطأ والصواب؟ وهل نجد من بين الذين تصدوا لبيان مافى كتاب الله من الحرام والحلال من درس الشرائع الوضعية والسماوية لذلك العهد حتى يدرك حكمة التشريع، وهذا أول واجب على من يدرس قصيدة قيلت فى غرض خاص، فضلاً عن كتاب أخرج الناس من الظلمات إلى النور؟ وهل تألفت فى الأزهر جمعية أدبية كما تألفت فيه الجماعات للطرق الصوفية من جميع الأشكال والألوان؟ أليس فى كل أولئك دليل على أن الأدب لا نصير له فى ذلك المعهد الذى تحتشد فيه الآلاف المؤلفة من الشباب والكهول؟ أو ليس فى بعض ما ذكرت ما يجعل تنبيه هؤلاء الغافلين فرضاً على من يغار على لغة القرآن والحديث؟

أشراك العقول

لا تجد كتاباً من الكتب الأزهرية قد خلا من الحكم على الشعر: أحرام هو أم حلال. وهذا خلاف قديم رويت فيه هذه النكتة الطريفة: وهى أن سعيد بن المسيب سمع رجلاً يذكر أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء فأشدد من فوره:

أنبت أن فتاة جئت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول
ثم أقام الصلاة! ويذكر الرواة أن سعيد بن المسيب هذا نقل إليه أن قوماً يكرهون الشعر. فقال: لقد تنسكوا تنسكاً أعجمياً!

ويقرب من هذا ما قاله رجل من علماء الدولة العباسية وقد سمع أن الامام مالك يحرم الغناء فقال : أما والله لو قال مالك ذلك ويدي تناله لأحسننت أدبه ! إن رسول الله ما كان يحرم أو يحلل إلا بوحي من الله !

ولا يزال هذا الخلاف موجودا في الممالك العربية : ففي جريدة العراق التي تصدر في بغداد مقالة نشرت في الشهر الفائت ترد بها على بعض الصحف العراقية التي أنكرت على جريدة العراق (ذكرها خبر قدوم المغنية المصرية الشهيرة السيدة منيرة المهدية) ومنذ شهر نشرت جريدة الاهرام كلمة لاحدى السيدات (الشريفات) تستنكر فيها أن تكتب السيدات الممثلات (السيدة فلانة !) وتستبعد أن يصبح التمثيل حرفة لواحدة من نساء الأشراف . وكذلك ظل الشعر والغناء ثم التمثيل موضع خلاف .

وقد اضطر الغزالي إلى مدافعة هذه الآذواق السقيمة بقوله (إن لله سرا في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ، ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها) ولعل أمثال هذه الكلمات الصريحة كانت من الأسباب التي حملت الجبهة على رمي الغزالي بالكفر ! ويغلب على الظن أن تورط هذا الامام في مذاهب الصوفية الغريبة كان شبه كفارة لما جناه في شبابه من التفكير المعقول !!

الشعر والغناء والتمثيل - ولا تنس التصوير الذى حرموه - كل أولئك مما يجب على كل مفكر أن يبعد عن موارده الشبهة ليوصف بالوقار والجلال ! فيا ويحكم ماذا أتم صانعون لو شهدتم المعركة القائمة بين الهدى والضلال ! إنكم لو رأيتم كيف تتصاول العقول ، لسبق إليكم الجنون - إن لم تكونوا مجانين - ولكنه لالوم عليكم : وإنما اللوم على الجبناء الذين جعلوا رأى الجاهل مما تنصب له الموازين !

نوفمبر سنة ١٩٢٠

درس فى الادب

قصائد المديح فى اللغة العربية

درس فى الادب ؟

إنها كلمة ضخمة جدا ، كنت أحب أن أخرج منها ، ولكن ما الحيلة وطلاب الادب يحتاجون إلى هذا الدرس أشد الاحتياج وما كانوا يحتاجون إليه لو أن كتاب الصحف والمجلات لم يوحوا إليهم بغض طائفة من الفنون الأدبية ، وكتاب الصحف يقدمون المصاعب بلا حساب إلى أساتذة المدارس الثانوية والعالية ، فمن السهل أن يتندر كاتب بغمز العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة

ليصبح بغض تلك العلوم شريعة عند الطلاب ، ومن السهل أن يعث كاتب فيزعم أن الشعر العربي أكثره مديح ، وأن المديح لم ينظم إلا في طلب المال ، لتصبح قصائد المديح كلها لغواً عند طلبة الآداب إن أساتذة اليوم يعانون صعباً كثيرة في توجيه الطلبة إلى الدراسات الجديدة ، لأن هؤلاء الطلبة يرون الحياة الأدبية تنال بأيسر الجهد ويرون من الكتاب من يذيع صيته مع الجهل المطلق بأصول العربية ، ويرون من الشعراء من يهز كتفيه حين توجه إليه مؤاخذه صرفية أو نحوية أو عروضية ، ثم يمضى مرفوع الرأس بين الناس .

لقد آن أن نعرف أن الأساتذة والصحفيين يشتركون في تكوين الجيل الجديد ، وأن من الخير أن تقترب أوجه النظر في فهم الأصول الأدبية ، وإلا فسيقع الطلبة بين تيارين متافرين أشد التنافر وسيكون لهذه الحيرة آصار خطيرة تصبح بعدها عقليات الطلاب موزعة بين القوة والانحلال

وقد يسأل القارئ عن الباعث لهذا الدرس .

وأجيب بأنى كنت أوصى فريقاً من الطلبة بالمبادرة إلى اقتناء طائفة من المصنفات أعرف أنها لن تطبع مرة ثانية لأن الناس هنا يغلب عليهم الملل ، والكتاب الذى يقع فى أجزاء كثيرة يندر أن يطبع مرتين فى جيل واحد ، والمسكبة عند الأديب كالمعمل عند العالم ، وطالب الأدب يحتاج إلى تكوين مكتبته رويداً رويداً حتى

تغنيه بعض الاغناء عن تضييع الوقت في الاختلاف الى المكتبات العمومية ، فلما جاء اسم (مختارات البارودى) وقف أحد الطلبة وقال : « هذه المجموعة أكثرها مديح »

أيها القراء ، إن المديح ديوان العرب فان كنتم في ريب من ذلك فساأفئكم من الشك بهذا الحديث .



لا أنكر أن كثيرا من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش ، ولا أنكر أن كثيرا منهم وصل بذلك إلى أسفل دركات الاسفاف ، وأصرح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخييرا في سبيل المنافع الزائلة ، وأعترف بأن هذه النقيصة تمس طوائف كثيرة من شعراء اللغة العربية ، وإن كان من أسباب العزاء أن هذه النقيصة لم يتفرد بها شعراء العرب ، فقد كان أكثر الشعراء في أوروبا يعيشون عالة على الملوك والأمراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية إلا القليل .

ولكنى - مع هذا - أقول بأن المديح ديوان العرب ؛ وهو الوثيقة الباقية على ما كان فيهم من كرم الشئائل والخصال ، والمادحون قد يكذبون ولكنهم في كذبهم يصورون ما اصطالح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب ؛ فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة مدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق

لأنه يصور مايتشهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال
وهل يمكن الارتياح في تصوير المكارم البدوية التي تمدح بها الشاعر
حين قال :

ومستنجح تهوى مساقط رأسه

إلى كل شخص فهو للسمع أصور (١)

يصفقه أنف من الريح بارد

ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٢)

حبیب إلى كلب الكريم مناخه

بغیض إلى الكوماء والكلب أبصر (٣)

حضأت له نارى فأبصر ضوءها

وما كاد لولا حضأة النار يبصر (٤)

دعته بغير اسم هلم إلى القرى فأسرى ييوع الأرض والنار تزهر

فلها أضاءت شخصه قلت مرحبا هلم ، وللصالحين بالنار أبشروا

فجاء ومحمود القرى يستفزه إليها وداعى الليل بالصبح يسفر

تأخرت حتى لم تكذ تصطفى القرى

على أهله والحق لا يتأخر

(١) أصور : من الصور بالتحريك وهو الميل إلى الشيء بالوجه والعنق

(٢) الأنف : من الريح أولها ، والنكباء : كل ریح تهب بين ريحين

من الرياح الأربع . والصرصر : الريح القوية .

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٤) حضأ النار : أوقدها ورفعها

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد

بهازره والموت في السيف ينظر (١)

فأعضضته الطولى سناما وخيرها

بلاء وخير الخبير مايتخير

فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة

بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٢)

فباتت رحاب جونة من لحامها

وفوها بما فى جوفها يتغرغر (٣)

وقد يمكن الشك فى هذه الصورة من حيث انطباقها على ذلك
المتمدح ، ولكن لا ريب فى أنها تمثل النبل فى الشئال البدوية
والباحث الموفق الذى يستمد من الأدب شواهد لعلم النفس سيجد
فيها صورة صحيحة للاخلاق العربية ، وسيتمثل كيف يهيم الجائع
فى الليل فيستنجح لتود عليه الكلاب فيعرف أين يقيم الناس ، ثم
يمضى حيث يرحب به الكلب الذى ألف الضيافات ، وتنفر منه
الجمال التى تعرف حتفها بقدم الضيف ، وسيتمثل أيضا أريحية ذلك
البدوى الذى يرفع النار ليتهدى بها الضالون فى البیداء ثم يتصور

(١) البرك بفتح الباء : الابل ، والبهازر جمع بهزرة على وزن قنفذة

وهى الناقة العظيمة

(٢) أوفضت : تفرقت

(٣) الرحاب الجونة : هى هنا القدور السود

تلك الضجة المرححة التي تفيض بها خيام الأعراب الاجواد وهم
يستقبلون الضيف

وأنت، يا ابن المدينة ويا مآدر العصر ، ستقرأ هذا الشعر فتمثل
فيه ألوانا من الاريحية العطرة لم يشتمل عليها إهابك فتعرف حيناً
وتنكر أحياناً ، وأنت في عرفانك ونكرانك مدين لهذا الشاعر الذي
أمتع وجدانك بهذه النفحات العطرات



تترك البادية ، وشعراء البادية ، ثم ننقل إلى شعراء الحضارة
وسنجد عندهم أفانين من القول هي الصور الباقية لما عرفوا من
أزمات النفوس والقلوب

هل تعرفون قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ؟
لقد حدثتكم عنها في المذياع منذ أسابيع ، وفاتني مع الأسف
أن أدلكم على موقف هو نموذج للتشفي ، والتشفي رذيلة خلقية
ولكن الباحث يحتاج إلى شواهد للرذائل ، فأنها تدرس كما تدرس
الفضائل ، ومن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وبضدها
تتميز الأشياء

انظروا كيف يتشفي ذلك الشاعر الفحل وقد تهدمت عمورية :

ماربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب
ولا الحدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظري من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته عن سوء منقلب
قد تقولون إن من القسوة أن يفرح الرجل لمدينة دكت
حصونها ، وهدمت أبراجها ، وقوضت معالمها ، وصح في أهلها قول
ذلك الشاعر الشامت :

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على

بان بأهل ولم تغرب على عزب
وأجيب بأنى أستقبح من هذا ما تستقبحون ، ولكنى أقرر
أن هذه الصورة البشعة ، صورة الشماتة ، مما يجب تقييده ، والدلالة
عليه ، لأنها من الصور الانسانية التى يهتم بتحليلها العالم والفيلسوف
وهذه الصورة بالذات من نماذج القسوة الحربية ، والجيش الذى
يهدم مدينة معادية يقف على أطلالها وقفة الفرح والابتهاج
وصاحبنا أبو تمام جاء بصورة بارعة كل البراعة لشهوة الشماتة
والحقده . وما ظنكم بمن يتمثل ربع مية وهو معمور يطيف به المحب
فيراه أقل جاذبية من منظر عمورية وهى خراب ، ويتمثل الحدود
أدماها الخجل فيراها أقل نضارة من خد عمورية وقد غفره التراب
هذا بغى فى عالم الأخلاق ، ولكنه نبيل حين تذكر
البطولة والابطال

تذكروا هذا ، ثم حدثونا : أنغفل بائية أبى تمام هذه لأنها

قصيدة مديح ؟

إن الحكمة ، وهى أنفـس ما يقتنى الناس ، وقعت غير مرة فى تلك
 القصيدة ، وهل يمكن فى عالم الفكر أن نـسـغنى عن هذين البيتين
 عدلك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
 أجبته معلنا بالسيف منصلتا ولو أجبـت بغير السيف لم تجب
 وسيقول ناس من خلق الله : لقد ثقل البيت الأول بالجناس
 فليعرفوا أننا نراه غاية فى خفة الروح ، وحسب الشاعر أن وفق
 إلى أن يقول :

« ولو أجبـت بغير السيف لم تجب »



والبحترى الذى ضربت بمدائحـه الامثال ، أترون تلك المدائح
 بما يجب إهماله لأنها من صنوف التملق والرياء . لقد تأملت تلك
 المدائح فوجدت فيها كثيراً من الصور النفسية التى يقف عندها من
 يهتم بدرس دخائل النفوس ، وانظروا هذه الأبيات من داليتـه فى
 مدح ابن الزيات محمد بن عبد الملك

واستوى الناس فالقريب قريب عنده والبعيد غير بعيد
 لا يميل الهوى به حين يمضى الرأى بين المقلـى والمودود
 وسواء لديه أبناء إسما عيل فى حكمـه وأبناء هود
 مستريح الأحشاء من كل ضغن بارد الصدر من غليل الحقود
 مارأيكم فى هذا ؟ أترون سوء المنقلب فى مصاير الناس يقع

إلا بعله الهوى فى إمضاء الرأى ، والفرقة بين الأصدقاء والأعداء
 حين تنصب الموازين ؟ وهل ترون متعة أفضل وأروح من راحة
 الأحشاء من عنف الأضغان ، وبرد الصدور من غليل الأحقاد ؟
 إن مثل هذا الشعر لا يمر باسماع الممدوحين بدون أن يترك
 فى نفوسهم شوقا الى العدل ، وحنينا إلى سلامة الصدر من الغل
 فهو من نقثات الإصلاح ؛ ولو كره المتحذلقون

وفى القصيدة نفسها قطعة وصفية ، وإن كانت مدحا ، فقد
 وصف « الكاتب » فى شخص ابن الزيات وصفا دقيقا يعد نموذجا
 من نماذج البيان . وإليك هذه الايات :

لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
 فى نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
 وبديع كأنه الزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد
 مشرق فى جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعبد
 ما أعيرت منه بطون القراطين وما حملت ظهور البريد
 مستمیل سمع الطروب المعنى عن أغاني مخارق وعقيد
 حبجج تحرس الألد بألفاظ فرادى كالجوهر المعدود
 ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول وليد
 حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبين ظلمة التعقيد
 وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد

هذه قطعة وصفية وردت في قصيدة مدح؛ أترون فيها شيئاً من الفضول؟ وكيف والبيت الأول وحده يفيدنا فائدة عظيمة، فهو يدلنا على أن الناس في عهد البحترى كانوا يفهمون أن هناك فناً انشائياً اسمه «فن عبد الحميد» وفي ذلك رد على جماعة من المستشرقين كانوا يرون عبد الحميد من الشخصيات الخرافية، وتبعهم في ذلك أحد أدباء مصر في العهد الحديث. ولكم أن تقولوا إن في بعض هذه القطعة ما يجرى في طريق المدح الفضفاض، غير أنكم لا تستطيعون أن تنكروا دقة الوصف في هذين البيتين:

حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنّب ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
ففيهما دستور لنظام الكلام البليغ، وهما يصلحان للتمثيل في
أكثر مقامات الافصاح



أما بعد: فهذه اشارات تنفع من يدرس الأدب ليستخلص منه الحقائق النفسية والاجتماعية، وستبعتها بأمثالها إن اقتضى المقام ذلك، ليعلم شباب هذا الجيل أن أسلافهم لم يكونوا عابثين، وأن من اهزل نفسه ما يكشف عن مواطن هي عند الباحث جد صراح

أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

من عهد الى عهد

كان احمد بن يوسف مضرى ، وانا كذلك مصرى . لقد لقي فى مصر بعض الظلم ، وأكاد ألقى فيها كل الظلم ، كان يحسن إلى كثير من الناس ، فيفيله من يفى ، ويغدر به من يغدر ، وانا فى حدود طاقتي - ابدل البر والمعروف . ثم ألقى من بعض من احسن اليهم اشنع ألوان الجحود . وأتلفت الى اصدقائى الاوفياء . أعدهم فاقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة . ثم أغمض عيني من لذعة الكمدالوجيع
النثر الفنى ج ١ ص ١١٣

فى اليوم الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٣١ لقينى فى فناء السوربون أحد أساتذة مدرسة اللغات الشرقية فصافحنى وقال :
« لقد تلقيت اليوم دعوة لحضور الحفلة التى سيقمها الأساتذة تكريماً لك بعد ظهرك الأحد المقبل ، فأنا أهنئك ، لأن فى ذلك دلالة على أن الأساتذة يعتقدون أنك قدمت إليهم كتاباً يستحق التمجيد »

وكان ذلك قبل الامتحان بيومين ، ففهمت أن نجاحى صار مؤكداً ، ثم تلفتت نفسى إلى مغزى التكريم الذى يظفر به رجل فلاح فى أروقة السوربون ، ولم يكده خيالى يطوف بهذا المعنى حتى غلبنى الدمع ، وقلت : سبحانك ربى ! ما أعدلك وما أرحمك ! هذا عبدك الذى خرج من مصر طريداً شريداً لا يملك إلا دعوات أهله

وزوجته وأطفاله ، سيكرمه الأساتذة بأنفسهم تكريماً لا يقع إلا
في النادر القليل!

ثم عدت إلى بيتي فتوضأت وصليت صلاة الشكر ، ودعوت
الله أن يلهمني حب الخير ، وأن يقيني شر الزيف ، وأن يهني التوفيق
ومضيت إلى منزل المسيو ديمومين أسأله : أصبح أن الاساتذة
سيقيمون لي حفلة تكريم ؟

فابتسم الرجل وقال : إذا نجحت في الامتحان!

فقلت : كنت أنتظر أن تصلني دعوة!

فقال : لو فعلنا ذلك لكان معناه أنا نعلن اليك نجاحك ، وذلك

غير مضمون!

فقلت : نجاحي غير مضمون بعد ذلك الجهاد الطويل ؟!

فقال : أحب أن تعلم أني سأحضر يوم امتحانك ومعى المسدس

فانزعجت وخشيت أن يكون جادا ، فان الرجل الفرنسي

لا تؤمن وثباته وبدواته ، وكنت قد ناقشته في كتابي مناقشة عنيفة!

ولكن الرجل استدرك فقال : هذا هو المسدس ! وأخرج

زمرة أوراق أعدها للنضال

عندئذ اطمأنت ، لان هذا الجدل لا يخيفني ، وأستطيع بفضل

ما فطرت عليه من الهجوم والعنف أن أحطم ألف مسدس من هذا

النوع ! وهل أخشى المسدس حين يصنع من الأسئلة والاعتراضات ؟

وجاء يوم الامتحان وكان يوما سعيدا ، وكان الأساتذة أبر من

الآباء بنجباء الأبناء ، وكان المسيو ماسينيون يعترض ويحيب ، وناقشني المسيو ميشو في بحث كنت أعدته عن فيكتور هوغو مناقشة رفيقة وجاء دور المسدس الذي أعده المسيو ديمومبين فوجدت الخطر أهون مما كنت أظن ، وقضيت ثلاث ساعات في الامتحان حسبتها ثلاث دقائق

وجاء دور التكريم بمعهد الدراسات الاسلامية في السوربون واجتمع فريق من الأساتذة ورجال الأدب والصحافة ، وأعدت مائدة الشاي ، فملت السيدة الكريمة حرم المسيو ديمومبين كأس الشاي وابتدأت بي ، فاستحييت وتراجعت فقالت وهي تبسم : لن أبدأ إلا بك ، لأنك المنتصر

وفي مساء ذلك اليوم أقامت الجمعية المصرية في باريس حفلة تكريم لذلك الانسان الذي احتفل بتكريمه فريق من أساتذة السوربون ، وخطب الخطباء وفيهم المصريون والسوريون والتونسيون ، وأنا في أثناء ذلك كله أنطوى في نفسي حياء وخجلا ، لاني ما كنت أطمع في أكثر من أن يمر الامتحان بسلام !

وعدت إلى مصر ، ولكن بأى قلب ؟

عدت وأنا يائس من أن أجد من يقول أحسنت ، وكنت أومن بالحكمة التي تقول « ليس إنسان بنى في وطنه » وماهى إلا أيام حتى رأيت كلمة في جريدة « أبو الهول » وكانت حينذاك تصدر يومية وفي تلك الكلمة دعوة لتكريم زكى مبارك ، فدهشت وقلت : أفى

الحق أني أجد من يكرمني في وطني؟ وزادت دهشتي حين علمت أن صاحب هذه الدعوة هو الاستاذ محمد علي غريب، وما كنت لقيت منه قبل ذلك إلا الشر، فبدأت أومن أن قومي أكرم على أنفسهم من أن ينسوا من يوفق إلى عمل مجيد

ونسيت تلك الدعوة حالا، لأنها وقعت في ضوضاء الانتخابات الأخيرة، ومضى عامان، ثم ظهر كتاب (النثر الفني) بالعربية بعد أن نشر بالفرنسية، فقابله النقاد بالصمت المطلق، وخشيت أن يتزعزع إيماني بكرم قومي، ولكن هيهات فقد انطلقت الألسنة والأقلام بالمدح والثناء، ودعا الداعي إلى تكريمي فلباه رجال الأدب مسرعين وكان ذلك الاحتفال الذي لم تشهد القلوب مثله إخلاصا وصفاء. ما الذي قدمت لأمتي حتى أظفر بمثل ذلك الاعزاز

قدمت إلى أمتي كتابا هو جهد متواضع، وإن تفضل النقاد فوصفوه بأجمل الصفات، فما هو السر في هذا التبجيل

كنت أعرف هذا السر ثم نسيت، أذكر أنني كنت رجلا مخلصا في خدمة الأدب العربي، ثم جدت أحداث وخطوب كادت تبعد ذلك الاخلاص، فجاء كرام قومي لينقذوني من أشراك الشك والارتياب

إن الذين اشتركوا في تكريمي تعاونوا على إنقاذ رجل كاد يقتله ما توهمه في زمانه من غدر وعقوق، فكان صنيعهم صنيع الطيب الموفق حين يأسو العليل

وما رأيت ولا رأى الناس أصفى من تلك الليلة التي اجتمع فيها صفوة رجال الأدب لتكريم مؤلف النثر الفنى ، وكان فى ذلك درس كنت محتاجا إليه أشد الاحتياج ، كنت أحب أن أجد من يقنعنى بأن أمتى ترعى أبناءها رعاية كريمة ، أحب أن أطمئن إلى أن الاخلاص قوة عظيمة تزلزل الجبال ، كنت أحب أن أؤمن بإيمان صادق بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأخيرا كنت أشتهى أن أعرف أن التأليف باب إلى المجد فى زمن انتهت فيه الصحافة جهود الرجال أفى الحق أن الرجل يحتاج إلى إعجاب المعجبين ليشد من عزمه وينشط ؟

إن نشاطى كان فى عفوانه يوم كنت أشكو الجحود ، فما الذى جد بعد أن غمرنى قومي بمظاهر الوفاء ؟

أتظنون أن نشاطى سيخمد ؟ ما أظن ذلك ، فقد درست نفسى غير مرة ورأيت حب الأدب وحب الدرس من الميول القوية التى تسيطر على وجودى وتوجهنى إلى البحث والتنقيب

ولكن الذى سيقع بعد هذه الحفاوة القومية هو إصلاح نفسى وكنت عيت عن إصلاحها ، ذلك بأنى كنت أخشى أن يصح ما توهمه الناس من أن الجد لا قيمة له فى هذه البلاد ، وأن الناجحين فى هذه البلاد هم النفعيون الذين لا يقدمون ولا يحجمون إلا فى سبيل منافعهم الذاتية ، فجاء كرام قومي فأزالوا عن ضميرى هذه الغشاوة وأفهمونى أن العاقبة للمخلصين

ولكن هل صفت نفسى كل الصفاء؟

لا أزال أشكو بعدى من ربى، وكنت قبل ذلك فى فراديس
من الايمان الجميل، كنت أقول كلما رأيت ظلم الناس:

«لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى، وذلك
المعين الذى لا ينضب ولا يغيض، يبقى لى الله الذى تلمس يدى
وترى عيني آثار رحمته وعدله، وتكاد تصافحه يمينى، ولو شئت
لمضيت فى ترديد هذه الجملة، ولكن أين تقع التعابير من حقائق
ما فى القلوب؟»

أشتهى أن يعود ذلك الايمان الذى كنت أنعم به فى الأيام
الخالية، حين كنت أو من بأن الناس أصغر وأضعف من أن يملكوا
لأنفسهم نفعا أو ضرا، وأن الذى يصرف الأرزاق والحظوظ
هو الله رب العالمين

ماذا كرأتى فكرت فى غدى مرة واحدة، وما أزال كذلك وتلك
هى البقية الباقية من إيماني، ولكن هذا لا يغنينى، أنا أشتهى أن
ينعم الله على بايمان أقوى وأمتع، أشتهى أن أعرف ربى كما كنت
أعرف، وأكثير مما كنت أعرف، فمتى أظفر بذلك؟ كنت أعد
أصدقائى، ثم أصبحت أراهم لا يعدون، فهل أستطيع الوصول إلى
ذلك الصديق الأعظم الذى أشتاق الى وداده اعظم الاشتياق؟

ليس فى الوجود كله ما يغنينى عنك، ياسر الاسرار وياروح
الأرواح، فاشملى برحمتك وأغنى عن خلقك، واجعانى لديك
من المقربين

رباه!

أنا أشتى أن أومن بك ، فامنحنى الايمان ، واجعلنى فى إيمانى

من المخلصين

٤ مايو سنة ١٩٣٤

مكاتب الموظفين

فى شهر رمضان

الصوم فريضة إسلامية يراد بها إعداد النفس لاحتفال مشاق
الظمأ والجوع ، فهى ليست تعجيزاً للناس ، ولا صدأً لحريتهم الذاتية
ولكنها رياضة روحية يعد بها المرء نفسه لاحتفال مشاق الحرمان
إذا جد فى الحياة ما يوجب ذلك . ومن الواضح أن للحياة ألوانا
كثيرة ، ففيها السلم والحرب ، وفيها الغنى والفقر ، وفيها المرض
والعافية... والقدرة على ضبط النفس هى أساس الصلاحية للنهوض
بأعباء الحياة . والصوم وسيلة من الوسائل الصالحة لكبح جماح
الآهواء ، وتهيئة الملكات الانسانية لمقاومة ما يعترضها من المشاق
كان الصوم فريضة واجبة فى الأيام الخالية ، وهو فى هذه
الأيام أوجب ، فقد كثرت القيود التى صنعها الناس لأنفسهم بما
افتتوا من ضروب اللذات الحسية التى يسمونها « الكيوف » - جمع
كيف « كالتدخين والقهوة والشاى ، فهذه الكيوف عقال عنيف

وهي تصد الرجل عن واجباته في عنف وقسوة، وإنى لأعرف من
يلقون دروسهم والسيجارة في أيديهم، ولست في هذا أفرح
وإنما هي حقيقة، وأعرف من لا يستطيع الشروع في أى عمل إلا بعد
أن يتناول فنجانا من القهوة، أو كأسا من الشاي، وهي قيود حسية
ونفسية في وقت واحد، ولها أثر شديد في تقييد العزائم والنفوس
والصوم يقاوم هذه العادات السيئة، ويحرر النفس من قيودها
ساعات من كل يوم، والعقل يحرم نفسه تدينا - أو تجملا - من هذه
المهلكات... والنتيجة أن الصوم ليس سنة قديمة يجب أن تبتد
وإنما هو سنة حسنة كانت واجبة يوم كانت الشهوات الحسية بسيطة
أما اليوم فهو أوجب لأن الشهوات والكيوف أصبحت في غاية
من التعقيد

أكتب هذا بمناسبة ما أوصى به وزير المالية من منع التدخين
والقهوة في مكاتب الموظفين أثناء شهر رمضان، وقد اتفق لى أن
نقدت هذه العادة السيئة في كلمة نشرتها بالبلاغ مندسنيين، وأعود
اليوم فأقول: إن الحكومة تعدل مواعيد الدواوين في شهر رمضان
تعديلا حسنا يعود به هذا الشهر وهو عبء خفيف. والحكومة
لا تفرض على موظفيها أن يصوموا، فإن الصوم سر بين المرء وبين
ربه، ولكنها تمنحهم امتيازات في المواعيد باسم الصيام. فإن عز
على الموظفين أن يحترموا شهر الصوم فمن حق الحكومة أن تعاملهم
معاملة مدنية، فلا ترفع عنهم شيئا من ساعات العمل اليومي، ولهم

بعد ذلك أن يعودوا كيف شاءوا إلى القهوة والتدخين !
على أن الأمر كله في هذه المسألة يرجع إلى الذوق . ومراعاة
الذوق أول ما يعنى به كرام الناس

٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤

بين العقل والهوى

أثر أنظمة الحكم في حياة الشعوب

باريس في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

صديق ...

أكتب اليك ، وقد قضيت ساعات في فونتنبلو ، بين القصر
والحديقة ، ويهمنى قبل المضى في هذا الكتاب أن أذكرك بأنى لا أكتبه
لغاية سياسية ، وإنما أمضى على الفطرة ، كما عودت نفسى وعودتك
فأعرض وجوه الحياة في حيدة خالصة من شوائب الاغراض ،
وأحاول جهد الطاقة أن أطلعك على نواح مختلفة من أثر أنظمة الحكم
في حياة الشعوب . فان رأيت في خلال الحديث ما ينقض مذهبا تحبه
أو يؤيد رأيا تميل اليه ، فاحذر أن تظن أنى أثير غضبك أو أتملق
هواك ، إنما هى رياضة عقلية يجرى بها القلم بلا شطط ولا ضوضاء .
وقد آن لك أن تعرف أن حياة العقل تحتاج إلى حرية في
الكتابة والحديث

كانت زيارتي لفوتينبلو فرصة لدرس بعض النواحي من عقلية الشعب الفرنسي ، فقد كانت دعوة من صديقين عزيزين من كرام أهل باريس ، وكان في تلك الدعوة ما يمثل شغف أولئك الناس بروائع الفن الجميل ، وزادني يقينا بصحة هذا الفرض أن تلك السياحة كانت في يوم أحد ، وكان الطريق إلى فوتينبلو يموج بالألوف ، وكان رفيقاي يعملان ذلك ، فحضرا إلى المحطة قبل قيام القطار بنحو أربعين دقيقة ، لنستطيع الظفر بمقاعد في الدرجة الثانية يضاف إلى ذلك أن أولئك الزائرين كانوا يمشون في غرفات التصر وساحاته خاشعين ، وكانوا يستمعون ما يلقي عليهم من الشرح في سكون وإجلال ، وما أذكر أني سمعت من أحدهم إشارة لغو أو كلمة فضول ، وهذا وذاك يمثل جانبيين من العقلية الفرنسية ، فهم أولا يقدرون الفن حق قدره ، ويفهمون أن النزهة الجميلة لا تتم إلا بمشاهدة الفن الجميل ، وهم بعد هذا متصلون بماضيهم أشد اتصال فلا يوجد قتي ولا فتاة ولا كهل ولا عجوز إلا وفي أنفسهم صور من ماضيهم الذي يمثل الفزع حيناً ، ويمثل المجد أحياناً . والحياة الكاملة لا تكون في الحاضر وحده ، فإن الحاضر قد يعجز عن تغذية المشاعر والعقول وهو بشواغله ومضجراته قد يغزو النفوس بالسأم والملال . ومن أجل هذا انتطلع النفوس إلى الماضي فتأخذ من صورته وألوانه ، وأفراحه وأتراحه ، ماتلون به الساعات الحاضرة ، وتدفع به ما يساورها من وحشة الاملاق في عالم الأذواق والأحاسيس ، وفي النفس الإنسانية

آفاق عجز عن درسها علماء النفوس ، وتلك الآفاق تقفر وتوحش كلما تقدم الانسان في طريق العلم والمدنية . فهو لذلك محتاج إلى من يروح عنه بطائفة من الملاهى المصقولة التي تسمى العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والتشريع . فالطفل يلهو بأرجوحة أو العوبة والرجل المثقف يلهو كما يلهو الطفل ، ولكن لهوه يأخذ وجهة معقدة تناسب عقله المعقد ، ومن تلك الألعاب خرجت العلوم والآداب والفنون ، وهى الألعاب لا ينصرف عنها إلا المريض من الرجال ، كما لا يزهى في ألعابه إلا العليل من الأطفال

وقصر فونتنبلو الذى نتحدث عنه قديم العهد ، فقد بنى جزء منه فى القرن السادس عشر ، وبنى باقيه فى القرن السابع عشر ، فهو أقدم من قصر فرساي بنحو مائة عام ، ويمتاز بأنه فى مبانيه بمثل مذاهب مختلفة فى العمارة والبناء والنقش ، بخلاف قصر فرساي الذى بنى فى نحو عشرين سنة فانه يمثل عصر بانيه لويس الرابع عشر ومع أن قصر فرساي أنخم وأروع فان قصر فونتنبلو يفضل بهما بقى فيه من نفائس الآثار ، ذلك بأنه بعيد عن باريس ، فسلم لبعده من فتك الثأرين الذين بددوا ما كان فى قصر فرساي من التحف الغالية . . . والثورات لا ترحم إذا خرجت من قلوب الشعوب

وقد بنى هذا القصر على رأس غابة هى أكبر الغابات الفرنسية على الإطلاق ، والقصور الملكية فى فرنسا بنيت كلها فى رؤوس الغابات ، وسبب ذلك أن ملوك فرنسا كانت نشأتهم فى الأغلب

ريفية . وكانوا يفضلون أن تكون القصور مما يواجه أماكن الصيد فكان الملك يخرج من قصره على ظهر جواد ثم يتوغل في الغابة ليصطاد ، وبهذا كان الجمهور لا يراهم إلا قليلا ، لأن الغابة دينا ثانية لا يحتاج من يقيم فيها إلى مشاهدة الناس

والنشأة الريفية لملوك فرنسا هي في رأي من أهم الأسباب لتعلق الفرنسي بأرضه ، فالفرنسي يمتاز بأنه يحب أرضه حباً شديداً ، وحاله في هذا الحب يماثل حال الفلاح المصري ، وربما كان الفلاح الفرنسي ألصق بأرضه وأعلق ، فهو لا يتحدث عن الوطن في جملة إلا عند المناسبات ، أما وطنه فهو بلدته التي يحيا فيها ما له الصناعات والناطق ، ولا كذلك الناس في الأرض المصرية ، فإن انحياز الأغنياء إلى العواصم والخواضر كاد يغرس في أنفس الفلاحين بذور الزهد في أرضهم التي تدر عليهم الخير والبركات



كان قصر فوتينيلوس سكنا لجماعة من الملوك ، وفي أهبائه وأروقته نماذج باقية من الفن في مختلف العهود ، وزيارتي لهذا القصر جددت في نفسي التفكير في الملكية والجمهورية ، وما لها من الأثر في حياة الشعوب

وأستطيع أن أصارحك بأن نظام الجمهورية ليس خيرا كله ونظام الملكية ليس خيرا كله ؛ فكل النظامين له مزايا وعيوب .

غير أنه من المؤكد أن نظام الملكية هو النظام الذى تزدهر فى ظلاله الآداب والفنون ، فان كنت فى ريب من ذلك فتذكر اهرام مصر ، فان تلك الاهرام بنيت ولا جدال تحقيقا لهوى من بناها من الفراغة ، ولو كان فى مصر لذلك العهد حكومة جمهورية أو برلمانية لاستطاع أقل الناس سلطانا أن يقف ذلك البناء بحجة أنه لا ينفع الفلاحين ، وأن إنشاء ترعة أعود بالفائدة من تلك المباني الصماء ! ونحن اليوم نحكم بأن الاهرام بنيت فى ظلال الاستبداد ولكن كيف تكون مصر لو خلت من شواخ الاهرام ؟ إن تلك المباني التى نهض بها الفلاحون مسخرين هى عنوان عظمتها فى العالمين وما نقوله عن الاهرام نقوله عن قصر الكرنك ، ذلك القصر الذى تحدثنا أطلاله بأنه كان آية الآيات فى دقة الهندسة وفخامة البناء .

وقد بنى قصر الكرنك عن طريق السخرة ، لا ريب فى ذلك ، والفلاحون فى الاقصر لا يزالون يثنون مما قاسوا فى بناء الكرنك وآية ذلك أنهم لا يجتمعون فى عمل شاق إلا تغنوا بهذا النشيد :

« يا عين ، كوفى صبارة »

ولا تعجب مما أقول : فان آلام الأجداد تنحدر فى الأصلاب حتى يثن بها الأحفاد

وللاهرام والكرنك أمثال من الآثار الخالدة على ضفاف النيل وهى كلها تمثل أهواء الملوك ، وفى مقابل تلك الآثار لا تجد قنطرة فرعونية تمثل عقل الفراعنة فى تدبير ماء النيل ، ولو أنهم شغلوا عقولهم

وأنفسهم بمصالح الأهالي لكان للفرعونية وجهة قومية ، ولكنهم وقفوا عند شهواتهم في دنياهم وأخراهم ، ولم يظفر الفلاح من تفكيرهم إلا بالقليل وكذلك الحال في الأرض الفرنسية ، فالقصور الملكية هنا هي أروع آثار هذه البلاد ، وهي كلها تمثيل لشهوات الملوك ، ولكن أى تمثيل ؟ إن الفن العالى ليحيا حياة خالدة في أبهاء هذه القصور وغرفاتها وشرفاتها ، وسراديبها وأبراجها ، والقلم يعجز عن وصف غرفة واحدة ، وما ظنك بقصر تفرد كل ركن من أركانه بأسلوب في النقش والتصوير ، وتميزت سقوفه وجدرانه بأساليب من التلوين والتهويل ؛ إن هذا من عمل الجن لا من عمل الناس !

وقد تسأل : أكان ملوك فرنسا يشغلون برعاياهم كما يشغلون

بقصورهم ؟

قد يكون ذلك ، ولكن الآثار الباقية تدل على أن الأثر كانت أغلب على طباع أولئك الملوك . والتاريخ يحدثنا أن العهود الملكية لم تخل من عنف الظلم وقسوة الاعتساف ، غير أن هذا كله اعتصر اعتصارا ليحفظ لفرنسا مجد خالدا هو مجد الأدب العالى والفن الرفيع والشعب الذى سخر تسخييرا في بناء القصور الملكية هو نفسه الشعب الذى يحياها اليوم ، وقيام تلك القصور هو وحده دليل على أن ذلك الشعب صالح للنهوض بجلائل الأعمال . فمن أى عنصر من عناصر الصبر صيغت نفوس المهندسين والفنانين الذين أبدعوا ما أبدعوا من القصور والتماثيل في بلاد السين ؟ ومن أى عناصر الاحساس صيغت أذواق المثاليين الذين جعلوا أرض فرنسا سلاسل ذهبية

من آيات الفن الجميل ؟

لقد سخرت الانسانية طويلا لأهواء الملوك ، العادلين منهم والظالمين ، ولكن تلك السخرة كانت رياضة فنية هي الذخر الباقي لأذواق الانسانية . فلا تلوموا الملوك على ما فعلوا ، وانظروا ما تركوا من آثار هي الدليل على ما عند الانسان من عقل وذوق واحساس إن الجمهورية نظام مقبول ولكنها ليست إلا إدارة منظمة في عهد الجمهوريات تحفظ حقوق الشعوب ، ويشعر الناس بأنهم سادة أنفسهم ، غير أنهم يقفون عند مصالح المعاش ، ولا يتخطونها إلا قليلا . وفي ظلال الأنظمة الجمهورية يقل الترف في الحياة العقلية والوجدانية وتصبح الامور وهي تقاس بمقياس النفع ، ولا تتقدم الآداب والفنون إلا بوحى من الأفراد الذين بقيت في نفوسهم بقايا من الأذواق الملكية ، والملكية نوع من الذوق يحتل أحيانا رؤوس الصعاليك فيصبحون وهم فقراء الجيوب ، أغنياء القلوب

في الجمهورية عزة قومية ، ولكنها لا تحيا حياة صحيحة إلا إذا عاش الافراد عيش المياسير ، وحياة اليسر والترف كفيلة ببقاء الآداب والفنون . والترف هنا ليس معناه اللين الذى يأنس اليه الوزراء والأمراء فى عهد مثل عهد لويس الرابع عشر ، ولكن معناه الغنى المعقول الذى يوحى فنونا وآدابا تمثل القوة والفتوة ، فقد يكون فى المصانع والمعامل حياة أنضر وأجمل من مظاهر الفن المترف فى

فوتينبلو وفرساي

في فرنسا اليوم حزب يدعو إلى عودة الملكية ، وهو حزب
 قتي شديد المراس ، ولكن حذار أن تظن أن أولئك الملكيين
 يشيرون على الجمهورية لتبني لهم قصور جديدة كقصور اللوار . هيهات
 فتلك أيام خلت ، لم يبق للترف في بناء القصور أعداء ولا أنصار !
 إن اصطدام الجمهورية بالملكية لا يقوم على أساس الفن ، وإنما
 يقوم على أساس المعاش ؛ فالنظام الأصح للحكم هو النظام الذي
 تعيش في ظلاله الشعوب عيش العزة والغنى ، ومن أجل ذلك
 سادت الأنظمة البرلمانية بجانب نظام الملكية ، وصار من المتعذر أن
 تصير أمور الأمم إلى رجل فرد يسخرها كيف يشاء

لكل عصر فنون وآداب ، وآداب العصر الحاضر وفنونه تأخذ
 مددها من قلوب السواد ، فاذا خلت من بريق الأريستوقراطية فلها
 بريق آخر هو شعاع القومية . وإذا كان الشعراء والفنانون في العصور
 الخوالي عرفوا المشجعات ممثلة في عطايا الامراء والوزراء ، فمشجعات
 الفن والآدب في العصر الحاضر تتمثل في أذواق الجماهير التي
 تناصر الأدباء والفنانين ، وأذواق تلك الجماهير قوامها النفع والفائدة
 في تصور جلائل الأعمال

أتريد الحق أيها الصديق ؟

إن ساعة في مصانع سترويين في باريس أعود على القلب
 بالمعاني الشعرية من أيام في قصر قوتينبلو أو قصر فرساي ، وإن

منظر الفتاة العاملة وقد سود وجهها الحديد لأبلغ في الجاذبية من صورة بسيشيه في جدران قصر شاتي، أو ملعب الولدان في قصر هنري الرابع.

إن الذوق يتابع الزمن في صورته وألوانه، وأصلح الناس للحياة أطوعهم للانطباع بصورة عصره، فتأمل ذلك يا صديق ورض نفسك على التأدب بذوق هذا الجيل.

الغاء الدراسات

الاسلامية في جامعة استامبول

في عرف الدول قانون مصنوع اسمه « حق الفتح » فلنعرف اليوم أنه جد قانون جديد اسمه « حق النصر » فالفتاح يصنع ما يشاء والمتنصر يفعل ما يريد. وحق النصر يطبق في تركيا الكمالية كل التطبيق بلا مراعاة للقواعد والأصول، ونحن لا ننكر أن مصطفى كمال انتصر بفضل الحزم والجد وقوة المراس والصبر على مقارعة الخطوب، فله منا كل حمد وثناء. ولكن هذا لا يمنع أن ننظر إلى بعض تصرفاته العلمية والاجتماعية نظراً كان خليقاً بأن ينظر مثله لو وقف مثلنا موقف الناقد الذي يرقب الحوادث بدون أن يكون له فيها هوى خاص.

إن هذا الرجل المنتصر يريد مجازاة أوربا في كل شيء ، لأن أوربا عنده هي النموذج وهي المثال ، ولكنه يسرف في مجاراتها كل الاسراف ، فان الأمم الأوربية لم تفكر جديا في تخلص لغاتها من الألفاظ اليونانية والعربية ، أما هذا الرجل الذي أطفاه النصر فيدعى جاهدا لتخلص اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية ، وينسى أنه يشل لفته بهذه الوثبة الجامحة ، فان اللغة المصنوعة لا تعبر عن أصحابها كما تعبر اللغة التي احتلت أذهان الناس وعقولهم منذ أزمان. وقد حدثنا من ثقب بروايته أن كبار الحكام في تركيا يحفظون من تقاريرهم نسخا سرية مكتوبة بحروف عربية لأن الحروف اللاتينية لم يمض عليها من الزمن ما يربطها بالألفاظ التركية ربطا وثيقا كالذي كانت تربط به وهي في حروف عربية فاذا كان هذا حظ ما يكتب بحروف لاتينية فكيف يكون حال لغة تفصل منها ألوف من ألفاظها الحية لتحل محلها ألفاظ ماتت منذ عهود طوال

أما البدعة الجديدة فهي إلغاء الدراسات الاسلامية من جامعة استامبول ، وهي بدعة من جميع النواحي ، فان أمم أوربا تهتم في جامعاتها بالدراسات الاسلامية ، بحجة أن الاسلام دين لكثير من الشعوب ، وأنه لا يصلح بالرجل العالم أن يجهل دينه يدين به ثلاثمائة مليون

إن مصطفى كمال لن يستطيع مطلقا أن يطارد الاسلام في البلاد

التركية ، فكيف جازله وهو رجل خبير بأهواء الشعوب أن يطبع
شباب تركيا على غرار مدني صرف ، وهو يعلم أن في دمائهم قوى
إسلامية تجيش وتضطرم وإن تجاهل المسيطرون !!؟

من حق مصطفى كمال أن يحارب المتخلفين عن العلم والمدنية من
رجال الدين ، ولكن من الخطر أن يتجاهل الدين نفسه تجاهلا تاما
وأن يتوهم أن الدين ولى زمانه وزال

لقد سمعنا أن بطل تركيا يصم أذنيه عن النقد ولو كان صحيحا
ولكن المخلصين للعزة الاسلامية لا يملكون كتمان الحق ، ويرون
أن رياضة شبان تركيا على فهم أصول الدين فهما صحيحا تسمو بهم
إلى آفاق من المجد والكرامة والنبيل

اساليب الكتاب

أشرت في كلمة سالفة إلى المقالين النفيسين اللذين كتبنا عن
«ديوان زكى مبارك» ورأى القراء أني أجد في هذين المقالين
ما يمس الحقائق التي أعيش عليها في حياتي الأدبية ، فانا عند الأستاذ
خلدون أشعر ، وعند الأستاذ المازني أكتب ، والأستاذ خلدون
يرى أن أنقطع للشعر ، ولا أتخطاه إلى سواه. والأستاذ المازني
يرى أن أفرغ للنثر ولا أتعدها إلى سواه . وأنا أبداً بمناقشة الأستاذ

خلدون وأقدم إلى القراء الفقرة الأساسية من مقاله الممتع ليظهر لهم جيداً وجه الخلاف :

« كان همى وقصاراى حين تصفحت ديوان زكى مبارك أن أتحسس من روح الشعر ؛ هل استقر فيه ، أو هو محوم عليه من قرب أو من بعد ؟ وقد فرحت لصديق حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ، ويحيل فيه الحياة ، بل لقد تهيأ لى معنى من تصفح الديوان أخشى إن ذكرته أن أغضب شطر الدكتور زكى مبارك النثرى ، ذلك أنى وجدت له فى الشعر من حسن الديباجة وقوة النظم وطلاوة الأسلوب ما لم أجده له فى النثر . ولقد كان نثر الدكتور فى نظرى محسوبا على نثر العلماء الذين لا تعنيهم الديباجة ولا يتعملون الحسن ، ولا ينصبون أنفسهم فى التألق والتزين ، ومن أجل ذلك كنت أعنى دائما بتلقف الفكرة أو الموضوع الذى يعرض له الدكتور وأتجاوز عن النظر إلى الوعاء الذى قدم فيه »

ومعنى هذه الفقرة أن الأستاذ خلدون لا يرى الفن إلا فيما نظمت من الأشعار ، أما ما أنشأت من الرسائل وأذعت من المؤلفات فالفن فيها قليل ، ونثرى فيها محسوب على نثر العلماء ، وأنه لأجل ذلك كان حين يقرأ ما أكتب لا يعنى إلا بتلقف الفكرة أو الموضوع الذى أعرض له ويتجاوز عن النظر إلى الأسلوب

وأسارع فأقرر أنى اصطنعت أسلوبين فى حياتى الأدبية ، كان أولهما صنيع الفن والزخرف ، وكان ثانيهما وليد الفطرة والطبع

والنسخة التي بأيدي الناس من كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» تشهد بذلك ، ففيها فصول كتبت سنة ١٩١٩ وفصول كتبت سنة ١٩٢٨ والفرق بين الأسلوبين واضح كل الوضوح ، وهو ينطق بأن زكي مبارك تغير كل التغير في مدى عشر سنين ومن المؤكد أني تغيرت أيضا فصرت اليوم إلى غير ما كنت سنة ١٩٢٨ ومن ذا الذي لا يتغير ياسيد خلدون !

ولهذا التطور أسباب يحسن أن نعرض لها بشيء من الشرح والتفصيل :

كنت في مطلع حياتي الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوازمي والصائبي وابن العميد ، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس إلى نفسي ، وأحبهم إلي ، وأبعدهم تأثيرا في تكوين مشاعري الأدبية ، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريري ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الخوارزمي وابن عباد وابن العميد ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فنا خالصا يسامى الشعر ويباريه في الزخارف والتماويل ، والوزن والقافية ، لأن أكثر النثر المصنوع مقفى موزون ، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة ، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما في زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم الماثورة في الأوصاف والتشبيهات ، فاطمأنت نفسي إلى أن النثر الجيد هو

النثر الذى يعنى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصنع الفنان الذى ترى جهده وصنعيته وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية من مظاهر البراعة والحذق ، ودقة النظم ومتانة التراكيب .

ثم شاء الله ، عز شأنه ، أن أتعلم فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تشوق الحواس ، هناك جمال النفوس الصافية ، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة ، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من نيم العطف والحنان وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج ، وأن ما نسميه بالمحسنات البديعية ليس كل شئ فى صناعة الكتابة ، كما كان يفهم فريق من القدماء ، فقد يشقى الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع وتلك حالى فى أكثر ما أكتب اليوم ، وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوة الطبع وعبقريّة الخيال . إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ ، بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والغنى

في تخير الالفاظ ، ورصف التراكيب . ومثله مثل المناظر الطبيعية
فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط
والتصاوير ، أو تعرض عليه سمكة ملونة تلوننا دقيقا يزيغ البصر
ويثير الحس ، ثم لا يحسب الانسان أن في هذه السمكة أو تلك
الزهرة فنا وصنعة ، لأنه يظنها هكذا خلقت . ولا يدري أن الطبيعة
صنعتها عن عمد وذكاء ، وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التي تنقصها
الصنعة الظاهرة فتحسبها مطبوعة . وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر
يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته
والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف
ومحاولة الابداع ، أما الثاني فيصدر عن طبيعة سخية لينة تعودت
الاتقان والاجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء
غير أنه ينبغي أن نقيّد أن هناك جمهورين من القراء : جمهور
المبتدئين الذين تروقه الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب
الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين
والتحويل ، مثلهم مثل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج
طرائف من الثياب المخططة المبهرجة ، وهي ثياب ظريفة خلاصة
لا تكلف صانعيها جهداً كبيراً ، ولكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو
لهم غاية في التجويد والابداع .

وهناك الجمهور الثاني ، جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية ، وهؤلاء
يفهمون دقائق الفنون الأدبية ، ويفرقون بين الصنعة السطحية

والصنعة الخفية التي لا يجيدها إلا الافذاذ القلائل من فحول الكتاب
هذا الجمهور المثقف هو الذي يشق الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة
الذوق الأدبي والحاسة الفنية لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة
وكيف تؤدي الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف
والكاتب البليغ حقا هو الذي يضع الالفاظ على قدود المعاني وضعا
رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق ، بحيث لا يود القارئ المثقف
لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومثل هذا الكاتب مثل الصيدلي
البارع الذي يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء
الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان
وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح
ضاراً أو غير مفيد

ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مثل التاجر المتأنق الذي
يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق
فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط ، ولكنها تظهر نفيسة
ثمينة عند من ألقت عيونهم وأذواقهم دقائق النسيج وغرائب الصنع ..
ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق
الذخائر والاعلاق . فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لاتتاح
لكل مخلوق

وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذي يدق فنه وتسمو صنعته
على كثير من العقول والاذواق يجب أن يطمئن إلى أن جمهوره

معدود الأفراد ، فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده
وتشيد بذكره في الأندية والأسواق ، وإلعااد رجلا عاميا لإيلاء
له ولاعزة ولا كبرياء ، فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه
ملايين العقود لن يصل في أى ذهن إلى مساماة اللؤلؤ المكنون
الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف

وفي ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم ، وأقصتهم عن الجماهير ،
فعاشوا في أوطانهم غرباء ، ويرحم الله أبا تمام إذ يقول :
غربته العلى على كثرة الناس فأمسى في الأقربين جنيا
فليطل عمره فلو مات في مر ومقيا بها لمات غريبا



أيراني القراء أحسنت الدفاع عن أسلوبى فى النشر ، وأقنعت
صديقى الأستاذ خلدون ؟ إنى لانتظر من أدبه وفضله أن ينظر
نظرة ثانية فى كتاب « ذكريات باريس » وأن ينصفنى من نفسه
فقد ظلمنى حين نقد ذلك الكتاب ، ولا يستكثر عليه أن نفرع إلى
انصافه ، فان المنصفين فى مصر أقل من القليل !

عيد الحرية

في باريس مدينة النور والحرية

باريس في ١٥ يولييه سنة ١٩٣٣

صديق...

لقد تآقت نفسي الى محادثتك ، ولكن أين السبيل اليك ، ويني

وبين وجهك أيام وليال ؟

إنك تنتظر ، ولا ريب ، أن أصف لك بعض ماشهدت باريس في عيد الحرية . ذلك العيد الخافل الذي يجدد شباب الناس في كل سنة ، وتحيا ملاهيه أربع ليال سويا ، ونحن الأجانب عن باريس نسميه عيد الحرية ، والناس هنا لا يعرفون إلا كلمة (١٤ يولييه) فحين تتذكر فتح الباستيل لأننا لانزال نجاهد في ما بلادنا من ضيم وعنف ، أما الشبان الفرنسيون فقد نسوا الباستيل نسيانا تاما ولم يبق لهم من ذكريات ١٤ يولييه إلا ماشهدت باريس في السنين الماضية من ملاعب وشهوات . والانسان يا صديقي لا يذكر الظلم إلا عند الصراع ، فاذا انتصر أقبل على نفسه يرفهها ويمسح عنها آصار الضيم والاستبداد . فلا تحسب الناس يلهون في باريس إحياء

لاتتصار الحرية ، إنما يلهون لأن اللهو شريعة إنسانية أو حيوانية يحدد بها المرء مارث من عزائمه بعد طول النضال . وأهل باريس كانوا ولايزالون أهل جد ولهو ، وهم في الجد أبطال ، وفي اللهو أبطال ، وكذلك تكون الحيوية في الأمم والأفراد ، فالرجل الذي لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف يجد ، والأمم التي لا تحسن المرح في أيام السلم لا تحسن الضرب في أيام الحرب . فالغرائز الانسانية مزاج من الضحك والعبوس ، والحلاوة والمرارة ، والعمل والفراغ والسلم والقتال .

على أن الحرية يا صديقي ، ليست إلا كلمة ، وهي في الأغلب كلمة عديمة المدلول . والناس اصطلحوا على طلب الحرية حين تصطدم منافعهم بعقبات الغاصبين ، فإذا خلصوا من خصومهم حسبوا أنفسهم أحراراً ، وذلك وهم جميل !!

إن الحرية ترجع إلى أصليين ؛ الخلاص من ظلم العدو ، والخلاص من ظلم النفس . وقد أفصح عن ذلك الرسول عليه السلام حين قال وهو عائد من إحدى الغزوات

« رجعنا من الجهاد الأصغر جـمـاد العدو إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »

فقد يكون الرجل حراً لاسطان عليه ، ولكنه يظل مستعبدا لطائفة من العادات والتقاليد والطقوس ، ويمشي مثقل الرأس والقلب والروح بما يساوره صباح مساء من عدوان العرف والمألوف في أنظمة الأخلاق

وهو إذا خلص من عنف التقاليد لم يخلص من عنف الشهوات
والأحاسيس ، وليتك تفتح عقلك فتفهم أن المرء قد يخلص من جميع
القيود ثم يظل أسير أمعائه في جميع الأحوال . أتخسب الدنيا تجمل
لأنها في ذاتها جميلة ، أو تقبح لأنها في ذاتها مدممة ؟ قد يكون في الدنيا شيء
أصيل من عناصر الحسن والقبح ، ولكنه شيء يسير بالاضافة إلى
ما تفرضه الامعاء . فان كنت في ريب من ذلك فتأمل كيف يحلو في
عينك الشيء تارة ويسمج تارة أخرى ، وهو كما كان لم يتغير ولم يتبدل
وإنما غيرته أمعاؤك التي تسيطر عليك فتريك القبح جميلا ، وتريك
الجميل دميما .

أفهمت الآن أن الحرية ليست إلا كلمة ، وأنها في الأغلب
كلمة عديمة المدلول ؟ !



ومالى أكدر عليك صفوك بهذه الفلسفة ؟ إنك أيها الشقى
تنتظر شيئا آخر ؛ إنك تحب أن أصف لك ملاهى باريس في عيد
الحرية . ولكنى لا أحب أن أكرر ما قلته في السنوات الماضية
فتلك صور تراها في كتاب « ذكريات باريس » ويكفى أن أشير إلى
أن الناس هنا لا يزالون يحترمون مظاهر اللهو والعبث والشهوات
وما ظنك برجل حاكم مسئول هو محافظ باريس حين يعلن إباحة
الرقص في الميادين العمومية ؟ وهذه الإباحة لها معنى ، فهى تصريح

بإقامة المنكر الجميل والشر المحبوب، هي تصريح بأن تتلاقى
 الأجسام والقلوب والأحاسيس أربعة أيام في ساحات باريس...
 وتلك مناظر ساحرة يخرها غلف القلوب. والدنيا لا ترى في قمتها
 وزيتها كما ترى في عيد ١٤ يولييه، فوق أرض باريس وطن الحقائق
 والأباطيل، والهدى والضلال. إن حياة ساعة واحدة يخلص فيها
 المرء من كل شيء في مدينة هي بغداد القرن العشرين لأشهى وأجل
 من حيوات طوال يقضيها المرء في بلاد التزمت الجمود. إن الحياة
 يا صديقي لا تقدر بالأعوام والسنين، إنما تقدر بما فيها من المعاني.
 فإن لم تفهم هذا فتذكر أن لحظة واحدة في شواغل قلبية وحسية أنفع
 لك وأجدى على قلبك وروحك من كل هذا البقاء الطويل المملول
 الذي تقضيه في شواغل لاصلة لها بالقلب والاحساس

أكتب هذا اليك، وليقل من شاء ما شاء! ومن أخاف؟ ومن
 هو الرجل الصالح الذي تفرض علينا تقواه أن تتحفظ في الحديث؟
 إن أكثر الناس أشباه لصاحبنا «فلان» الذي اصطنع التوقر حتى
 عاد وهو من أشباه المتقين. وأقسم لو عرضت حياة «فلان» هذا
 في الأسواق لما اشتريتها بدرهم واحد! لقد حسب المفتون أنه غنم
 وفاز حين استطاع تضليل الناس بالوقار المصنوع. إن الفوز الأكبر
 أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه، أما هذه الصور التي
 لا تضحك ولا تعبس إلا وفقاً لشائع الأهواء والأغراض فهي أقل
 حياة من الدمى والتماثيل. وأين يكون أصحابنا هؤلاء من الدمى

والتمائيل وهى لم تصنع إلا لتمثيل مادي ولطف من وثبات العقول
وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس .

كانت باريس ، يا صديقي ، فى تلك الليالى تذخر بأسباب اللهو
والفتون ، وكان فى كل حى ، وفى كل شارع وفى كل حارة ، مرقص
عابث يبعث أموات الاحياء . وكان ذلك كله يجرى فى رفق ولطف
حتى لا تجد ما يجرح ذوقك أو يشعرك بأنك تشهد ما ينافى الحياء
ولا أدري ، والله ، كيف كان يطيب لى أن أعود ثم أعود إلى
المرقص الذى أقيم فى ميدان السوربون ؛ أكان ذلك لاني أحب أن أرى
كيف يقام اللهو الصراح على أعتاب الجد الصراح ؛ وكيف وأقطاب
السوربون قضوا شبابهم فى أمثال هذه السهرات ، وفى قلب السوربون
تقام المراقص فى أعياد الشتاء ! .

أفأستطيع أن أحكم بأن الاخلاق ليس لها ميزان ، وأن الشر
والخير مما يصبغ بالالوان المحلية فترى حلالا هنا منزها حراما هناك ؟
تصور ذلك كيف شئت ، ودع الحياة تفعل ما تشاء



ولكن أكان اللهو والعبث والمجون هو كل ما شهدت باريس
فى هذه الأيام ؟

هيئات ، فتلك علالات يتلهى بها الفتيان والفتيات ، ويأنس
اليها من خلا قلبه من هموم السياسة وهموم المعاش . فالى جانب

المراقص العمومية كان أقطاب السياسة ينظمون عرض الجيش ليدكروا الشباب بأن مجدهم قائم على السيف والمدفع والنار والحديد ، ولو رأيت كيف تصطف الجنود في حي الشانزليزيه أو كيف تجلجل خطواتهم في ميدان الايتوال ؛ لعرفت أن في باريس روحاً آخر هو روح الجد والفتك ، ولأدركت أن القوم لا يلعب فتيانهم إلا في ظلال ما يملك فحولهم من الطيارات والمدافع والأساطيل وفي الأيام اللاهية العابثة التي طوقت جيد ١٤ يولييه كان أصحاب النواجذ من زعماء الأحزاب يشتجرون ويقتتلون ، وفي ساعات الرقص الملهب في مونمارتر ومونبارناس كان رجال من حملة الأقلام يلقون النار فيما ينقشون على يياض القراطيس ، وكانت الصحف تخرج إلى الناس وفي ألفافها السم الزعاف في تلك الأيام الماجنة أقيم المؤتمر الاشتراكي وثار فيه من العواصف ما يزلزل الجبال

فافهم الآن يا صديقي ، أن باريس ليست أمة واحدة ، إنما هي أمم مختلفة ، وإن شئت قلت ليست جمهوراً واحداً ولكنها جماهير مختلفة فهناك جمهور الشباب وعشاق الشعر والخيال ، وهؤلاء يملأون الدنيا لهواً وعبثاً ، وهناك جمهور الساسة ورجال الأحزاب الذين يوعدون وينذرون ويصرخون في كل لحظة بأن الخطر على الابواب وهناك جمهور الملاك وأصحاب المصالح الذين لا يشعرون إلا قليلاً بأيام المواسم والاعياد

ومن ائتلاف هذه الجماهير ينظم عقد باريس ، فهي ليست
للهو وحده ، ولا للجد وحده ، وليس الأمر فيها للشبان وحدهم ، ولا
للشيوخ وحدهم . وإنما هي دنيا يتعاون شبابها وكهولها ويأترف فيها
الجدع الباسق بالغصن الأملود



أما بعد فقد انقضت أيام العيد ولياليه ، ورجعت كما كنت آوى
إلى فراشى قبل منتصف الليل ، وكنت فى تلك الليالى لأصافح
مضجعى لإقيل الصباح . فأين مضت تلك النجوم السواطع التى
ملأت الدنيا نورا فى ليالى العيد ؟ أين ولت جيوش الصباح والملاحه
التى أزاحت الأبصار وبعثرت حبات القلوب ؟
لقد هدأ كل شئ بعد أن انفض السامرون ، فأين قلبى الذى
زلزله بروق الجمال ؟

عد إلى عشك يا قلبى ، فقد أوت إلى أركانها أسراب الحسن
وسكن الأليف إلى الأليف

إنى فى انتظار عودتك أيها القلب ، فمتى تعود ؟
إنى لأعرف أين أضعتك ، ولكنى لأعرف أين يقيم من
انتبهوك !

وأنت يا صديقى الذى تحيا بطلعته شواطئ النيل ، ألا تغنى أخاك
هذا البيت الحزين :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا أين استقلت بأهلها السفن

قبل الطعام والشراب (١)

أين عهد الهمجية ؟

أين عهد الانحطاط ؟

أين عهد الخمول ؟

رحم الله تلك العهود ؛ فقد حدثونا أن الحكومة المصرية : كانت تأخذ الأطفال قهرا من أيدي آبائهم ، وحجور أمهاتهم ، بين البكاء والعيول لتعمر بهم دور العلم التي أنشأتها لرحمة الأمة من بلايا الهمجية ، والانحطاط والخمول . وقد حدثونا أن الحكومة المصرية كانت تخرج الشبان من ديارهم ، لتبعثهم إلى العواصم الأوروبية بالرغم من التمايم التي كان الآباء يعوذون بها أبناءهم من (التغرب في بلاد بره !) وقد حدثونا أن الآباء والأمهات كانوا (يقيمون الولائم لأهل الله والأولياء ، ويوزعون الصدقات على المساكين والفقراء ويقررون الفاتحة والصمدية والمعوذتين ثلاثمائة مرة عند الشروق وعند الغروب

كل ذلك ، ليرحم الله أولادهم من دخول المدارس ، و يقيمهم شر السفر إلى لندرة أو باريس أو برلين ، فما كان الله وهو أرحم

(١) نشرت في جريدة ابو الهول في خريف سنة ١٩٢١

الراحمين ينظر إلى زفرائهم المحرقة ، وعبراتهم المغرقة . بل كان يعين
الحكومة عليهم فيصبح أبناؤهم بالرغم منهم تلاميذ في المدارس
أواعضاء في البعثات العلمية !

فيارب وأنت الحكم العدل : إليك نشكو (وجودنا) في عهد
المدنية والرقى والنهوض ! لقد كان آبائنا يساقون إلى المدارس
سوقا ، فيتعلمون وهم راغمون ، كما يؤجر المؤمن رغما عن أنفه !
وهانحن أولاء نقاسى ألوان العذاب ، كلما اشتعلت في صدورنا نيران
الشوق إلى العلوم والفنون !

يارحمة الله لهذا القلب الحزين ! لقد قضيت بضع سنين وأنا
ظامئ أترقب لعل طيف (الزمن الماضي) يطيف بي فجأة فأصبح
وقد وجدت من مناهل العلم ما يطفىء تلك النار التي تتأجج في صدري
فلا تجد غير الرجاء من وقود ! وهأنذا أتلقت ذات اليمين وذات
الشمال ، فلا أجد غير أنداد في التعاسة ، وأشباه في الشقاء !
أيها الآباء والاجداد !

لقد كانت الحكومة في عهدكم محسنة كريمة ، ولكنكم عددتم
كرمها بخلا ، وإحسانها إساءة !

وهأنتم أولاء تنظرون كيف انتقم الله للحكومة منكم ، فأغلق في
وجوه أبنائكم أبواب المدارس ، وحرّمهم من البعثات العلمية والفنية !
فاقرءوا إن شئتم (الفاتحة والصمدية والمعوذتين) على أرواح أولادكم
التي أماتها الجهل ، وقبرها الخمول ! لقد كنتم تبكون كلها ألزمتكم

الحكومة بارسال الاطفال الى المدارس! وكنتم تعولون كلما سمعتم أن الحكومة ستبعث فريقا منكم إلى الحواضر الأجنبية! فابكوا الآن حتى تنزفوا دموعكم كلها ضاقت عن أبناءكم المعاهد ويستم من أن يروا— ولو في النوم— منابع العلم في برلين وباريس! فيارب وأنت الحكم العدل: لقد قضيت أن لاتزر وزارة وزر أخرى ونحن أبناء هذا الجيل لم نعص أمر الحكومة ولم نهرب من المدارس ولم نفزع من الارساليات فكيف تؤخذ بذنوب آبائنا الذين أنكرنا عليهم ماتورطوا فيه إذ ذاك من كراهة التهذيب؟

فان لم يكن بد من أن يؤخذ الأبناء، بما جنى الآباء، فاني أستطيع أن أثبت أن جدي رحمه الله أدخل أبي المدرسة وهو طائع! وفي مقدور كثير ممن ضاقت في وجوههم سبل العلم أن يبرئوا آباءهم وأجدادهم من (تلك الجناية) التي يحاسب عليها الأبناء والأحفاد! فهل تفضل الحكومة فتفسح المجال لهذا الفريق (البريء) عسانا ننجو من بلية الجهل، ونكبة الجمود!

نريد أن نتعلم، لا تكفيننا السلامة من العرى، والظلم، والجوع لا نشكو ظاهر المرض، ولكننا نتألم من الداء الدخيل! إرحمونا من الداء العياء! أغثونا فكلنا ملهوف! (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) ونحن أيتام العلوم والآداب، فليرحمنا القائمون بالعلم في هذه البلاد، ليرحم الله أبناءهم من بعدهم

فلا يجدون ما نجد من اللوعة والغليل !!
 يرحم الله هذه الأمة : فلقد كانت وكل همها أن تغفر بكفائتها
 من الطعام والشراب ، فأصبحت وليس لها غير هم واحد ، ولكنه
 هم معقد مقيم ؛ وهو أن تجد كفائتها من المدارس الابتدائية والثانوية
 والعالية . وهى بعد ذلك ترحب بالفاقة ؛ إن صح هذا الحلم الجميل !
 أما البعثات العلمية ... ويلاه ماذا أقول ! اللهم لا تمتنى قبل أن
 أرى بعينى كيف يدرس العلم فى الممالك التى أصبح أهلها سادة الأمم
 وأساتذة الشعوب .

العمر الضائع (١)

فى الازهر والمعاهد الدينية

فى يوم الثلاثاء المقبل سيحتفل المصريون بذكرى الشيخ محمد
 عبده فى الجامعة المصرية !!

وأول ما يمر بالخاطر ، هو مكان الاحتفال ، فقد نذكر أنهم
 احتفلوا بتأبين الشيخ حمزة فتح الله فى المكان الذى كان يلقي فيه
 دروسه العامة فى درب الجمايز ؟

(١) نشرت فى الافكار فى ٧ يوليه سنة ١٩٢٢

ولست الجامعة المصرية بالمكان الذي كان يلقي فيه الأستاذ
الامام دروسه العامة؛ ولكنه كان يلقي أبحاثه الممتعة في الأزهر
الشريف!!

فيا عجباً! أيضيق الأزهر على الشيخ محمد عبده في الحياة وبعد
المات؟ ..

لا فرار من الحق! إن الذين فكروا في الاحتفال بذكرى الشيخ
محمد عبده هم تلامذته القدماء الذين ضاق بهم الأزهر، ووسعتهم
الجامعة المصرية

لقد تسكن النفس، ويطمئن القلب، حين نرى بأعيننا حياة
هذا الرجل بعد موته! — أليس هو القائل: وإن فناء في الحق هو
عين البقاء؟! صدقت أيها المصلح الجليل؛ فانظر بعينك الآن من
عالم الأبدية، لترى من جديد (إن رحمت الله قريب من المحسنين!)
إن للمجاهدين عبرة في حياتك الأولى والثانية، لقد مت وأنت
تسمع عساك تجد منصفاً يعترف لك بحميل، فهل علمت أن الناس
يعلنون عن أنفسهم بالحب لك، والافتداء بك؟؟

(إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله
أفواجا فسيبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)



في يوم الثلاثاء المقبل ستتقاطر جموع العلماء إلى دار الجامعة

المصرية فلنسمعهم هذه الكلمة عساهم يصلون إلى تلك الدار وهم خاشعون

لقدمرت السنون على وفاة الشيخ محمد عبده ، فهل قام فريق منهم فوقف وقفة المستبسل الجريء ، فزاد عن المعاهد الدينية ، واقتفى أثره في إصلاح الأزهر ، وتعديل برامج التعليم ؟

لقد عطلت الدروس شهوراً عديدة فهل انتفعوا بهذه العطلة فخلأوا الخزانين ببدائع المؤلفات وروائع المصنفات ؟ ألم يعد الأزهر كالطلل البالي لأنهم استبدلوه بالأندية الخصوصية حتى عطلت الجمعية فيه أسابيع كثيرة ؟ ألم يتركوا السذاجة تطغى وتستطيل حتى أعلن بعضهم في الصحف السيارة أنه سأل الشيخ بخيت عن حكم التكلم في السياسة ؟ ألم تنطق صوامت الموجودات وهم لا يثبون بالصمت والسكوت ؟؟

لايقنع الأمة أن ترى من بين هؤلاء الجموع خمسة أو عشرة يكتب كل منهم بضع رسائل في السنة ثم تطوى الصحيفة ويحفظ المداد !!

كنا سمعنا أن امرأة صالحة وقفت في طريق الفخر الرازي فسألها الناس أن تفسح له الطريق فقالت من هذا الذي تحتفون به ؟ فقالوا رجل عالم أقام على وجود الله ألف دليل ! فقالت : ويحكم هل عميتم حتى تطلبوا على وجود الله ألف دليل !! — وكذلك يقتل الأزهريون وقهم في إثبات وجود الله ، تعالى الله عما يصفون !!

نريد أن يتغير التعليم في الأزهر والمعاهد الدينية؛ نريد أن نكون أعزة وقد صيرتنا هذه التعاليم أذلاء، نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الإسلامية، حتى يغلب الجاحدون على أمرهم فيدخلوا في دين الله أفواجا أفواجا من حيث لا يشعرون !!

نريد أن نمحو الوسوس التي دخلت في العلوم العربية وأصول الفقه وعلم التوحيد، ولا يضيرنا أن يخمل بذهاب هذه الوسوس مئات المتصدرين في العلم والدين! فهل نحن واجدون من بين العلماء من يسمع هذه الكلمة التي اضطررنا إليها اضطرارا وألجأتنا إليها الغيرة على الدين الذي مات في تأييده الآباء والأجداد؟

الاحسان الى العقول (١)

كتب التاريخ فيما كتب، أن الأمير عبد العزيز بن مروان كانت له اياد بيضاء على المعوزين في مصر. ولا زلت أذكر ما طربت له من وصف الاستاذ محمد بك الخضرى لذلك الامير الجليل حينما عرج على ذكره في الجامعة المصرية، ولم يكن عبد العزيز بن مروان واحداً من الناس في الكرم والافضال حتى أخصه بالطرب لما عمل، والاعجاب بما صنع، ولكن الذي انتشيت له إنما هو وجود باحة

(١) نشرت في جريده المحروسة في نوفمبر سنة ١٩٢٠

سعيدة في الديار المصرية ، ابتسم فيها الجود للعافين حيناً من الدهر
ومن ذا الذي لا يستروح لذكرى السعادة مرت ببلاده فقلت من
غرب الشدائد ، ونالت من جانب الاحداث ؟

أجل ! كان ابن مروان موثلاً للنفوس الحائرة أعواماً معدودات
ثم انطوى بره ، حينما انطوت أيامه ، ولم يبق من جوده بقيه تفزع
اليها النفوس الهاربة من الفقر ... وكذلك لم يبق من ذكره إلا كلمات
قلائل حفظت في الكتب المنسية ! وذهب ما قيل فيه من جيد الشعر
وبارع النثر ، وأكثر ما يعرف عنه أنه والد الخليفة العادل عمر بن
عبد العزيز ، وكان أولى أن يعرف بجوده الشامل قبل أن
يعرف بابنه العادل

كذلك كان الناس فيما سلف ، يعملون لليوم للغد ، ويحسنون
إلى البطون لا إلى العقول ، اللهم إلا أفراداً كانوا يثيرون على
الكتب المؤلفة وربما حبسوا شيئاً من مالههم على المساجد يدرس
فيها العلم ويذكر فيها ذو الجلال والاكرام !!

تلك أيام خلت ! وقد اكتفينا بما لدينا من التسكيات والمساجد
ورجب أن تتوجه العزائم إلى الأعمال التي تخلق الأمم خلقاً جديداً
وينال صاحبها من كرم الأحداث ما لا يذهب به كر الغداة ومر
العشى ، ولن يتمثل ذلك إلا في إنشاء المعاهد العلمية ، والعمل على
تكوين العقول وتهذيب النفوس وأكثر ما يتضح ذلك في العمل
الذي قام به منشئ الجامعة المصرية ، التي أخذت منذ سنوات تبعث

العلم من مرقده ، في هذه البلاد التي كانت نقطة الاتصال بين الشرق
الناهض والغرب الهامد ، والتي لولاها ما حفظت علوم العرب التي
كانت نواة هذه المدنية الفسيحة الأرجاء !!

إن الجامعة المصرية لم تعد في حاجة إلى الاشادة بذكرها ليلتفت
إليها الناس . ولم يكن أبنائها بالقليل العدد حتى يقول قائل ما الذي
صنعت في ترقية البلاد ! ولكن كلمة واحدة تختلج بين شفقي من حين
إلى حين وأريد أن أقول : هل يذكر كل قادم إلى الجامعة المصرية من
منتسب أو مستمع أنه ضيف صاحبة السمو الأميرة فاطمة بنت
اسماعيل تغمدها الله برحمته ، أو ضيف المرحوم حسن باشا زايد
أو أحمد بك شريف ، ومن نحا نحوم في الخروج من بعض ماله
لتشييد هذا المعهد الذي تفرع إليه العقول ؟ وهل يفكر بعض
طلبة الجامعة من الذين قدر لهم أن يكونوا أغنياء أو ذوى دالة على
الأغنياء أن يكثروا من أصحاب الأيادي البيضاء على هذا المعهد بما
يثبونه من تبجيل من سهروا عليه وهو وليد ؟

أما أنا فلا أملك غير الوفاء ، وسأجعل لأولئك الكرام النفوس
منزلة من قلبي تعز على من رامها وتطول . وليشهد الله وملائكته
والناس أن لكل من مديده لمساعدة الجامعة المصرية ديناً في عنقي
قضاؤه الشكران

أين البيان والافصاح ؟ أين الشعر الجميل ، والنثر البديع ؟ أين
شعر زهير في هرم بن سنان ؟ أين مدائح البحترى للفتح بن خاقان ؟

اللهم إني أعجز عن أداء ما على من واجب الثناء على أولئك
الأمجاد فاكتب لهم عندك ما يطربون لمرآه يوم يبعثون

قالت التوراة

في باريس

صديق الاستاذ أحمد الزين

لقد رأيت أن أوجه اليك هذه الرسالة عليها توحى إليك في معناها
فكرة جديدة تذكر القراء بما عرفوا من آثار فضلك ، وتسوقك إلى
مناصري فيما أرمى اليه بهذا الحديث

وألفت نظرك أولاً إلى أن (قالت التوراة في باريس) جملة مفيدة
مركبة من ثلاث كلمات لا من أربع . ولك أن تعربها هكذا : قالت
التوراة مبتدأ وما بعدها خبر المبتدأ ، وأنت تعرف تفصيل الاعراب
فلا موجب للتطويل ، ولك أن تسأل كيف اتفق لي أن أحكي
(قالت التوراة) فأصيرها كلمة واحدة ؟ وفي الجواب أسوق القصة
الآتية :

في باريس كما تعلم ماشئت من المدارس والمعاهد والهيئات .

ولكن لا تحسب أن الحركة الفكرية والعقلية والروحية يقف نشرها عند حدود ما يلقيه الأساتذة والمعلمون في دور التعليم !! لا. فهناك عشرات من المحاضرين يلقون في كل مساء وفي أمكنة مختلفة عددًا من المحاضرات العلمية والأدبية والاجتماعية. وهؤلاء المحاضرين جماهير تتسابق في الاستماع اليهم إذ كان أكثرهم يعتمد على جمعيات منظمة تتنافس في نشر ما تؤمن به من مختلف المذاهب والمعتقدات، والدعوة إلى تلك المحاضرات لا تكون عن طريق الصحف كما هو المتبع في مصر وإنما تجرى عن طريق النشرات الخاصة التي توزع على الجمهور في نفس الأحياء التي يتكلم فيها المحاضرون، فلا ترى هنا من السخف ما تراه عند بعض خطباء المساجد إذ يعلنان في الصحف السيارة عن خطبة سيلقيها في مسجد سيدي الأربعين!

وقد كان أن وزعت في بعض الأمسية نشرة مفصلة للدعوة إلى سلسلة محاضرات تلتق في صالة الدراسات العليا بجوار السوربون. وكانت موضوعاتها شائعة، منها: هل يشعر الأموات؟ ومنها: هل تتكلم الأرواح؟

ذهبت لاستماع تلك المحاضرات فإذا رجل يلقي عظة دينية، وقد حضر لاستماع عظته عدد غير قليل من الرجال والنساء وكان يلقي السؤال ثم لا يضطرب في جوابه لأنه كان يفرع إلى التوراة فيستنطقها الجواب، وكان الناس كلهم في سكون وإنصات. أما أنا فكان يغالبني الضحك كلما سمعته يقول قالت التوراة، وكنت أقول

فى نفسى : ماعسى أن تصنع قالت التوراة فى باريس ، وخاصة بجوار السوربون ؟!

ثم مر أحد مساعدى المحاضر فأعطى كل جالس ورقة صغيرة وسأله أن يكتب عنوانه إذا كان يهيمه أن ترسل اليه خلاصة المحاضرات مطبوعة ، فأعطيته عنوانى ، وبعد ثلاثة أيام تلقيت من ساعى البريد خلاصة تلك المحاضرات

ومنذ تلك اللحظة أخذت أتعرف إلى باريس من الوجهة الدينية وكان مفهومى عندى وعندك وعند أكثر المصريين أن باريس ودعت الدين منذ أزمان . وما كان أشد دهشتى حين رأيت أن أهالى باريس مؤمنون إلى حد التنطع والجمود . وقد عرفت بذلك أننا فى مصر خدعنا أشد خداع فى فهم فرنسا من الوجهة الدينية فان القوم لم يزالوا مؤمنين ، ولا تزال كنائسهم عامرة يغشاها جماهير عظيمة من الشباب والكهول . والخلاعة الفاشية فى باريس لا تشمل إلا طوائف قليلة من الشبان الفارغين الذين يعجزهم أن يقضوا أمسية الفراغ وأيام الآحاد فى عمل مقبول

وفى باريس جمعية كبيرة تسمى « جيش الخلاص » وهى جمعية دينية يقوم عملها على أكتاف عدد عظيم من الآنسات المهنذبات وأولئك الأوانس ينقسمن إلى طوائف منظمة ، تذهب كل طائفة إلى حى من أحياء المدينة ، وهناك يقف ذلك السرب الأنيس ويأخذ فى إلقاء الأناشيد ، فيجتمع الناس من شيب وشبان ورجال ونساء

وهم في غاية الطاعة والخضوع ، ثم تنبرى إحدى الأوانس قتلقي بصوتها العذب إحدى العظاات الدينية ثم تتبعها رفيقاتها واحدة فواحدة والناس يستمعون في خشوع وسكون ، فاذا مضى على ذلك نحو ساعة صاحت إحدى الفتيات : من كان يؤمن بالله ويرى نفسه في حاجة إلى الخلاص فليحضر إلينا بعد العشاء في المنزل رقم ١٨٤ بولفار سان جرمان ، ثم تكرر الرقم بصوت مرتفع نحو عشر مرات بطريقة تأسر النفس وتشوق الفؤاد

وليس هذا كل حظ باريس من النفحات الروحية ، فهناك الكنائس ، وهناك عظاات أيام الآحاد . وقد رأيت أن أشهد بنفسى حفلة يوم الأحد التي تسمى « ميلس » فتوجهت مرة إلى كنيسة مونبارناس وأخرى إلى كنيسة نوتردام

وحى مونبارناس حى خليع هو اليوم مزاحم قوى لحي مونمارتر ومع ذلك لم أجد مقعدا خاليا بالكنيسة حيث كان المصلون يعدون بالألوف ، ثم صعد الخطيب المنبر ، ولكن أى خطيب ؟ إنه رجل مثقف إلى أقصى حدود الثقافة ، يتكلم في شئون دقيقة تمس الحياة الاجتماعية ، ولا يلقى الكلام على عواهنه كما يفعل أكثر الخطباء ، ولكنه يفترض أنه يعظ في باريس وفي القرن العشرين ، لذلك تراه يتعمق في نقد الأخلاق وتحليلها ، ورد كل رذيلة إلى أصلها من أهواء القلوب وأدواء النفوس . ويستعين في شرحه بجميع ما وصل إليه العلم في فهم الغرائز الانسانية ، وتكيف طبائع الناس ؛ وكان يتكلم

عن الأزمات الروحية والعقلية التي تصادف الرجال والنساء في بعض
أطوار الحياة بافاضة شائقة تخترق ما أضمر واحتجب من سرائر
السامعين

أما خطيب نوتردام فشعلة مضطربة من الحياة والذكاء ،
والمصلون من حوله يجولون عن الحصر والاحصاء ، وهو لا يخطب
سامعيه من أهل باريس فقط ، بل تنقل خطبته عن طريق الراديو
إلى سكان المقاطعات والأقاليم ! فحدثني بربك أظن مع هذا أن
فرنسا نسيت دينها وأقبلت بنفوسها وأهوائها على معالم الشهوات كما
يظن أكثر الشرقيين ؟

أكتب هذا اليك وأنا خالي الذهن مما يسمى القديم والجديد
فلست أحب أن أكون من أنصار القديم أو أشياع الجديد ، وإنما
يرضيني أن أكتب ما أعتقد غير ناظر إلى المحافظين والمجدين .
وأنا أعتقد بصراحة أن الجماهير في جميع الأمم لابد أن يكون لها
ضمير ، وهذا الضمير يخلق في أكثر الشعوب مصحوبا بالدين ،
فلا بد للعالم من وازعين : العلم أو الدين . ومادامت الجماهير لاتصل
إلى العلم الواسع الذي يحملها على فهم معاني الخير والشر فمن الاجرام
أن تدعوها إلى التخلي عن الدين ، فانه لابد لها من ضمير تعصم به
وهذا الضمير لا يخلق إلا في ظلال الدين السمع أو العلم المتين

وكذلك ينقسم أهالي أوروبا إلى قسمين فريق : العلماء الذي
يعتمد على علمه في التفريق بين الخير والشر والضر والنفع ، وفريق

الدهماء الذى يعتمد فى فهم الحلال والحرام على ماسنت الديانات
والشرائع ، أو العادات والتقاليد

فتأمل هذا وانظر أين نحن من أولئك الناس فى سياسة الجماهير
لقد أخذنا ننصرف عن تراثنا الروحى فى لهو وسخرية ، وقل
منا من يتوجه إلى المساجد بقلب خاشع ، وطرف داعم ، وقد درجنا
مع الأسف على تقدير أن من البدع أن تزخرف المساجد وتدخل
فيها آيات الرفاهية . وحجتنا فى ذلك أن مساجد الأولين كانت خشنة
لا تترف فيها ولا لالين ، وفاتنا أن نذكر أن وسائل الأولين كانت قليلة
وأنهم كانوا أفقر من أن يزينوا مساجدهم ويصيروها صالحة لاستقبال
المترفين ، وهؤلاء المترفون هم أحوج الناس إلى الرياضة الروحية ، وهم
قوة هائلة يحسب لها ألف حساب ، فمن الحزم وحسن التدبير أن
نقربهم بشتى الوسائل إلى بيوت الله .

إن الموسيقى تعد أكبر جاذب لرواد الكنائس ، ونحن كما
نعرف لم نألف رنين الأوتار فى المساجد ، ولكن لدينا ما يغنى عنها :
لدينا تلك الأناشيد الروحية التى طالما هزت قلوب المصلين ،
وأنا أذكر أنك كنت تختار جامع قيسون لتسمع الشيخ عبد الشافى
ولعلك كنت تتأثر خطوات أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي إذ
كان يحب الصلاة هناك فهل تظن أن أولى الأمر فى وزارة الأوقاف
يفكرون فى إغناء المساجد بالقارئین والمنشدين من أصحاب الأصوات
٢٠ م - بد

الرخيمة ؟ وهل تقدر أن صلاة التراويح في رمضان تجد من الراغبين
 ما كانت تجد في سالف الأيام ؟

ستقول: إن الزمن تغير ، ولكنني أقول لك : إن الناس هم الناس
 ولا تزال أرواحهم في ظمأ تتلف إلى من يسكب عليها قطرة من
 عصير الاخلاص ، فمن للجماهير الاسلامية بمن يفكر في ردها إلى تلك
 الآفاق العلوية التي حرمت جلالها وبهاءها منذ هجرت البيوت
 والمساجد ولجأت إلى القهوات والحانات

لقد أ كثر الناس من مطاردة الصوفية ، ولهم بعض العذر ،
 فقد كثر أدعياء التصوف حتى أفسدوا ما كان له من رونق وجلال
 ولكن هل من العدل أن ننسى أن الصوفية كانوا أخبر الناس بسياسة
 الجماهير ؟ إن الصوفية هم الذين حفظوا تراث الأولين ، وادعوا بين
 أتباعهم ومريديهم فكرة الحق والخير ، وحببوا اليهم التحلي بمكارم
 الأخلاق

وقد تقلص ظل الصوفية من أ كثر الاقاليم ، أفندرى ما الذي
 حل بالاهلين ؟ لقد شاعت في الارياف بدعة فتح القهوات ، وصار
 الفلاح يعرف كيف يمسك (الجوزة) وكيف يتحدث عن المخدرات
 وكان منذ أعوام يخرج من منزله فيصلي العشاء ويقرأ الاوراد ثم
 يعود إلى بيته في طمأنينة وسلام . فأى الحالين خير ؟ وأيهما أجدى
 في حفظ الصحة والعرض والمال ؟

لقد فكرت وزارة الاوقاف أخيرا في تعيين طائفة من الواعظين

وإني أؤكد لك أنها لاتفهم جيدا خطر هذه المهمة ، فان كبار الاشياخ يظنون أن الامر لايزيد عن إيجاد مرتزق للعلماء ، ولو أنهم عرفوا أن الواعظين يستطيعون أن يشغلوا الناس بأنفسهم ويحملوهم على التفكير في معاشهم ومعادهم ؛ لرأينا لتلك الحركة الطيبة بوادر قوة ونهوض

أليس عمل الواعظين في جوهره يرجع إلى إيقاظ ما خمد من النفوس ، وبعث ما اندثر من حرارة القلوب ؟ فأخبرني إذن أين المؤلفات الجديدة التي تصلح للجماهير أهل الريف ، والتي تبث فيهم الثقافة الاسلامية بلا مشقة ولا عناء ؟

إن الوعظ لاتظهر ثماره إلا إذا رأينا الاهالى في شغل بصقل أخلاقهم ، وإحياء ضمائرهم ، وتعهده أنفسهم ، وصيانتها من الكذب والغش والبهتان ؛ وتلك مهمة شاقة لا يكفي فيها ذلك العدد الضئيل الذي عينته وزارة الاقاف



بقيت مسألة أحب أن أعرضها عليك ؛ هنالك كما تعلم أنواع من التسهيلات يعطاها الموظفون بسبب الفرائض الاسلامية . فهل ترى من الذوق أن ينتفع الموظفون بتلك التسهيلات دون أن يقيموا وزنا للفرائض ؟

هنالك التخفيف الذي يمنحه الموظفون في شهر رمضان . فهل

من الذوق أن يستهين بعضهم بكرة شهر الصوم ويتمتع في مكتبته بالقهوة والدخان ؟ إن هؤلاء بين اثنتين ؛ إما أن يحترموا الصوم وينتفعوا بالتخفيف ، وإما أن يحضروا إلى مكاتبهم في الساعة الثامنة صباحا ولهم ماشاءوا من القهوة والشاي والدخان . أما هذه الوقاحة الاجتماعية فشيء تضيق له الصدور !

وكنت أحب أن أعرض للعطلة الظريفة التي يتمتع بها موظفو دار الكتب المصرية يوم الجمعة ، والتي تحرم الجمهور من المراجعة نحو ثلاث ساعات ، كنت أحب أن أعرض لهذا ، ولكنني أعرف أن موظفي دار الكتب أكثرهم أشياخ يحرسون على أداء الفريضة وليس فيهم رجل واحد يدخل في زوايا القهوات فرارا من الصلاة !
اقرأ هذا ياسيد أحمد وتأمله ، ولا ترم أخاك بالجمود فإني لأحِب أن تغفو الديار المصرية من تقاليد الحميدة ، لتصبح وليس لها ماتأدب به إلا الروايات السخيفة يمضغها الشبان في الغدو والرواح وقد بينت لك أن أوربا لم تكفر حتى يطمئن إلى الكفر من يقلدونها في كل شيء ، إن أوربا هي هي في روحها وصميمها ، وكل ما سمعنا عنها من أخبار الهزل والبطالة والمجون لا يمثل إلا جانب صغيرا لا يستطيع البقاء إذا جد الجد وجاء يوم النضال

على أن أوربا تعذر إذا لمت ولعبت فأولئك قوم كادوا ينجون من الجسد والنشاط ولا بد من الاستجمام ، أما نحن فما عذرنا وقد أقبلنا على الشهوات دون أن يكون لنا بين الحازمين مكان

إنه لا مانع من محاكاة أوربا في لهوها ولعبها ، على شريطة ان
 يكون لنا ما لها من مغارم المجد ، وأن نشقى كما تشقى في خلق أسباب
 الظفر والقوة ، وأن نقاسمها الجد في السيطرة على أقطار الأرض
 وممالك الهواء

والسلام عليك يا صديقي وعلى من لديك من أفاضل الزملاء

٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٠

ليلة وليلة

أزهري يصف المرقص

رأى الكاتب المرقص الحديث لأول مرة وهو شيخ يلف على رأسه العمامة
 ويرتدي الجبة والقفطان ، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩٢٢ فكتب في وصفه
 هذه الرسالة الساذجة التي تمثله وهو يفتح عينيه على فن الوجود في دهشة وانجذاب

صحبت عفريت الليل ^(١) « الى حفلة راقصة في مصر الجديدة ،
 وكنت مدعوا لهذه الحفلة كما دعيت لأختها من قبل في شارع عماد
 الدين ، وقد غالبت حيائي عند إجابة الدعوة الأولى ثم غالبته عند
 إجابة الدعوة الثانية : وخلقت لنفسى ماشاء الهوى من شتى المعاذير !!

(١) هو لقب الصحفي مصطفى اسماعيل القشاشي وكانت مشاهداته

وإني لمحدثك عن المرقص الأول والمرقص الثاني ، تلبية للصديق العزيز عفريت الليل ! ولكني أتقدم هذا بأبلاغك ماجال في خاطري عند تسلم بطاقة الدعوة ، فقد أعرف أني شيخ وأعرف أني في نفسي من حماة الدين الحنيف ، والله عليم بذات الصدور ، ولكني تذكرت بجانب ذلك أني صحفي ، وأن المهنة تقضى على بارتياح مواطن الشبهات ، ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس ، ولأقابل بين ما أراه على لوح الوجود وما أراه على لوح التاريخ !! وعندى أن الصحفي كالطبيب : فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ما تستر المرأة ليقف على موقع الداء يجوز للصحفي أن ينظر أغرب ماتكتم الأمة ليقف على موطن الداء . ولا فرق بين هذا وذاك . إلا أن الطبيب يعالج الجسوم والصحفي يعالج العقول . فمن الجنائية أن يتورع صحفي أو طبيب عن الوقوف على مواطن الأشياء . وهو عن فهمها مسئول !

وتذكرت أني كاتب ، والكاتب كالمصور ، لاغنى له عن رؤية كل مكنون ، وإن يعذره أحد إذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة والعجائب المكنونة بحجة الدين والأخلاق ، لأن الفنان لا دين له إلا في قرارة نفسه ، ولا خلق له إلا في أعماق ضميره ، وهو غالباً فاسق النظر فاجر البيان !!

ولئن جاز للطبيب أن يحجم عن إسعاف المريض إشفافاً على نفسه من رائحة الجراح القديمة ، فقد يجوز للكاتب أن يحجم عن

تعرف داء الأمانة رفقا بنفسه من مطالعة آثار الرذيلة، ولكننا نعرف
 أن الطبيب يجرم أفعل جرم إن نفر من رائحة الجروح، وليس
 جرم الكاتب بصغير إن نفرته مناظر الفاحشة عن درس الأصول
 الأولى للفاقة والبأساء، وكما أن الطبيب يمضى في العملية الجراحية
 غير حاسب أى حساب لما يسديه اليه المريض من الشتائم كلها آلتهم
 المشارط، فان الكاتب الخاص يضع (سمعته) نهبة لشتائم الصارخين
 من مرضى النفوس، وكلما ألمهم قلبه فسبوا وشتموا تذكر أن القلم
 فى يده كالمبضع فى يد الطبيب، وأنه يجب أن ينسى نفسه، وأن
 يعرف أن عدوه هو المرض الذى يحاربه فى شخص المريض، وأن
 هذا المسكين لا يشتمه بصدق، وأنه سينظم له عقود الثناء بعد
 ذهاب الداء



كانت الليلة الأولى فى شارع عماد الدين، وكانت الليلة الثانية فى
 مصر الجديدة، وكنت فىهما ذلك الفارسى الذى تخيله (مونتييسكيو)
 يجوس خلال باريس، فينكر الناس ماله من زى غريب، وينكر
 ما للناس من خلق غريب!

دعانى للمرة الأولى حسن افندى فائق لاسمع أنشودته فى صريع
 الكوكابين، فأجبت الدعوة كارها غير طائع، ولم أكأ أدخل
 الملعب حتى التهمتني العيون، فمن قائل جاء ليلقى عظة فى النهى عن

الموبقات ، ومن قائل يا عجباً للهو لم ينبج من عدواه المعممون !!
فصحت فيهم إنما جئت لمقابلة حسن افندى فائق صاحب أنشودة
«شم الكوكابين» !! فتقدم إلى بعض العاميين في المسرح وقال : لقد
انصرف حسن افندى ، وقد يعود بعد قليل ، فان شئت شربت
فنجانا من الشاي وانتظرت حتى يعود ، وكانت الليلة شاتية ، وكان
الشاي فيها خير مشروب فأخذت أتخير مكانا بعيدا عن «همسات»
الحاضرين وغمزات الحاضرات !! وماهى إلا لحظة حتى صرخ صارخ
«اضبط ! هذا صاحب مدامع العشاق !» فالتفت فاذا عفريت الليل
عن يميني ، وابن الهوى عن شمالي ، كأنهما منكر ونكير ، أورقيب
وعتيد ! قال عفريت الليل : من أتى بك ههنا ؟ فقلت وأنت من أتى
بك ههنا ؟ قال ، أنا صحفى أحرر جريدة أسبوعية ! فقلت وأنا صحفى
أحرر جريدة يومية ! فما لك تشاركنى فى الفعل وتفر دنى بالعجب ؟
ثم دعانى إلى تناول الشاي معه فى مكان من الراقصات قريب !

جلسنا نتحدث ، ولكنى منحته أذنا غير واعية ، وأقبلت
بسمعى وبصرى وقلبي على تلك القطع المختارة من شعر الوجود ،
فان النساء يا صاح قصائد مسطورة فى سجل الحياة ، وأصحاب المراقص
يتخيرون من هذه القصائد أعلقها بالنفس ، وألصقها بالقلب ، وقد
خيل إلى ساعتئذ أنى لم أحضر إلا لدرس هذه الطرف البديعة لأتبين
السرى فى «ضلال» من فتنته الحدود ، وسحرته العيون ، ولأعذر
قتلى الحسن ، وصرعى الجمال !

رأيت من بين الراقصات فتاة فرنسوية ، وأخرى إسبانية ، وثالثة
مصرية ، وقد رأيت الفرق واضحة بين هؤلاء الأوانس ؛ وأظهر
ما يكون الفرق في الحركات ، فللفرنسيويات والاسبانيات حركات
في الرقص تشبه حركات الجنود في ميادين الحروب ! ولا هم لهؤلاء
الفتيات حين يظهرن على المرقص إلا أن يبهرن الأنظار بخفة الحركة
وسرعة الدوران ، في حين أن الراقصة المصرية لا هم لها إلا لفت
الأنظار إلى خصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وخدها الأسيل
وطرفها الكحيل ؛

ترنو فتقلب القلوب للحظها مرضى السلوصحائح الأوصاب
ويحسب الرأى رقص الافرنج نوعا من الألعاب الرياضية ، إذ
يرى الراقصات يتشن بسرعة كائنهن ثعابين ، ويختفين بسرعة كائنهن
شياطين ! ولا تكاد الراقصة تبدو حتى تختفى فيحسب مثل أنه كان في
حلم وأن ما رآه طيف خيال !! ولا يكاد الملعب يخلو من تلك الغادة
اللعب ، حتى يقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : أى شمائل
هذه الغادة أروح للنفس وأمتع للعين ؟ فمن قائل شعورها الذهبية
ومن قائل حدودها الوردية ومن قائل ثناياها اللؤلؤية ، ويسألنى
(عفريت الليل) ما رأيك في هذه الفتاة ؟ فأعذر ، فيعيد السؤال
فأكرر الاعتذار ، فيلح ، فأقول ويحك لم أر منها شيئا ، لقد مرت
كالبرق الخاطف ، فان شئت هاتها بين يدى ، أتأملها قطعة قطعة ، كما
أتأمل القصيدة بيتا بيتا ، وكما أتأمل الرسالة فقرة فقرة ، وكما أتأمل

الكتاب بابا بابا، ثم أحكم أى ملاحظتها أحق بأن تسهد من أجله
العيون، وتعذب فى حبه القلوب!!

أما الراقصة المصرية فهى ملك كل عين، وطوع كل قلب، إذ
تخطر فى المرقص، وكأنها الغصن الرطيب، يعث به النسيم العليل،
تقبل فاذا هى هيفاء، وتدبر فاذا هى عجاء، وترنو برفق إلى كل
ناظر، فيحسب كل امرئ أنه مرمى طرفها الناعس، ومهوى قلبها
الخافق، فيمسى وهو صريع!! وقد تنغى وهى ترقص، فيروقك
ما تسمع وما ترى، حتى لتحسب أنها آلة موسيقية، صورت من ماء
اللؤلؤ، أو صيغت من نهود الكواكب، ثم تثوب إلى رشذك، فتذكر
أن هذه ليست آلة موسيقية، بل هى إحدى اللواتي كان النيل يغضب
قدما فلا يرضى حتى يضم إلى صدره واحدة منهن مفلجة الثغر،
وضاحة الجبين!!

حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمرًا
تنسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا
وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبًا وعطرا
وكانها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
وتطيل الراقصة المصرية فى الثنى، والتغنى، حتى تهيج المشاعر
والحواس، وحتى يقبح الهدى، ويحمل الضلال، ولا كذلك.

الراقصة الافرنجية ، فانها تخطف البصر ، ثم تغيب . وقد تنغى
ولكنها تقتصر من الكلمة على حرف واحد ، ومن القصيدة على
بيت واحد ، ثم تفر قبل أن تنقع الغليل !!

كيف السبيل إلى اقتناص غرائر يدمى بأسهم لحظها القناص
بيض السوالف عذبة أفواها ربا الروادف والبطون خاص
يجرحنا بنواظر ما إن لنا منهم عند جراحهن قصاص
ولم أجد هذا الفرق البعيد بين الراقصة المصرية والافرنجية
إلا في مرقص عماد الدين ، ففيه تظهر الفوارق بين النزعات
الشرقية والغربية . وكل حزب بما لديهم فرحون !



الليلة الثانية

أما مرقص مصر الجديدة - ويأويلتاه من مصر الجديدة - فهو
خاضع للبدعة الفرنسية ، لا تكاد الموسيقى تصدح حتى تنتظم العذارى
كأسراب الحمام راقصات شاديات !

من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها
فهى حسب العين من نزهتها وهى حسب الأذن من مطربها
تشرع الألاحظ فى وجنتها فتلاقى الرى فى مشربها

وإذا قامت إلى ملعبها كهة الرمل في ربربها
 سألت أعطافها أردافها هل رأت أوطأ من مركبها
 وكان الحسان في هذا المرقص ، لا يستطعن الرقص منفردات
 وكان أقدامهن الصغيرة ، لا يستطعن حمل أردافهن الوثيرة ! فلكل
 فتاة فتى يطوق يميناه خصرها النحيل ، ويسند يسراه خدها الأسيل
 ثم يسير بها ضاحكة الشجر ، ناعسة الجفون . وكل في فلك يسبحون !!
 ياليت شعري وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
 لأى أمر مراد بالفتى جمعت تلك الفنون فضمتن أفنان
 تجاوزت في غصون لسن من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
 تلك الغصون اللواتى فى أكتها نعم وبؤس ، وأفراح وأحزان
 ومن عجائب ما يبنى الرجال به مستضعفات لهم منهم أقران
 مناضلات بنبل لا تقوم له كتائب الترك يزجهن خافان
 يارب حسانة منهم قد فعلت سوءا وقد تفعل الأسواء حسان
 تشكو الحب وتلقى الدهر شاكية

كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان
 وهذا المرقص ملقى الحب والمحبوب . وليس العاشق فى حاجة
 إلى أن يكون كائن المعتز حين يقول :

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكم سرا
 إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا
 فظن يؤدى ما يقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا

بل يكفي ان يتخذ له سحنة صناعية ، وأن تضع المعشوقة خرقة
سوداء على وجهها المشرق الجميل كما يحجب البدر بالسحاب ، أو كما
تحجب الشمس بالضباب . ثم يتلاقيان : فلا يعرفهما رقيب ولا
يشعر بهما حسيب !!

وربما نظر امرؤ إلى فتاة فاطلع منها على كل مغيب مكنون
«إلا الوجه الكريم» فتبعته نفسه ، وعلق بها فؤاده ، وقد تكون أخته
وما يدرى !! لأن «أقطاب» هذا المرقص يبدلون خلق الله ، فيلبس
الأمرد لحية بيضاء أو زرقاء وتتخذ الفتاة لوجهها من سود البراقع
ماتشاء ، وما ضر الفتى والفتاة أن تحجب من وجهيهما آثار الجمال
مادام الخصر على الخصر والساق على الساق ! *إلى ربك يوشك المساق*
ولو كنت معنا هناك لفزت فوزا عظيما فقد حشرت في تلك
البقعة فنون الملاحة وألوان الفتون . كما تحشر ضروب السحر في
الطارف الغضيض ! وكان (عفريت الليل) يوصيني بوصف تلك الليلة
قبل أن تعزب عن البال ! رويدك يا صاح ! وكيف تنسى ليلة هي
أنموذج لنعيم الجنة دار الخلود ! وهل أنسى أني ما نظرت أمامي أو
عن يميني أو عن شمالي إلا رأيت الحسن مشورا ثثر النجوم الزهراء
في القبة الزرقاء ، أو ثثر الزهور البيضاء في الروضة الغناء ؟

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود
في حلتى جبر وروض فالتقى وشيان وشى ربي ووشى برود
وسفرن فامتلاّت عيون راقها وردان ورد جنى وورد خدود

وضحك فاعترف الأفاقي عن ندى

غض وسلسال الرضاب برود
ولحظة واحدة ، في تلك الجنة العالية ، تنسيك الدين والأخلاق
ويكذب ثم يكذب من يزعم أنه لم يحسد أولئك الذين أنعم الله
عليهم فحاصروا من يعشقون على مسمع من الرقيب ومرأى من
الحسود !!

ألا ليقل من شاء ماشاء إنما يلام الفتي فيما استطاع من الأمر
ولم يكن الحسن في ذلك المرقص قاصرا على الراقصات . فقد
كان الفندق يموج موجا بالرائحات الغاديات

من كل ضاحكة الترائب أرهفت إرهاف خوط البانة المياس
فاذا مشت تركت بقلبك ضعفما بحليها من كثرة الوسواس
وما زلت أحرق عيني في كل رائحة وغادية حتى تألمت عيناى
فكأنما أطالع ذكاه في كبد السماء ، وكنت كلما بهرتى الثغور الضواحك
وأسرتى العيون الفواتك ، أفكر في جنابة الجمال ، على عشاق الجمال
وعلى أهل الجمال . ثم أفكر في فضل الجمال ، على أعداء الجمال : ففي
العالم مئات الألوف من القسيسين والرهبان والعلماء تصرف عليهم
المرتبات لأنهم يقلون الخطب الرنانة في ذم الجمال ، وأهل الجمال ،
وعشاق الجمال !!

مر بخاطري ذلك وأنا في فندق هيلوبوليس فعرفت أنه كلما
وجدت الرذيلة ، وجد موجبا للدعوة إلى الفضيلة ، ووجد الوعاظ

ما ياً كلون . ثم استسلمت إلى التفكير العميق !!
والآن في الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد مضى على تلك الليلة
ست ليال ، أفكر من جديد في جنابة الجمال ، على عشاق الجمال ،
وعلى أهل الجمال ، ثم أطيل التفكير في فضل الجمال ، على أعداء
الجمال !!

تعرض رسل الشوق والركب هاجد
فتوقظني من بين نواهم وحدي
وما شرب العشاق إلا بقيتي ولاوردوا في الحب إلا على وردي

الازهر الشريف

— ١ —

في نهاية السكة الجديدة ، من الناحية الشرقية ، على يمين السائر
حارة ضيقة توصل إلى مسجد جامع عتيق : هو الأزهر الشريف
لاخلاف بيني وبين أهل مصر ، في أن هذا هو الأزهر . فقد
زاره بعضهم لطلب العلم وزاره آخرون ابتغاء الاستطلاع . ومن
لم يره منهم لا يحجل أنه في هذا الموضع وعلى تلك الحال
ولكنني على يقين من أن الأجانب في شك منه ، فأنهم يسمعون
في بلادهم أن الأزهر أكبر الجامعات الشرقية ، ومن أعظم المساجد

الجامعة الاسلامية، وأنه إن لم يكن أجمل مكان في الشرق فهو جدير
 بعناية الأمراء ، ورعاية العظماء ، فلا بد أن يكون قريبا من جامعات
 برلين ومدارس مونيخ ، وما إلى ذلك من تلك المعاهد ، التي
 ورثت عن منشئيه العلم ، وتلقّت عن مبدعيه البيان

لا يهمني أصدق الأوربيون أن هذا هو الأزهر إيماننا باغفالناله
 وانصرفنا عنه ، أم حسبوه مكانا غير هذا المكان ولو في سماء الخيال
 ظنا منهم أن المصريين أكرم من أن يهملوا مسجدا جامعاً مثل هذا
 المسجد الجامع وأجل من أن يغفلوا معبدا كهذا المعهد

نعم لا يهمني ذلك لأنني لأشك في أن هذا هو الأزهر الذي
 نفتخر به ، ونغضب له ، وإن كنا عنه معرضين

تدخل في هذا المسجد الجامع فلا يروقك فيه شيء ، أرض
 منخفضة وسقف غير مرفوع ، وأعمدة قصيرة كأعمدة المقابر ،
 وحيطان قائمة ، كحيطان الأجداث ، ونوافذ بخيلة بالضوء ضئيلة بالهواء
 ومصاييح ضئيلة ، لا تقتل الظلمة ، ولا تكشف الغمة ، وهو أحوج
 إلى أكبر منها في النهار المبصر . فكيف به في الليل المظلم ! لا فرش
 له إلا الحصير الممزق والتراب المسكس . والناس فيه ما بين أمل
 غير واجد ، أوزار غير حاصد ، لا طمع لهم في مناصب الحكومة
 ولا أمل لهم في إسعاد الأمة ، وقد يشوا من إنصاف الوزراء
 وإنجاد الأمراء

ثم تراهم لا يصدقون أن لهم شيوا يعطفون عليهم ، أو رجالا

يرأفون بهم، فهم لا يعرفون آباء غير آبائهم، ولا أعماما غير أعمامهم
وكذلك ينكرون جميعا قول الشاعر:

أقدم أستاذي على نفس والدي

وإن نالني من والدي العز والشرف

فذاك مربى الروح والروح جوهر

وهذا مربى الجسم والجسم كالصدف

إنهم لا يعرفون هذا الشعر، لأن الشيخ الذي سلف، والشيخ
الذي خلف، لم يرفعا عنهم شيئا من الضر، ولم يسوقا إليهم نوعا
من الخير، فهم اليوم مثلهم بالأمس، أكثر شقاء وهما، وأكبر
عناء وغما، لأنهم يرون الناس في تقدم ويرون أنفسهم في تأخر
ويرون المدارس يعمها العدل، والأزهر يخصه الظلم، ثم يرون لكل
شهادة أثرا في الحياة وقيمة في الوجود ويرون شهادتهم ورقة لا
كالورق فهي مزينة ولكن بالمواعيد الكاذبة ومزخرفة ولكن بالإيمان
الحائثة، حتى كأنها قطعة من معاهدة الصلح لا يضمن لمن أنصفته
سلام ولا يرجي لمن نصرته قيام، وكأن مجلس المشيخة هو
مجلس الشيوخ، وهم قد شبعوا من المجد الموهوم، والشرف المعدوم
فما عادوا يصدقون بأن شهادة الأهلية أو شهادة العالمية حرز من الفقر
وأمان من الدهر

ثم هم فكروا طويلا في انتسابهم إلى الأمة المصرية والسلالة

العربية ، ولولا أن الأجانب يصفو عيشهم على ضفاف النيل ، وفي
سفح الأهرام ، لظنوا أنفسهم من الجاليات الأوربية أو الأمريكية
وقد بحثوا كذلك في سبب شقائهم ومصدر بلائهم فلم يهتدوا
إلى موجب صحيح أو داع معقول . اللهم إلا حياء ظنه الناس من
الجن ، وحلما حسبه من الذلة ، وهم لا يستطيعون أن يرجعوا ذلك
إلى جهم للوطن ، وعشقهم للحرية ، وبغضهم للظلم ، فإن ذلك مشترك
بين عامة الناس وشائع في كافة الأجناس

فلم يبق إلا أن يكون الأزهر شقيق الهم ، وحليف الغم
لا يدخله امرؤ إلا تقوس ظهره ، وتقوض عمره ، ولا يفزع إليه
فتى إلا تززع كيانه ، وتضعضع بنيانه

وهو بفضل إغفال الحكومة جدير بأن يقتل كل شاب تضمه
جدرانها ، ويذهب بكل بصر ينظر فيه صفحة من كتاب ، أو فقرة
من خطاب ، وكذلك لن يزال بفضل الشيوخ ، مبعثا لظلم
العواطف ، وقتل المشاعر ، يقرأون فيه العلم ، فيتعرفون به الظلم
ويتدارسون فيه أخبار الأسلاف ، فيثنون من جور الأخلاف
كانت مدة الدراسة في الأزهر الذي وصفناه اثني عشر عاما
فرأت المشيخة أنها لا تكفي لتضييع العمر ، وتقويس الظهر ، فزادتها
أعواما ثلاثة ، فصارت خمسة عشر

من هذا يشكو إخواننا طلبة الأقسام النظامية ، في المعاهد
الدينية ، وقد رأيت لجتنا الجديدة ، أن لاتام لها عين ، ولا يهدأ لها

قلب حتى ترجع المشيخة عن هذا القرار الظالم ، والله في عون العبد
 مادام العبد في عون أخيه

— ٢ —

إن طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة : فهم في سنى
 الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة
 ثم إذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل والهم الجزيل
 دخلوا في حياة لاحظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، في
 ميدان كله رماح طوال ، وسيوف صقال ... وهل بعد ذبول
 الأغصان ، وكلال الأجفان ، وتقوس الظهر ، وتقوض العمر ،
 غرض يرجى نواله ، أو هم يبتغى زواله !

هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا يملأون البلاد علما وحكمة لو
 أتيح لهم التغلب على مصاعب النظام القديم والحديث . هؤلاء
 هم الأزهريون الذين كانوا مادة الحياة العلمية في عصر الظلمات ، وهم
 أصل النور في هذا العهد الجديد ، هؤلاء الأزهريون ينادون بملء
 أفواههم : أن خذوا بيدنا أيها القائمون بالأمر ، فلا يسمع لهم أحد !
 ولكن أيغلب اليأس الرجاء ، ويغدو الأمل صريع القنوط ؟ إن
 هذا البعيد .

— ٣ —

نقول الآن — وسنظل على هذا الرأي حتى حين — إن النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهريين فى الزمن القديم أو الحديث ، ليس أثراً من آثار الادارة التى تولاها زعماءه الأقدمون أو المحدثون ؛ ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هيات لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية ، وأن يشاركوا جمهور المبدعين فى العلم والأدب ، وأن يتركوا لأنفسهم أثراً يذكر به فى العالمين .

فان كنت فى شك من صواب هذا الرأي ؛ فاقراً إن شئت تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده ، وانظر كيف تأثر بالتعاليم الحديثة حتى صار علمائهم يندى به ، أو احضر دروس الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى لترى كيف استعان الفلسفة الحديثة ، لفهم الفلسفة القديمة ، أو خالط النابغين من علماء الأزهر الآن ، فانك لن ترى نبوغهم مصبوغاً بصبغة العلوم التى يتلقونها فى ذلك المعهد القديم ، بل تراه مطبوعاً بطابع الزمن الذى يعيشون فيه ، والذى كان يجب أن يكون التعليم فى الأزهر مصبوغاً به ، ومطبوعاً عليه ، لو وجد هذا المعهد من يعنى به من زعماء الإصلاح

فى الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض ، تراهم إذا زرت

الجامعة المصرية ، أو مدرسة الأزهر الفرنسية ، تراهم فلا تشعر بغير
الاعجاب بهم والاعظام لهم ، ولكنك تشعر بعد ذلك بكثير من
الآلم الممزوج بالاشفاق: إذا قيل لك إن هؤلاء قد يحسبهم زملاؤهم
وأشياخهم غير مهتدين !!

وقد زعمت ليلي بأنى فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها
هؤلاء الشواذ — فيما يرى بعض الشيوخ — هم زينة الأزهر
في القديم والحديث ، وهم الذين اضطروا القائمين بالأمر في المعاهد
الدينية إلى ان يتأملوا قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « علموا
أبنائكم فانهم خلقوا الزمان غير زمانكم » وهم الذين تذهب نفسهم
حسرات كلما رأوا وقوف الأزهر عند مبدئه العهد ، وشهدوا الزمن
يمشى بأهله إلى ذرى المجد الشاخب - ألا إن التقدم حركة ، فويل
للواقفين !

كل مافى الأزهر من علم وكل مافيه من أدب ، إنما هو من آثار
الذكاء الذى قبره الزمن فى تلك البقعة المحجوبة عن النور والضياء
وليس لتلك الادارة المهذمة الجوانب غير ما نراه من عموم الجود
وشمول الخمود ! فمتى يبعث الله لهذا البيت العتيق من يأخذ بيده من
تلك الهوة التى تردى فيها بفضل ما لأبنائه من عقوق ؟ ومتى يتحقق
الآمل فى عشرين ألفا من الرجال ، قضى عليهم الجد العاثر والنجم
الآفل ، أن يكونوا وقوداً للهبب الهمجية ؟

اللهم غفراً !! يزهر العلم فى كل باد ، ويتقدم أهله فى كل قطر

ويكون حظ الأزهر من بين جامعات العالم كحظ مصر من بين الأمم . ثم يعيش الأزهريون عيشة النائمين : لا هم أحياء فينتفعوا بما في الكون من مظاهر الحياة ، ولا هم أموات فيحفظوا بما بعد الموت من نعيم !

تلك آمالنا قضى عليها الإهمال ، وهذى آلامنا يضاعفها إصرار (المصلحين) على دفننا أحياء في تربة اليأس القاتل ، ولكننا سندفنهم بحول الله فيما ندفن من بقايا الخنول ! فهل أدلكم على سبيل النجاة أيها الرفاق المتألمون ؟

عليكم بالنظر في كتب المتقدمين من الشرقيين ، والمتأخرين من الغربيين ، ثم اتركوا الحشالة التي جاءت بين هذين العهدين لحضرات الزاهدين في التجديد ، إنكم إن فعلتم ذلك ظهرتم عليهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

— ٤ —

لقد آن للامة المصرية أن تنظر في نظام الأزهر ، وحياة الأزهريين فانه لم يبق شيء من خرافات العصر المنصرم ، يوم كان الناس يظنون أن الأزهر باب الرحمة ، ويوم كانوا يحسبون أن الجلوس في حلقات العلم ضمان من الفقر وأمان من النار ، ويوم كان العامة ينسبون لشيخ الجامع حركات الأفلاك ونظام الكواكب كل ذلك قد تبدل ، وأصبح الناس أمام أمر واقع ؛ وهو أن الأزهر

معهد علمي يجب أن ينال من الأنظمة النافعة ما يضمن له البقاء والثبات.
 جالس من شئت من العلماء، وحادث من أردت من الطلاب
 فلن تجد غير اليأس القاتل، والهم الشامل، ولن ترى لهم من أمل
 في غير الحياة الثانية وهم الذين خلقوا ليكونوا زينة الآخرة والأولى
 هل تفضل المشيخة الجليلة فترينا قائمة الأعمال التي أصلحت بها
 نظام الأزهر في العهد الأخير؟ وهل يتفضل القائمون بالأمر
 فيفصحو لنا عن نياتهم في الإصلاح المنشود؟ وهل هم جماعة منهم
 بدرس نظام الجامعات حتى يعرفوا ما هم عليه، وما يحتاجون إليه؟
 وهل راقبوا الله في النفوس التي قضى عليها أن تكون تحت إدارتهم؟
 وهل فكروا في نتائج التهاون الذي يرتعون في أرجائه الفسيحة؟
 ثم هل أن لهم أن يعرفوا أن الأزهر إنما أنشئ ليكون مصدراً
 للسعادة لا منبعاً للشقاء؟!

أبرو قكم أن نحسبكم مشغولين بما أسبغ الله عليكم من النعمة
 كما يتحدث بذلك من يتأمل في حاضر الأزهر وماضيه؟ فهل أتم
 ناظرون فيما منى به هذا المعهد من التأخر والانحطاط؟ وهل تبيض
 وجوهكم أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ بما تعزمون المضى فيه
 من إلحاق الأزهر بالجامعات التي سامته فيما سلف حتى سمت
 عليه؟ وهل نجد في المستقبل الباسم، ما ننسى به هذا الحاضر
 العابس؟

لقد طفح الكيل، وأغرقت الأمانى في بحور اليأس، وأصبح

الأزهريون وكأنهم من أمة غير هذه الأمة ، وقطر غير هذا القطر
وإلا فلماذا يحرمون وحدهم مما يتمتع به غيرهم من الأمل الضاحك
والعيش النافع ؟

هذه كلمات نكتبها ونحن آسفون ، وكنا نود لو أن شيوخنا
أغنونا عن التفكير في غير العلم ، ولكنهم أرادوا ألا نقرأ صحيفة في
كتاب إلا ونحن محزونون ، وأن لا نخط سطرأ في صحيفة إلا
ونحن متألمون !

فيا رب هل إلابك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

— ٥ —

رغب المسيو فرناند فور الأستاذ بجامعة باريس ورئيس الجماعة
التي استقدمت لامتحان الحقوق الفرنسية بمصر أن يزور الأزهر
الشريف فسألني حضرة أستاذي المسيو باباني المحامي ان أرافقه في
هذه الزيارة فقبلت ذلك ، واقترحت تأخير الزيارة أسبوعا حتى يعود
الطلبة إلى الدروس وكانوا إذ ذاك في مساحمة المولد النبوي وحددنا
للزيارة يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٠ في اليوم الثاني من عودة الدراسة
وكننت أظن أن الدروس إن لم تكن تكملت في اليوم الأول فلا
بد أن تتكامل في اليوم الثاني ولكن خاب هذا الأمل وتبين أن
الأزهر لا يزال مطلق العنان وأن الطلبة إلى الكسل مخلدون !
دخلنا الأزهر بعد الظهر ، ثم مشينا معا بعد أن تبودلت التحيات

بين القادمين والمستقبلين . وكنت عازمت أن أتأمل نظرات هؤلاء الزائرين لهذا البيت العتيق عساني أعرف ما نحن عليه ، وما نحن في حاجة إليه ، ولكنى لم أمش بضع خطوات حتى خيل إلى أن هذا المعهد بقية من بقايا العصور الذواهب ، وأنه يجب على أن أفهم هؤلاء الناس أن الجامع الذى يحوسون خلاله ليس معهدا للعلم ولا مسجدا للصلاة ، ولكنه طريقة عادية (أنتيكة) يؤمها المتشوفون لآثار الزمان الغابر !

وما ظنك أيها القارىء بمسجد ليس فيه من الحصر ما يقي الجالسين عنت الرطوبة التى تكمن فى مثل هذا المكان الذى ينخفض عن الشارع مترين فى بعض نواحيه ؟ وماذا عسى أن أجيب به هؤلاء الزائرين إذا قال قائلهم : ما بال طلبة العلم عندكم يجلسون على الحجر العارى من الغطاء ؟ وكيف أصبر على نظراتهم إلى الطلبة الذين يتململون من قسوة المكان الذى يجلسون فيه ساعات وهو قاتل ؟ وكم تمنيت وقتئذ لو أن أعضاء المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية حضروا هذه الزيارة الجميلة ، ليشرحوا هؤلاء الأجانب السبب فى جعل الأزهر مقبرة لطائفة كبيرة من الطلاب ! ولعل منهم من درس فى الجامعات الأوربية أو الأمريكية ، ورأى فى أبهة تلك الجامعات ما يصرف الطلبة عن العلم الصحيح ؛ فيبين للزائرين فضل الخشونة على العلم ، ويكشف الغطاء عن الصلة بين الظلمة التى تغشى جوانب الأزهر ، وبين نور العلم الذى يهديه للناس !!

هاتوا شبابي أيها الرؤساء ، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء !
هاتوا أُملي فقد ذوت أغصانه في ذلك البيت العتيق !
كانت هذه الخطرات تمرح في ثنيات نفسي وأنا أصحب أولئك
الزائرين ، وكنت كلما غلب على الخجل لبعض دلائل الإهمال ، أرفع
بصري إليهم وأقول بصوت خافت : « لقد فكر أولو الأمر في
إصلاح الأزهر وسيفرشونه بالأبسطة الفارسية بعد حين ! » غير
أن هؤلاء الفرنسيين على جانب عظيم من أدب الخطاب فكانوا
يقولون : « إن التجهيم الذي يستقبل به الأزهر زائريه قطعة من
جماله ، لأنه يمثل عهدا من عهود التاريخ »

مرحي مرحي ! يسركم منظر الأزهر لأنكم ترون فيه مظهراً
من مظاهر الحضارة القديمة ، وما يضيركم لو أصبح الشرق كله
رواية تاريخية تقرأون حديثها في كتب الغرب ، وتنتظرون
أشخاصها في مصر وفي فارس !!

— ٦ —

وإن تعجب فعجب قول بعض الأزهريين : اجتهد في أن تفهمهم
أن الأزهر أقدم جامعة علمية ، ألا فلتظمنوا - من هذه الناحية - فقد
أفهمتهم أن الحضارة الشرقية أصل للحضارة الغربية ، وأن الأزهر
مصدر العلم الذي ينعمون به الآن . . ولكن هل أستطيع أن أقول

لهم إن نظام الأزهر خير من نظام السوربون ، وإن الحصار الممزق
الذى يجلس عليه الطلبة هنا خير من الأرائك التى تتسكنون عليها
هناك ، وأن الأحجار المنشورة حول الأزهر يتعثر فيها الطلبة فى
الغدو والرواح ، أجمل من الحدائق المحدقة بالسوربون يشم شذاها
الطلبة فى الضحى والأصيل ، وإن الكتب المملوءة بالاغلاط والتى
ترد البصر وهو حسير ، أنفع من الكتب الممتعة النفيسة التى
يقرؤها الفرنسيون ، وهل أستطيع أن أقول : إن جامعة الأزهر فى
بؤسها الفتاك ، خير من جامعة باريس فى نعيمها المرموق ؟

حقا إن فينا من يقنع من المجد بالطلل الدارس ، والرسم
الطامس ، وفينا من يرضى باللفظ وإن باد معناه ، ويقنع بالاسم وإن
ضاع مسماه ! فيأرحمة الله لهذه الأمة الآفلة النجم العازبة الحلم !!

— ٧ —

مشينا ننظر ذات اليمين وذات الشمال ، لتبين فى وجوه
الطلاب دلائل الجد والنشاط ، وأنا أعلم أنه ليس للطلاب الأزهرى
مثل فى صبره على أعباء الحياة العلمية ، وكذلك راقنا منظر أولئك
الجادين فى البحث والتنقيب ، وسررت أن ليس هؤلاء الفرنسيين
معرفة باللغة العربية ، حتى لا يصح لديهم أن يكتبوا التى بأيدي
الطلاب تماثل ما فى شكل الأزهر من الغلظة والجفاء !

ولقد بدا لنا أن نزور دار الكتب الأزهرية ، وكانت الساعة لم تصل إلى النصف بعد الظهر ، فقوجدنا بأن المكتبة أغلقت ، وأن لا سبيل إلى زيارتها إلا في ضحي الغد ، فأخذت أفكر في أمر هذه المكتبة التي لا يتمتع بها أحد من الناس ، والتي تشبه دار الآثار في أن لا حظ لأحد منها إلا أن ينظر ما اشتملت عليه بدون أن تنالها يمينه ، أستغفر الله ! بل تشبه الرسوم الدوارس ، ليس للمرء من حظ إلا أن يعرج عليها في الغدو والرواح

— ٨ —

عدنا في اليوم الثاني مبكرين لزيارة المكتبة الأزهرية ، فدخل الزائرون وهم يتحرقون شوقاً إلى الوقوف على حركة التأليف عند العلماء ، وأخذوا يسألون عن الكتب القديمة والمؤلفات الحديثة ، فقلنا لهم : إن هذه المصنفات يغلب عليها القدم إلا بعضاً منها مثل كتاب التوحيد للاستاذ الشيخ حسين والى ، ولكن الأزهريين لا يعرفون شيئاً عنه لأنه في رأيهم قد خلع المسائل العلمية من المناقشات اللفظية ، وهم لا يزالون مضطرين إلى طرائق البحث القديمة ليجتازوا الامتحان !

وهنا أكل إليك أيها القارىء وصف ما يجده مثلى من الخجل في مثل هذا الموقف فقد تعرف أن الفرنسيين يعدون الكتاب

قديمًا إذا مرت عليه ست سنوات ، وهم لا يرضون عن العالم إلا إذا ترك ثروة علمية ، فأما علماء الأزهر فقلما يعنون بالتأليف ، وكذلك كانت المكتبة خالية من كل ما يصل بين الماضي والحاضر !

— ٩ —

كنت رأيت أن لا أتم وصف زيارة أولئك الفرنسيين للأزهر الشريف مجارة لمن يرون في هذا الوصف خروجاً على الأدب ومروفاً من الوفاء ؛ لولا أن لقيني بعض العلماء وشرح لي مافي التغاضي عن النقد من الفساد العاجل ؛ والكساد الآجل ، ورغب في أن أذكر هذه الزيارة بالتفصيل ، وأنا أذكر هنا ملاحظة واحدة وأعتذر عن البقية ؛ فان النفوس لم تنهياً بعد لأن تقبل كل ماينفع وتتجنب كل ما يضر . وخذ من جذع ما أعطاك !

كان هؤلاء الناس يسألون برفق عما لم يهتدوا إلى فهم معناه ، ولقد تعرف أن كل مافي الأزهر يستوقف النظر حتى كأنه كتلة من الغاز الحية لا يفهمها إلا من كتب عليه أن يكون جزءاً متصلاً بهذه الجماعة التي تتكون منها مجموعة الشقاء ، وكذلك كنت أعرف مواقع الألم من نفوس الأزهريين ، ومواضع العجب من أفكار الفرنسيين ، لأن التنافر ظاهر بين معاهد العلم هنا وهناك ، ولأنى أعرف الفرق بين حياتين تتفجر من إحدهما ينابيع الأمل الباسم

والعيش الوداع ؛ وتثور من أخراهما براكين اليأس والقنوط !!
 ما مررنا بدرس من تلك الدروس إلا وجدنا من بين الطلبة
 من هجم على رأسه الشيب ، وأنقض ظهره التقوس ، وآذن نجم
 شبابه بالأفول . ويكاد المسيو فور يتبين يده مارأت عيناه ثم يقبل
 على ويقول :

أصحح ما أرى من أن ثلث الأزهرين فارقوا سواد الشباب ؟
 وهل تجذب أرض العلم عندكم حتى يشيب المرء وهو ينتظر الأزهار
 والثمار ؟ ومتى يخلص هؤلاء من التحصيل ، حتى يفرغوا لتعليم
 الجهال ؟

كان يقدم إلى هذه الأسئلة وهو يتسم ، فبدأ لي أن أنشده قول
 ابن الرومي :

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
 قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور في القضيب الرطيب
 فأخذ يحاورني ويقول : إني لا أشك في أن فيهم من جاوز
 السبعين ، فأقسمت بالله جهد يميني أنهم شباب ، وأن نظام الأزهر هو
 الذي عجل لهم المشيب ! ثم هممت أن أذكر له الحديث « أطلبوا
 العلم من المهد إلى اللحد » ولكنني لم أشأ أن أدله على أن نظام الأزهر
 مما يرضى عنه الله ورسوله ، وإلا كنت من الخاطئين !

اطفال بوهيميون

البوهيمية كلمة أجنبية ألفها الناس منذ سنين ، وهي بالعربية «الصعلكة» والبوهيميون هم الصعاليك ، وحياة «البوهيمية» حياة تطيب لبعض المخلوقات ، ويألفها هواتها إلغا شديدا لأنها تريحهم من أثقال الشرف وأعباء التقاليد ، وحياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال

أكتب هذا وقد قرأت من أيام خبرا صغيرا ، ولكنه مزعج ويتلخص في أن طفلا غاب عن أهله أسابيع ثم عثر عليه البوليس بين الاطفال الذين يجمعون أعقاب السجائر من الطرقات ، ولما سئل أهله أجابوا بأنه كان يعيش عيشة الرغد ، ولكنه هام بالصعلكة حين اتصل بغلمان الشوارع

وهذا أيضا خبر صغير يقرؤه المرء ثم ينساه بعد لحظة ولكن المشغوفين بالدراسات النفسية يقفون عنده وقفة طويلة لينظروا كيف يقبل الطفل أن يهجر حياة الرغد ليحيا حياة التشرذ ، وليروا كيف يجب أن يساس الاطفال سياسة حازمة ، وكيف يتحتم حرمانهم من الاتصال بمن ألفوا البطالة والفراغ إن المدنية الحاضرة مدنية مصنوعة إذا قيدت بأصل الفطرة

الحيوانية ، والانسان في الأصل حيوان متشرد لا يفكر في المأوى إلا إذا جن الليل ، حياة النظام طارئة عليه ، ولكنها صارت على الزمن حياة طبيعية يهلك من ينحرف عنها قيد شعرة ، فكل إنسان يجد في فطرته ميلا غريزيا إلى الحياة الخالية من التكاليف ، وهذا هو السر في أن الداعرين والفاسقين يرون أنفسهم أسعد الناس ، ومثلهم في ذلك مثل الطائر المحبوس حين يخرج من القفص ، والفرق بينهم وبين مصير الطائر الطليق أن الطائر يجد جواً حراً كل الحرية أما الفاسق فيتحرر من قيود التقاليد ليقع بعد لحظات في مخالب القانون . والقانون بدعة إنسانية ، ولكن الخروج عليه صار من المستحيلات ، وأصبح الخلاص من أخطار الوحشية الأولى وقفا على طاعة ما ابتدع الانسان من القوانين

ومن هذا التعليل نفهم كيف يهرب الطفل من حياة الرغد في بيت منظم ليتصعلك ويتشرد بين « السعداء » من المتشردين والصعاليك غير أن هذا الطفل لا يفهم أنه يتعرض لغضب القوانين الوضعية التي وضعتها الحكومات وأقرها الناس من مختلف الأجناس ، وصار الخروج عليها خروجاً على أسباب السعادة الانسانية في عهود المدنية فهو ينعم أياما بحريته ليظل طول الحياة ذليلاً مهيناً لا يقام له وزن بين الأحياء

والآباء مسئولون عن هذا المصير المحزن إن تهاونوا وتسامحوا في رياضة أبنائهم على حياة المدنية ، حياة القيود والتقاليد ، فالانسان

حين اشترى طمأنينته الانسانية قدم في ثمنها حريته الحيوانية ،
والمغبون هو من يشور على التقاليد في كل وقت بحجة أنها قيود صناعية
ما أنزلت بها الطبيعة من سلطان . ومن حق الانسان أن يتفلسف
ولكن على شريطة أن لا يعرض نفسه وأهله للشقاء

وهذه الصعلكة التي يهيم بها الأطفال هي أيضاً مما يغرم به
الرجال ، وأكاد أعتقد أن الآباء هم الذين يحبون إلى أبنائهم هذه
« البوهيمية » الحمقاء ، فمن العسير في هذه الأيام أن تجد رجلاً في
بيته حين يحن الليل . ومن الذي يعمر دور الملاهي والملاعب
والمفاسق والمعابث ، إن عرف الرجال أن للبيت حرماً ، وأن
له واجبات ، وأن من العقل أن يفكر الرجل في إيناس أهله قبل
أن يفكر في إيناس أخذان المشارب والقهوات ؟ !
إلق من شئت من أصدقائك وأظهر له شوقك فسيسألك دائماً
هذا السؤال :

« أين تسهر لئراك »

ومن النادر أن يسأل صديق عن عنوان بيتك لأن أهل هذا
الزمان لا يتزاورون في البيوت ، وتكون النتيجة أن تخلي أطفالك في
البيت وتخرج ، فيتوهموا أنك وحدك السعيد وهم الأشقياء ، وحينئذ
يزهد الطفل في ألعابه ، وينصرف التلميذ عن دروسه ، ويهمون
جميعاً بالخروج ، وإلى أين يخرجون ؟ إلى السينما ؟ إلى المسرح ؟

إلى المرقص ؟ إلى أين ؟ أجبني ، فليس في هذه الموارد كلها ما يوجه
الطفل والتلميذ واليافع والمراهق إلى حياة الشرف والصيانة
والعفاف

أعرفت الآن أن الآباء هم الذين يوحون إلى أبنائهم حب
«البوهيمية» ويزهدونهم في حياة الطهر والصون ؟ أعرفت أن حياة
الفضيلة عبء ثقیل لا يحتمله إلا الأبطال ؟

ولكن كيف نروض أبناءنا على بغض حياة الصعاليك ؟ السبيل
إلى ذلك أن نخلق لهم نماذج من المثل العليا في الحياة ، وأن نوجههم
منذ الصغر إلى التشبه بكرام الرجال ، وأن نجعل لهم من الفضيلة
مواطن للشغف واللهو ، ففي الفضيلة مغريات لا تقاس إليها مغريات
الرذيلة حين يحسن التوجيه وخلق أسباب التعلق بعزائم الأمور .
وهل في الدنيا لهو ألد وأمتع من أن يقوم الطفل بمسابقة أقرانه
والتفوق عليهم والظهور بمظهر النبل والرجولة والعظمة في
القول والفعل !

يسأل عن ذلك الأم أولا ، والأب ثانيا ، والمدرس ثالثا
والحكومة ؟ أنا لا أسأل الحكومة شيئا . لأن أولى الأمر ناس
أمثالنا وقد يسعدون في الدواوين وهم في بيوتهم أشقياء ، والحكومات
في كل الأمم آخر من يسأل عن الإصلاح ، لأن الشعوب هي التي
تسأل عن أصول الأخلاق ، والحاكم لا يرشدك ولكنه يرييك .
فهو يغبطك حين تسعد ، ثم يمد يده إلى السوط حين تنحرف عن

طريق الصواب

وأعود فأقول مرة ثالثة : إن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله

إلا الأبطال

٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣

ذكريات طالب اشترك في الثورة

يوم البعث

١ — لا تذكر يوما بعينه من شهر مارس سنة ١٩١٩ فان الناس لا يذكرون ذلك اليوم إلا تمثلت لهم أطياف وأشباح من أثر الذكريات ، ولا تذكر شهيدا بعينه من شهداء الحركة الوطنية فقد درجت الأيام وكبرت السنون ، ونسى الذاكرون مئات من الشهداء ، واذكر فقط أن ذلك اليوم كان يوم البعث ، وأنه كان بداية اليقظة العقلية والسياسية والأدبية في بلاد طال عهدها بعيش الخمود في ظل الاحتلال

٢ — كنت من خطباء الثورة المصرية فاكثرت بنارها ، وشهدت آلام التشريد والاعتقال شهورا طويلا ، ومع هذا فما تمثلت تلك الأيام إلا بدت لي بعيدة جدا ، كأنما ألقى بها القدر في واد من

النسيان سحيق . ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والتوثب لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب نتطلع إلى الخلاص من الآصار الثقالة التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية ، وكنا نقرأ فى كتب السير والأخبار والتواريخ ونراجع من آثار الماضى والحاضر ما تمثل به حالنا فى العالمين ، وأذكر أنى كنت طالبا فى الجامعة المصرية ، وكان لنا أستاذ مولع بتشويقنا إلى أعلام المجد هو الأستاذ أحمد صالح الذى كان يدرس لنا تاريخ البابليين والآشوريين ، ومن غرائب ما وقع أنه كان يحدثنا بأن الفراعنة كانت لهم مطاعم فى تلك البلاد ، وأن من الخير أن نعرف ماضيها وحاضرها ، ونتعرف إلى مواردها الغنية عسانا نجدد العهد برياضها وغياضها ، فنصل بالسعى والجهد ما قطعت صروف الزمان ، وكانت تلك الآراء الطريفة تبدو فى صورة الأحلام ، لأن إنجلترا كانت أخذت أنفاسنا ، وزهدتنا فى المجد الطريف والتلبد ، فلم يبق لدينا ما نحلم به لاقامة أعلام الملك فى أرض العراق ، وفى تلك الأيام صحبنا الأستاذ أحمد صالح لزيارة الأهرام فوقف الرجل يتكلم بحماسة وطنية ، فتقدمت وألقيت خطبة أدعو بها إلى تجديد ما درس من مجد الآباء ، وكان ذلك كله يمر فى أودية من اليأس ، لا تتطلع النفس فيها إلى نبت من الأمل جديد .

٣ — كان المرحوم علوى باشا مراقبا للجامعة المصرية ، وكان منصب المراقب العام يساوى منصب المدير ، ثم توفى رحمه الله فى

أوائل سنة ١٩١٨ (إن لم تخفى الذاكرة) فدعاني سكرتير الجامعة إلى إلقاء كلمة التأيين باسم طلبة الجامعة المصرية ، ولما شيعنا المرحوم إلى قبره وقمت لالقاء الخطبة رأيت بين كبار القوم رجلا كبير الهامة ، مديد القامة ، رزين الملامح تنطق معارف وجهه بأن اسمه سعد زغلول ، وما هي إلا أيام حتى اجتمع مجلس إدارة الجامعة المصرية فاختر سعد باشا زغلول مراقبا عاما ، فى المنصب الذى خلا بوفاة علوى باشا ، وأخذنا نشاهد سعد باشا يوميا فى دار الجامعة واستبشرنا بقدومه ورجونا أن تدخل الجامعة بفضل نشاطه ومركزه فى دور من أدوار الجد والاقبال ، ثم جاء العام الدراسى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ فحضر سعد باشا وألقى علينا خطبة نفيسة قدم بها الدكتور احمد ضيف ، وحدثنا بأنه لا موجب للقلق على مصير الجامعة ، لأنها أنشئت بإرادة الأمة وأموال الأمة ، والأمة التى أنشأت الجامعة لا تزال قوية بجانب ماضية العزيمة ، لا يعتورها ضعف ولا يتطرق إليها قنوط . . . وليكننا أخذنا نلاحظ بعدئذ أن سعد باشا شغل عن عمله بالجامعة وما عدنا نراه يوميا كما كنا نراه ، وخفنا أن تكون نبوءة (الصاحبين) صحت فيه ، والصاحبان هما منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وكانا يكتبان بهذا الامضاء فى صحيفة السفور ، واتفق لهما أن كتبنا كلمة يوم عين سعد باشا مراقبا عاما للجامعة فذكراه باليوم الذى كان تولى فيه إدارة الجامعة ثم تولى وزارة المعارف ، ورجواه أن يبقى للجامعة

هذه المرة فلا يخليها إلى منصب الوزارة... أخذنا تهامس ونتساءل عن الأسباب التي يتغيب من أجلها سعد باشا، فأخبرنا أحد الاساتذة أن سعد باشا مشغول بتأليف الوفد، وكانت أول مرة سمعت فيها اسم الوفد، وعلمت من أخباره بعض التفاصيل، وبعد أيام ذهبت لزيارة قريبي الأستاذ محمود الجبالي، وكان يومئذ موظفا بالجمعية التشريعية فرأيت عنده أوراقا كثيرة وصلت إليه بطريقة سرية عن أعمال الوفد وفيها احتجاجات موجهة إلى مؤتمر الصلح بتوقيع «الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية سعد زغلول»

٤ — وفي تلك الأيام - أواخر سنة ١٨ - كان من البدع المحمودة أن يتهادى الطلبة احتجاجات الوفد المصرى وتقرير الحزب الوطنى، وكانت أشياء نادرة يتلقاها الناس فى همس، لأن السلطة العسكرية كانت فى تلك الأيام ذكية القلب، مرهفة السمع. وأذكر أن المرحوم إسماعيل بك رافت دعانى إلى مكتبه بالجامعة المصرية وأوصانى أن أحصل له من أحد إخوانى على نسخة من استقالة رشدى باشا وكانت تلك الاستقالة تعد يومئذ شيئا عجيبا، وكان رشدى باشا يعد جريئا فى استقالته، وكان الناس يرون فيه إماما من أئمة الشهامة والوطنية، وفى تلك الأيام نفسها أذاع المرحوم أمين بك الرافعى تقريرا عن مصير الحزب الوطنى، مهدبه لانضمامه إلى الوفد المصرى، وكان ذلك التقرير مما يتهاداه الطلبة بين راض وساخط وكانت تلك الأوراق والتقارير والاستقالات مما يقرأ

بشبهة عجيبة ، ويتقبله الجمهور بأحسن القبول ، وكان الطالب الذى لا يعرف شيئا من أمر تلك المنشورات يعد من المتخلفين .

٥ — كان تأليف الوفد المصرى بداية عهد لا يقاظ العواطف الوطنية ، ومن دلائل ذلك أن السلطة العسكرية كانت منعت الناس طوال أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل ، فلما كان يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا إلى قبر مصطفى كامل وذهبت مع فريق من الطلبة ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندى يقرأ القرآن والناس يستمعون فى صمت ورهبة ، وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل بك فناقش مبادئ الوفد المصرى ، وكانت تلك المناقشة تقع من أذهان الطلبة موقعا غريبا ، لأن الجمهور كان لا يحب أن يرى فى تلك الآونة أى مظهر من مظاهر الخلاف ، ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية ، وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال ، وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة فقصوا فى السجن أياما وأسابيع ، وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن والاعتقال .

٦ — كانت الشهور الأخيرة من سنة ١٨ والشهور الأولى

من سنة ١٩ تفيض بدلائل اليقظة الوطنية ، وكان الناس يتحدثون فى المدارس والأندية والمتاجر عن مصير الأمانى المصرية بين أمانى الشعوب ، وظهر ذلك الشعور بقوة فى أنفس الطلبة ، وأعرف طالبا قدم كتابا للطبع اسمه « حب ابن أبى ربيعة وشعره » .

موضوع في الصفحة الأولى مانصه :

« إلى مصر »

أداراً بها عيش الحليم يطيب ويكرم فيها المرء وهو غريب
وقيت الردى لا تعرف في اليأس خطة فما كل يوم ذو الرجاء يخيب
فان كنت قبل اليوم لم تبلغى المنى فان غدا للناظرين قريب
ووضع تحت صورته الآيات الآتية :

لم يغد رسمى ضئيلاً كالبدد عند المحاق
إلا لأن الليالى وما لها من خلاق
صيرتنى فى بلادى غضنفرا فى وثاق

٧ — ومن الظواهر البارزة التى شغلت الطلبة فى ذلك العهد
إمضاء توكيلات الوفد المصرى فقد كننا نأخذها لامضاءها من
أهلينا وذوى قرابتنا وأصدقائنا ، وذهبت يوماً مع أحد الأصدقاء
لنأخذ توكيلات جديدة من سكرتيرية الوفد فأخبرنا الأستاذ
محمد بدر بأن النية انصرفت عن ذلك مؤقتاً حتى لا تسارع السلطة
العسكرية فنبطش بالوفد وتبدد نظامه ، وكانت تقابل حركة الوفد
حركة أخرى يقوم بها الحزب الوطنى ولكنى أذكر أن صداها كان
ضعيفاً فى أنفس الطلبة ولم تظهر هذه المقاومة فى تنظيم المبادئ
إلا بعد أن جاء المرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى وأقام ناديه فى
منزله وأخذ يتصل بطلائع الحركة الوطنية

٨ — ثم نفخ فى الصور يوم اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا

ورفاقه وأرسلتهم إلى مالطة . فهبت أعاصير الثورة بصورة لم نشهد لها مثيلاً ، وفي أيام معدودات وقعت في مصر الأعاجيب : فعطلت المواصلات ، وأضرب الموظفون ، ونظمت الخطابة في المساجد والكنائس . وكان للاسكندرية ، وطنطا ، والمنيا ، واسيوط مقام في الثورة كاد يغطي على حركة القاهرة من حيث القوة والعنف

٩ — وبما أذكره ولن أنساء أننا كنا نحدث الناس في الأزهر عن أخبار الأقاليم ، فجاءت الأخبار يوماً بأن المنيا ثارت وأعلنت الاستقلال ، وكان لي هناك قريب عزيز هو المرحوم محمد بك حمدى وكيل مديرية المنيا فاعتقلته السلطة العسكرية مع سعادة يونس باشا صالح رئيس نيابة المنيا حينذاك ، ورأت السلطة العسكرية يومئذ أن وكيل المديرية ساعد الثورة وأيد العصيان وإعلان الاستقلال ، وضعفت أعصاب المرحوم حمدى بك فانتحر في المعتقل وكان انتحاره في أيام عيد ، فقضينا في الريف عيداً مرّاً لاتزال ذكره تمض القلوب

١٠ — وكان لمدينة أسيوط شهداء ، فقد قامت فيها الحرب بالفعل بين الأهالي وبين الجنود الذين سخرتهم السلطة العسكرية وقضت تلك المدينة أسابيع تحت الأحكام العرفية ، وظلت فيها المحاكمات مدة طويلة ، وكنا نفصل أنباءها في الأزهر كل مساء

١١ — شهداء الثورة المصرية عديدون ، ولكن أول شهيد شيعت جنازته في مظاهرة وطنية هو المرحوم ماهر افندى ، وإني

لأذكر الآن أننا ذهبنا إلى الأزهر لإقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة ومعها عليها الخاص ، ووقفنا صفوفًا أمام الأزهر نخطب ونهتف ، وظلت الطيارات الانجليزية تحوم فوق رؤوسنا تحويماً وقحاً ، وبقينا كذلك حتى انتصف النهار ، وكان في الطلبة شاب متحمس أراد أن يخترق صفوف الجنود الانجليز فطعنه أحدهم طعنة دامية ، فحملناه إلى صحن الأزهر ودمه يفيض في رائحة المسك ولا أكاد أذكر كيف حملته عربة الاسعاف ، وكيف اجتمعنا في اليوم التالي لتشيعه إلى قبره الشريف ، وإن كنت أذكر أن القاهرة كلها اشتركت في توديع ذلك الرفات العزيز

١٢ - ومن مظاهر أيام الثورة أن الخطب كانت تجري منظمة في الأزهر كل مساء ، وكان الشيخ عبد ربه مفتاح ينقل أخبارها إلى جريدة الاهرام ، وخاصة إذا وقع فيها حادث يستحق النشر كزيارة البطريك والحاخام للأزهر الثائر . وكانت الجرائد تنشر أخبار الثورة مقتضبة أو محرقة وفقاً لاهواء السلطة العسكرية ، فصحت نية أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ، على وضع كتاب للثورة على نمط مذكرات الجبرتي يسميه « الأيام الحمراء » واتفق معي على أن أكتب الجزء الخاص بخطب الأزهر ثم شغل وشغلت ، ولا أدري ماذا صنع بذلك المشروع الجليل

١٣ - كان الأزهر يمول كل مساء بالآلاف المؤلفات لسماع الخطب الوطنية ، وكانت لجنة الوفد المركزية تمد حركة الأزهر

وترعى من يخطبون فيه ، وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون ، وكان الانسان لا يصل إلى موقف الخطيب إلا بجهد جهيد ، وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع ، وحدث أن الشيخ أحمد الكنانى نظم قصيدة حماسية ، وأراد أن يوسع له المجال فلم يستطع ، فعاد بعد أيام وقد لبس بذلة أفرنجية وأرسل من يخبر الشيخ أبا العيون بأن سعادة «أحمد بك عبد التواب» يريد أن يلقي قصيدة ، و«أحمد بك عبد التواب» اسم اخترعه الشيخ الكنانى ليجد السبيل إلى الخطابة ، ورحب الشيخ أبو العيون «بسعادة البك» وأعطاه المنبر بلا عناء! وظللت أنتظر أياما لأخطب وطال الانتظار ، وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية ، وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فطلب الشيخ أبو العيون من ابراهيم افندى عبد الهادى أن يرد تحيتهم فاعتذر ، فسألنى الشيخ أبو العيون فتقدمت بجرأة وحماسة ، وخطبت خطبة فرنسية رنانة شهد الشيخ الزنكلونى بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية!! ومنذ تلك اللحظة كنت أصل إلى موقف الخطيب برغبة الجمهور الذى كان ينتظر خطبتي كل مساء. وأشهر خطباء الثورة يومئذ المرحوم أبوشادى بك ، والمرحوم الشيخ مصطفى القاياتى والدكتور محبوب ثابت ، وأشهر شبان الخطباء كان محمد شكرى وهو اليوم محام معروف؛ وكانت خطبه كالصواعق؛ وكانت ميوله مع الحزب الوطنى وكانت المعالم المشهورة فى الثورة منزل القاياتى بحى الدرب الأحمر

ومنزل محمود باشا سليمان بشارع الفلكي ، ومنزل عبد اللطيف بك الصوفاني بالحلمية الجديدة ، ومنزل عبد الرحمن بك فهمي بشارع القصر العيني . وظفر منزل سعد باشا باسم بيت الأمة وكان له في الثورة مقام مشهود

١٤ - قلت إن شهداء الحركة الوطنية يفوقون الحصر والاحصاء ، فكم من ناس شقوا وتعبوا ثم ذهبت الاختلافات الحزبية بأعمالهم ! ومن المروءة أن نذكر في هذا المقام القمص سرجيوس فقد كان من أشهر خطباء الثورة ، ثم نسيت أخباره لأسباب حزبية . والمرحوم الشيخ محمد الخضري كان من أهم الأعضاء في لجنة توحيد المطالب ثم ذهبت أعماله أيضا لأسباب حزبية . وهناك رجال كثيرون انسحبوا من الميدان بعد أن عرف الانجليز كيف يسلطون بعض المصريين على بعض ، وكيف يمنونهم بالمناصب ويخدعونهم بالألقاب

١٥ - وذهب فتیان أمجاد في إقامة الخنادق بشوارع القاهرة ، وكانت للجنود الانجليز ولع بمطاردتهم ، وكانت الاعتقالات لا تنقطع ، ومن دلائل القوة يومئذ أن السلطة كانت لا تعتقل خطباء الثورة إلا ليلا ، خوفا من هياج الجمهور ، ويضيق المجال إذا ذهبنا نعدد ما لقي الأحرار من الاضطهاد في هذا السبيل

١٦ - وبعد فهذه أثارة من حوادث الثورة التقطناها من الذاكرة ، فدونا شيئا وأغفلنا أشياء ، ولا نملك الآن إلا الترحم على

شهداء الوطنية الذين ذهب أرواحهم فدية خالصة للوطن العزيز
ويمكن الحكم بأن تلك الأيام هي خير مآثر في تاريخ مصر الحديث
ولم يعرف المحتلون قيمة الشعب المصرى إلا في تلك الأيام الحمراء
وحسب القارىء أن يذكر أن اللورد ملتر حضر للمفاوضة فقاطعه
الشعب مقاطعة تامة ، ولم يدخل القاهرة إلا بليل ، وقضى أيامه فيها
متكررا لا يعزبه إلا التريض على سطح الماء . بقيت في النفس أشياء
لا تقال : لأنها لا تجد من يسمع ولا تظفر بمن يجيب ! والله سبحانه
هو القادر على أن يهبنا الرشد ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل . وسلام
الله على شهداء الوطن والحرية والاستقلال !

وعند الله جزاء من جهل التاريخ أخبارهم فلم يقيد أسمائهم في
سجل الشهداء ! وروى الله العهد الذى كانت موسيقانا فيه .

« مصر للبصريين »

نضر الله وجه ذلك العهد ، وعطر صحائفه بين صحائف التاريخ ؟

١٣ مارس سنة ١٩٣٣

خطرات

باريس في ٢٢ يناير سنة ١٩٣١

متى نفهم الشعر الجميل ؟

كنت في حدائتي مولعا بحفظ الشعر ، وحملى الزهو مرة على أن أحسب أنني أحفظ الناس لروائع الشعر البليغ ، وقد بقي هذا الغرور في نفسي إلى عهد قريب ، وأذكر أن الأستاذ الدكتور طه حسين كان يلقي محاضرة في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ فبداله أن يهاجم أساتذة الأدب في مصر فقال : أنا أزعم أن أساتذة الأدب في مصر ليس فيهم من قرأ ديوانين من الشعر العربي قراءة صحيحة فقلت له :

« استثنى يادكتور ، الله يهديك ! لأنني أحفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت من الشعر العربي وأستطيع إنشادها بعد مراجعة صغيرة ، فأجاب : العفو ! أنا لا أقصد أساتذة الجامعة .

كنت أحفظ ثلاثين ألف بيت ، ولكن هل كنت أفهمها

جميعا ؟ !

نعم ! كنت أفهمها ، ولكن كيف ؟ على الطريقة المدرسية !
فان سألت ما هي الطريقة المدرسية ؟ فاني أجيبك بأنها هي بعينها

الطريقة القاموسية ، وأرجو أن تقف عند هذا الحد ؛ فإن الطريقة القاموسية شرحها يطول !

الشعر لا يفهم عن طريق القاموس ، إنك لا تفهم الشعر إلا إن اصطدمت بالآزمات الروحية ، والوجدانية ، والعقلية ؛ التي أنطقت الشعراء ، وقد تمر لحظات يكون فيها القارئ أشعر من الشاعر وأعرف منه بأسرار شعره . وهذه فكرة تبدو جريئة وغير معقولة مع أنها من صميم الحق والواقع ، فقد يتفق أن يتغنى البلبل من حيث لا يدرك مرامي التغريد ، ثم يستمع إليه إنسان عميد القلب مجروح الكبد ، فيفهم من شذوه معاني دقيقة عجيبة ، لا يدركها البلبل ولا تخطر له على بال

وقد يترك الشاعر بعض المعاني بلا تحديد ، فتكون فرصة طيبة لعرض أخيلة القراء ، ومن أمثلة ذلك قول جرير :

يا أخت ناجية السلام عليكمو قبل الرحيل وقبل عذل العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل
فقد كثرت التأويلات لكلمة فعلت ما لم أفعل ، وهي مع ذلك باقية على بكارتها تنتظر أخيلة الفحول ، وهيهات أن يدرك معناها متى لم يشقه الحسن ، ولم تعلمه اللإلى كيف تكون مرارة الفراق وقد انتقد الدكتور طه قول حافظ :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس
وفي رأيه أن هذا خيال سخيف ، لأن الإنسان يتقرز حين يفترض

صحة التشبيه لبشاعة الدماء

ذلك رآيه أما أنا فأتنى مخلصاً أن تقدم إلى كأس مترعة روية
من عصير الخدود! رباه! متى يصح هذا الحلم الجميل! (١)
إلى هنا عرف القارئ أن الشعر لا يفهم عن طريق القاموس
وإنما يفهم عن طريق الوجدان فليسمح لي إذاً بأن أقدم إليه نماذج
من شعر كنت أحفظه منذ أزمان ولكنني لم أهتد إلى خطره إلا في
هذه الأيام

وليت شعري من ذا الذي يفهم كما أفهم هذه الآيات :

من له عهد بنوم يرشد الصبب إليه

رحم الله رحيماً دل عني عليه

سهرت عيني ونامت عين من هنت عليه

ومن ذا الذي يدرك كما أدرك هذين البيتين :

وأنزلني طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأة لا أشا كله

أحامقه حتى يقال سجيية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وما كان بودي شهد الله أن أدرك أسرار هذا الشعر الذي يمثل

قلق المسهد، أو حيرة الغريب!

(١) وهذا أيضاً من الخيال البعيد، لأن للدكتور رأياً خاصاً في

عفاؤه عن خدود الملاح . ولعله يتمناه كما يقرره في « الحلم الجميل »

أه مصححه .

خدك وردى

صحبت الأستاذ الشيخ سيد المرصفي ستة أعوام ، فتلقيت عليه شرح الحماسة ، وشرح الكامل ، وشرح الأمل ، وكان في ذلك العهد أعلم الناس بأسرار اللغة العربية ، وكنت أكتب كل ما ينطق به من جد أو هزل ، وكانت له لحظات يستطيب فيها الفكاهة والمزاح ، ولكنه كان يمزح وحده بدون أن يسمح للطلبة بمشاركته فيما يلقى عليهم من الملح والفكاهات

كان الشيخ المرصفي يذكرني بقول أبي الحسن الشاذلي : (نحن كالسلاحفة تربى أولادها بالنظر) ذلك بأنه كان لا يشرح أسباب إعجابه بالشعر ، أو نقده إياه ، وإنما كان يكتب بكلمة صغيرة ، أو إشارة خفيفة ، نفهم منها أن هذا شعر جيد ، وأن ذلك شعر ردى . إلى غير ذلك من التلميحات التي لا ينتفع بها إلا عدد قليل من الطلاب مثال ذلك ما جاء في الأمل :

أزف البين المبين وجلا الشك اليقين
لم أكن لا كنت أدري أن ذا البين يكون
علموني كيف أشتا ق إذا خف القطين
وقد أراد الشيخ المرصفي أن يبين ضعف هذا الشعر ، ولكنه

لم يزد على أن قال في مخاطبة الشاعر: (انفلق !)
وكان إذا شاء أن يشير إلى ضعف بعض أبيات النسيب قال
(أيوه ياسيدي خدك وردى !)

وكذلك كانت كلمة (خدك وردى) هي القاضية على أكثر ما
كان يمر بنا من الشعر الرقيق

وقد اتفق أن مرت بنا هذه الآيات :

لم أنس إذ ودعته والتقي ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمي على جسمه غصنان ذا غصن وذا ذابل
يارب ما أطيب ضمي له إلى لولا أنه راحل

فقال الشيخ : « خدك وردى »

وفي تلك المرة استطعت أن آخذ على الشيخ الموصفي إسرافه في
نقد أشعار المولدين ، فهل صحيح أن هذا شعر ضعيف وهزل هو
حقيقة خدك وردى ؟

أما أنا فأعتقد أنه من أنضر وأرق ما قال الشعراء ، فمن كان في
ريب من ذلك فلينتظر حتى يشهد مواقف التوديع

هل تخرج الشهوة من العيون

كان لأستاذنا الدكتور منصور فهمي دروس خاصة يلقيها على

طلبة الفلسفة بالجامعة المصرية وكان حريصا على ألا يشهدا أحد من الجمهور

وفي تلك الدروس كانت تظهر عبقرية ذلك المفكر العميق الذي يظلمه من يقيس فضله برسائله التي ينشرها في الصحف ، أو محاضراته التي يلقيها في الأندية العمومية ، كان يجلس فيحادثنا ونحادثه في رفق دونه رفق الخلاء حين يتسامرون ، وكان مغرما بعرض مشاهداته وملاحظاته على ما يقع أمامه في حياة الناس أخذ مرة يشرح لنا العواطف المشوبة بنعيم الحواس ، فساقه الحديث إلى أن يذكر أنه سمع رجلا يتحدث عن عشقه لابنة عمه وكيف كان ذلك العشق بريئا لا دنس فيه ، وكيف انطلق المحدث يؤكد لسامعه أنه كثيرا ما كان يقضى الليل مع ابنة عمه في فراش واحد ، وهما يتناجيان ويتشاكيان دون أن يقع ما يجرح العفاف وإذ ذاك قاطعه الدكتور منصور فقال :

(إذن والله تخرج الشهوة من عينيك !)

وأنا أشهد أن هذا حق ، وأن الشهوة قد تخرج من العيون ، ولكني لا أدري أحرام هذا أم حلال ؟ فما قولكم ، دام فضلكم ، يا حضرات المفتين الذين لا ترسلون الصحف إلا في شهر رمضان ؟ أجيئوا ، أثابكم الله ، فإن هذه مسألة تشغل بعض اخوانكم في باريس

كيف يساس الطلبة

في المدارس الفرنسية ؟

حقائق تنفع الأساتذة والطلاب

قبل أن أواجه موضوع هذه الرسالة أتوجه بكلمة عتب صغيرة إلى حضرة مصصح البلاغ مع اعترافى بفضلله وكفأيته وتفردله بالحرص والتدقيق بين مصححي الجرائد بالقاهرة ، وهذا العتب لا يرجع إلى بعض الأغلاط المطبعية القليلة التى تفوته ، ولكنه يرجع إلى الكلمات التى يصححها عامداً فى رسائله وينقلها من وضع إلى وضع فقد جاء فى رسالتى عن شهداء السين كلمة « أعزاب » جمع عزب بالفتح و التحريك وهو من لازوجة له ، فغيرها إلى « عزاب » ليساير اللغة الجارية. والحق فى جانبى لأن « أعزاب » هو الجمع المقبول سماعاً وقياساً ، وجاء فى رسالتى عن ليلة المانش عبارة « والمرء يعجز لا المحالة » بالآلف واللام فصيرها هو « والمرء يعجز لا محالة » ليساير ما درج عليه الناس . وهذا خطأ لأن المحالة بالآلف واللام معناها الحيلة وبذلك يجرى المثل ، فى حين أن التغيير الذى انتقل إليه يحرف المثل عن موضعه ويجلب إلى الكاتب سخرية بعض القراء وفى هذه الرسالة أقول « العزب من لازوجة له » وأرجو أن لا

يغيرها إلى « من لا زوج له » ليساير تعبير الأقدمين فاني أستحب أن أغلب القياس وأفضل أن يقول الناس مثلاً « خادم » للمذكر و « خادمة » للمؤنث وأن يقولوا « امرأة سافرة » بدلا من « امرأة سافر » التي نص عليها المصباح . ولست بهذا أعفيه من تصحيح رسائلي بنفس العناية التي عهدتها فيه منذ عرفته يوم كان يقوم أغلاطي في سنة ١٩١٤ ولكني أرجوه أن يلاحظ أنني قد أضع عامدا بعض الألفاظ والتعابير لغرض أرمي إليه إحياء لبعض الألفاظ القديمة أو إثارة لبعض الألفاظ الحديثة ، واللغة لا تهذب ولا تتطور إلا بأقلام الكتاب

ولأعد إلى موضوع هذه الرسالة فأقول :

إن الذين اشتغلوا بالتدريس كما اشتغلت به ، وذاقوا حلوه ومره في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وعرفوا ما يجري في المدارس الأميرية والأهلية ، يذكرون أن هناك فسحة من الوقت بين الحصص تتراوح بين خمس أو عشر دقائق - وأحيانا تصل إلى خمس عشرة دقيقة - وهذه المدة القليلة يقضيها المدرسون في التشاكي ولكن لماذا من الطلبة !

وأنا شخصا أذكر هذه اللحظات بارتياح ؛ فقد كانت همومي أخف من هموم الزملاء ، ولا أذكر أن الطلبة اضطربوا مرة بشكل يزعجني ، ولكنني أعترف أن مهنة التدريس مهنة شاقة لا يستغرب فيها أن يتشاكى المدرسون وأن ينظموا قصائد الأنين !

غير أنى كما يعرف القارىء حديث العهد نسياً بهذه المهنة لأننى لم أعالج همومها إلا بعد الحرب ، من أجل ذلك كنت أسأل زملائى عن ماضيهم ؟ فكانوا يجيبون بأن الطلبة لم يتمردوا إلا منذ شبت الثورة المصرية ، وأنهم قبل ذلك كانوا فى وداعة الحملان

وكان هذا الجواب يقع من نفسى موقعاً سيئاً ، لأنه ما كان فى وسع الأمة المصرية أن تؤجل ثورتها على الظلم والهوان ليظل الطلبة وادعين ، وليظل الأساتذة فى راحة وسلام !

وكان بعض زملائى يتشاءمون حين يرون طالباً يرأس صحيفة يومية أو أسبوعية ، وكنت بخلاف ذلك أحض الطلبة على مراسلة الصحف وأسوقهم إلى الميدان ، وكنت أقول فى نفسى : إذا لم يكن بد من تضحية ، فلتقدم الأمة وليتخلف المدرسون !

فهل من الحق أن الطلبة المصريين يمتازون من بين الطلبة فى العالم بحب المشاغبة ، وأن سلوكهم المدرسى لم يسؤ فى هذا الجيل إلا باشتراكهم فى النهضة المصرية ؟

الجواب بالسلب ، وإلى القارىء البيان :

مهنة التدريس فى العصر الحاضر شاقة فى العالم كله ، وثورة الطلبة على النظام المدرسى وخروجهم على أساتذتهم من الأمور التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر . والطلبة المصريون جاءوا أخيراً بعد أن تمرد سواهم بعشرات السنين ، وإذا كان المدرسون المصريون لم يشكوا من الطلبة قبل سنة ١٩١٩ فذلك يرجع إلى

أنه لم يكن بمصر مدارس ولا تدريس ولا تلامذة ولا أساتذة بالمعنى المعروف اليوم؛ وإنما كان هناك مدارس متواضعة محدودة الفصول وكان هناك تلامذة قلائل يوصيهم آباؤهم في الصباح والمساء ويعفرونهم بالجد والتحصيل، وكان هناك مدرسون معدودون لو تلفت أحدهم إلى زميل يشاكيه لما وجد، فكان من الحق أن تظل الحياة المدرسية هادئة لا قلق فيها ولا اضطراب. ولو أننا عدنا إلى إحصاء طلبة المدارس العالية في أيام الحرب لهنا ذلك الاجداب فلم تكن هناك مدارس عامرة غير الطب والحقوق، وكان في هاتين المدرستين تباشير للقلق الذي عم بعد ذلك في المدارس المصرية، ولم يكن في مدرسة المعلمين العليا غير آحاد في كل فصل والفصل هنا معناه السنة الدراسية برمتها، ولم يكن للتعليم الثانوي حظ يذكر في الأقاليم وكان طلبة الثانوي في القاهرة والأسكندرية أضعف من أن يقاسوا إلى طلبة اليوم الذين لا يفتقون يشغلون أولى الأمر في وزارة المعارف فضلا عن حضرات المدرسين

والحال اليوم في المدارس المصرية غيرها بالأمس؛ فهناك مدارس وطلبة وأساتذة، ومن أجل ذلك أخذت مشكلة التعليم لونا جديدا يتناسب مع خطورة الحياة المدرسية، فعلى الأساتذة أن يستعدوا للكفاح، وعلى مدراس المعلمين أن تفهم أن إعداد الأساتذة أصبح في غاية من التعقيد. فمن الواجب أن يختار طلبة المعلمين اختيارا خاصا يراعى فيه تكوينهم الجثمانى والعقلى والأدبى، فكل تشويه فى الجسم

أوفى الذوق له أثره الخطر في البيئات المدرسية ، وليست آراء المربين القدماء بكافية في إعداد المعلمين ، فقد كان أكثر رجال التربية فلاسفة نظريين لم يعانون مشاكل التعليم ، ولم يقدرُوا ما سيكون عليه الطلبة في القرن العشرين ، وعلى وزارة المعارف المصرية أن تفهم أن كل اضطراب مدرسي له أسباب أخرى غير اشتراك الطلبة في الحياة العمومية ، وأقرب هذه الأسباب هو بعد ما بين الأساتذة والطلبة في فهم الحياة ، وتقدير مشاكل الجيل الجديد ، وبقدر مرونة الأساتذة وبعد نظرهم وفهمهم لروح العصر يكون نجاحهم في الحياة المدرسية ، وليس بمستطاع في عصر مشرب بروح الثورة في جميع الأقطار أن تقهر الطلبة بالشدة العنيفة أو أن تسوسهم بمبادئ من التربية كانت لا تكفي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد رأيت بنفسى كيف يكون نجاح المدرس المثقف ثقافة حديثة ، وكيف يكون سلطان الأستاذ الذى يخالط الطلبة ، ويدرك ميولهم وأذواقهم ، ويعرف منهم مواطن الضعف ومواضع القوة ، ورأيت كيف يخفق المدرس المستخلف الذى يعيش في القرن العشرين بروح القرن العاشر ، فان لكل طالب عيّن وأذنين ، وهو ثاقب البصر في اختيار أستاذه ، ومعرفة ما يفهم من شؤون العصر الحديث . وليست الدروس كلها بمقصورة على موضوعات المناهج ؛ فهناك لحظات يفرغ الطلبة فيها لأساتذتهم ويختبرونهم وجها لوجه ، ويكاد طلبة اليوم ينتظرون من أساتذتهم

أن يرشدوهم إلى أهم الروايات المسرحية والأشرطة السينمائية، ويكادون ينتظرون منهم أن يعاونوهم على حل ما يواجههم من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية والوجدانية. وليس هذا حال الطلبة في مصر فقط؛ بل هذا حالهم في جميع الأقطار في هذا الجيل والحياة حركة فويل للجامدين!

ونعود فنذكر أن المدارس الفرنسية كانت إلى سنة ١٨٨٠ تدار إدارة عسكرية، وكان الطلبة محاطين بطائفة كبيرة من القيود والأغلال، وكانت المدارس أشبه شئ بالسجون؛ وكان الاساتذة والضباط والنظار مسلحين بالشدة والعنف في كل وقت. والذي يعرف أن أكثر الطلبة كانوا ولا يزالون يقيمون في المدارس ليلا ونهارا، يعرف كيف يكون تبرمهم وضجرهم من حياة ضيقة مغلقة الأبواب، وهذه الحياة الثقيلة لم تكن شرا مطلقا، ولم تكن خيرا مطلقا، فقد كان من شرها أن أخذت روح الجد والنشاط، وحولت الطلبة إلى آلات ناطقة ولكنها لا تفكر ولا تبين، وكان من خيرها أن أجلت تعرف الطلبة ببعض الخصال الرديئة التي تبشها حياة الحرية في باريس وحبستهم في نطاق من التعقل والاعتدال. ولكن القرن التاسع عشر ما كاد ينصرم حتى شبت في أوروبا كلها روح الثورة العقلية والخروج على ما ألفت الجماهير من التروى والتعقل والنظر في عواقب الأمور، وكان الطلبة أكثر الناس قبولا لما أوحى القرن العشرون من التوثب والتهالك على فرص الحياة

وما ظنك بفئات لا تعرف ما تكاليف العيش ، ولا تدري ما عاقبة الطيش ، ولا تفكر فيما يلاقى الآباء والأمهات من أوزار الحياة اليومية في عصر لا يميل القاعدين ، ولا ينظر الوادعين . والطلبة مهما كانوا أطفال : ينفقون كما ينفق الرجال ، ويفكرون كما يفكر الأطفال ، ومن الصعب أن تروضهم على الاطمئنان إلى أن الحياة ليست كلها هوا ولا لعبا . فقد كان الانسان حيوانا لا يعقل إلا إن لدغته أفاعى الصروف والخطوب . أضف إلى ذلك ما استقرت عليه الحياة الفرنسية من حب العبث الجامح في ليالى الآحاد فلك ليال ماحقة تقتلع ما ثبت ورسخ من أصول الأخلاق وليس من السهل أن تدعوهم إلى التريث والتمهل ، وهم يركضون في ميدان الشباب ، فانك تدعو من لا يسمع ، وتهيب بمن لا يجيب وكذلك تغيرت الحياة المدرسية تغيرا يوشك أن يكون تاما وتقطع ما كان بين الطلبة والأساتذة من أواصر البر والاحترام وعاد المدرسون غرباء أو كالغرباء ، وأصبح الطلبة لا يعرفون سلطانا لغير جمعيات الألعاب الرياضية ، وانطلقوا لا يلوون على شيء ، ولا يكثر ثون للدروس ، وصاروا يجهلون أكثر الواجبات المدرسية والقومية بسبب ما اندفعوا فيه من التهاون والثورة على مختلف التقاليد ، وحسبك أن تعرف أن جمهور الطلبة في فرنسا قد يجهل تمام الجهل من أعضاء الحكومة الحاضرة ، ومن رؤساء الأحزاب ، والبارزون بين النواب والشيوخ ، ولكنه يعرف

أبطال الألعاب الرياضية في جميع بقاع العالم ، ويستقصى أخبار السابحين والملاكمين ورافعى الأثقال. واختراع الطائرات قد أذكى حماسة الشبان وأغراهم بالبحث عن مجهول الآفاق ، وقدمت لهم السينما غذاء قويا حيا من مناظر المخاطر البرية والبحرية والجوية ، بحيث يمكن أن تقدر أنهم لم يعودوا طلبة ولكنهم صاروا شياطين ، ولهذا التمرد أثر جميل فيما أفترض ، فسيكون الجيل المقبل جيل فتح وغزوات واستكشافات ، وسيتحول الانسان إلى قوة خطيرة يتبدل بها شئ كثير من الأوضاع العلمية ، والفنية ، والأدبية ، والاجتماعية والأساتذة ما حالهم ؟

إنهم في غاية من الارتباك والاضطراب ، فلا تزال المناهج الدراسية على حالها ، ولا يزال هناك شبح اللاتيني واليوناني ، وما أشبه ذلك من اللغات الميتة ، ولا يزال هناك الكلاسيك والرومانتيك ولا تزال حوادث القرون الوسطى بما فيها من علوم وفنون وآداب والأساتذة مسئولون عن وضع ذلك كله في أذهان الطلبة طوعا أو كرها ، فما هو الحل ؟ وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

الواقع أن الأساتذة يعترفون بأن الحل الوحيد هو التساهل في الامتحانات وهم لذلك يعطون شهادة البكالوريا بسخاء أى سخاء وذلك لا يمر بالطبع من غير ضوضاء ، فهم يحثون الجمهور على مشاهدة جلسات الامتحانات في السوربون ليحكم بينهم وبين أولئك الطلبة المتمردين

وإذا سألت الأساتذة كيف ساع لكم هذا التسامح ؟ اجابوا بأن التعليم الثانوى عليل لا يرجى شفاؤه لأنه يمر فى طور الشباب المجنون ، وعلى أساتذة الجامعات وحدهم أن يداؤوا ذلك الجنون . فان الطلبة لا يصلون إليهم إلا بعد أن تنضجهم السن وتروضهم الأيام بعد الجموح

وهناك علاجات مؤقتة لاتغنى فتيلا : تلك هى نتائج الامتحانات الشهرية حيث ترسل المدارس لآباء الطلبة ، أو أمهاتهم ، أو أولياء أمورهم بيانا بدرجات الطالب فى جميع المواد ، ولكن ما رأيك وأكثر آباء الطلبة لا يدركون شيئا من ذلك ، والطالب يستطيع بكل سهولة أن يؤول النتيجة ، وأن يلبسها اللبوس الذى يريد ، وقد يحدث أن يتفق مع بواب المنزل على تبديد الخطابات المدرسية بحيث يظل القائمون بأمره فى عماية تامة لا يعرفون كيف يبدأ وكيف ينتهى ، ولا يدركون أ ذكى هو أم بليد

وقد حرص فريق من الأساتذة على الاتصال بآباء الطلبة لىتم التعاون بين الفريقين على مداواة ذلك المرض العضال ، ولكن ظهر أن الأساتذة لا يتسع وقتهم لتلك الصلات الودية ، كما ظهر أن الآباء لا يستريحون إلى الأساتذة الذين يؤثرون فى أبنائهم لأن الآباء لا يزال عندهم بقية من الاثرة وحب الذات ، وهم يريدون أن يظل أبنائهم فى حيازتهم وفى بعد عن المؤثرات الخارجية ، والآباء يفهمون جيدا أن الأساتذة مهما تقدمت بهم السن ، أقرب منهم إلى

الحياة والشباب، لأن الأساتذة بطبيعة مهتهم قرييون من فهم
الشبان الحاضرين، وما يعتلج فيهم من أمانى وآمال

ومن رجال التربية من عنى بدرس هذه الأزمة الحاضرة، ومن
رأيه أنها ترجع إلى أنه لم يعد في المدارس الفرنسية أثر لذلك الروح
الفكرى الذى كان ينظم وحدات الطلاب، فقد كانت المدارس
الفرنسية لأول عهدها ترمى إلى إيقاظ العواطف الدينية ثم اتجهت
بعد ذلك إلى تربية فكرة الجمهورية، ثم انصرف الناس عن ذلك
كله إلى فكرة واحدة هى نتائج الامتحانات، وقد نفع ذلك وقتا ما
ثم تداعت الروابط واندفع الطلبة يفعلون ما يشاءون بلا وازع من
أنفسهم ولا رقيب

ولكن رأى أنا أن هذا الاضطراب يرجع فى جوهره الى أن
الطلبة والأساتذة يمثلون جيلين مختلفين أشد الاختلاف، فقد
ظفر الجيل الجديد، وأصبح الأساتذة من المتخلفين. ولا علاج
لهذا إلا أن يقبل الأساتذة على أنفسهم فيروضوها على فهم الواقع
ثم يستعدوا للنضال بأسلحة العلم الحديث، ومن سفه رأى أن يظل
فريق من الأساتذة غارقا فى تأملاته القديمة وأفكاره العتيقة
كأنها نصوص مقدسة. وإذا كانت التقاليد الدينية على حرمتها
ووقارها لم تعد تستطيع البقاء فى البيئات الفرنسية فإن هناك تقاليد
مدنية كتب عليها أن تزول. والعاقل هو الذى يفهم ذلك ويعرف
أن للتقاليد أعمارا كأعمار الثياب، وليس فى مقدورنا أن نقف

حيارى مترددين ننظر إلى الماضى نظرة العطف ، وإلى الحاضر نظرة الخوف ، ولكن من واجبنا أن نفهم بسرعة كيف تقدم إلى الميدان وكيف تتخير أسلحة النضال .

وهذه الأزيمة لا يقتصر شرها على فرنسا ومصر ، ولكنه موزع على أقطار العالم القديم والعالم الجديد ، والانجليز والامريكيون فهموا ذلك أول الناس ، وانحدروا مع الطلبة يشاطرونهم الجسد ، واللعب ، والعمل ، والفراغ ، وقد تلفت الطلبة الانجليز والامريكيون فرأوا أساتذتهم قد عادوا زملاء وادعين يلاعبونهم التنس ، ويماشونهم فى الطرقات ، ويساهرونهم فى المراقص وبذلك انطفأت الثورة وعرف الأساتذة كيف يعيشون فى سلام ! ولكن ما نتيجة ذلك ؟ إنها لنتيجة سيئة ! ولا يمكن أن يقال إنه هكذا يكون العلم ، وهكذا يكون التعليم . وحظ الأساتذة الفرنسيين على شقايتهم وبلائهم أحسن وأفضل ، فللاستاذ أن يجاهد طلبته وأن يحارب جنونهم وشططهم ليردهم إلى الجد ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولأن يجاهد فيخفق خير له من أن يلين فيضيع فالمشكلة فى جوهرها ترجع إلى تكوين الطلبة ، وذلك التكوين لا يتم ولا يؤتى ثمره إلا إن اهتم الأساتذة بايجاد مثل أعلى يكون غرض الجميع ، وهذا المثل الأعلى كيف تتخيره ؟ ومن أى طبيعة يجب أن يكون ؟

لقد خمدت التيارات الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فما عسى

أن نفعل في تسيير الجيل الجديد ؟

الرأى عندى أن توجه العزائم إلى تنويع « العلم » وأن يتخذ منه مثل أعلى تخشع لهيبته القلوب ، ولكن يجب أن يفهم القراء أن هذا « العلم » الذى أدعو إلى تنويجه ليس هو العلم الذى عرفوه والذى لم يرتفع بهم عن الأرض ، بالرغم مما أضاعوا فيه من طوال السنين ، ولكن العلم الذى أدعو إليه هو العلم الذى سما بأصحابه إلى امتلاك ناصية السماء ، وصيرهم سادة فى العالمين

باريس فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠

— انتهى الجزء الأول —

(ويليه الجزء الثانى)

فهرس

— الجزء الأول من كتاب البدائع —

صحيفة	صحيفة
٨٠	١ كتاب العهد الماضي ، تمهيد
٨٧	١ الشيخ محمد بك المهدي
٩٣	١ حياته وآراؤه
٩٥	٥ أسلوبه في الالقاء والانشاء
٩٧	٦ مثال عن (معنى الأدب)
١٠٧	١٠ نقد المثال
١١٣	١٢ مثال ثان
١١٥	١٤ نقده
١٢٣	١٦ آثاره الأدبية
١٢٥	١٧ في سبيل الوفاء
١٣٢	١٨ أخلاق الناس
١٣٩	٢١ الشباب المصري بين التردد والاقدام
١٤٢	٢٧ الغزل في شعر شوقي
١٤٥	٣٤ بين العاطفة والذكاء
١٤٨	٤٠ نجوى القلب
١٥٧	٤٦ الجزل والرقيق
١٦٣	٤٩ ليلى الاعتقال
١٦٧	٥٢ لاتسبوا الدهر
١٨٣	٥٤ شكوى عليل
١٨٧	٥٥ أرواح الكتاب
١٩٨	٥٩ حديث الحب
٢٠٤	٦٤ كيف عرفت الشيخ سيد المرصفي؟
الفرنسية	٧٩ فيه قولان!

(الجزء الثاني)

من

كتاب البدائع

تأليف

الدكتور زكي مبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاحسان جميل ولكن الى من !

رسالة مترجمة عن الفرنسية

لا يمكن الارتياح في قيمة الاحسان من الوجهة الخلقية ؛ بل نرى من الفلاسفة من يفضلوه على العدل ، ويرى في اثره جمالا لا يسمو اليه العدل . ونحن نعرف ما هي حقيقة الاحسان نعرف أنه حب القريب ، والتفضل والعطف على الآخرين ، ونعرف أن الرجل المحسن يتلمس الوسائل لنفع إخوانه والبر بهم ، ونعرف أن الاحسان يسمو بنا إلى تضحية أموالنا وأنفسنا في سبيل الانسانية فيصيرنا بذلك قادرين على الأعمال الجديرة بالخلود

ومن المفكرين من يعارض في الاحسان ، ويرى فيه حياة للشر على الارض ، وعلى رأى هؤلاء يكون المرضى والبؤساء غير أهل للبقاء فن الواجب أن نتركهم ينقرضون بلاشفقة كما يترك الجيش جرحاه ويمضى في طريقه ، لا يفكر في غير الانتصار . وهذا هو الأساس الذي يمكن أن يبنى عليه جيل قوى سليم

ولكن ما قيمة هذا الاصلاح الحسى ، وهو على أى حال محدود

إذا لم ينل إلا بتضحية الأخلاق ؟ إنه لو اوضح أن أشرف العواطف
هى عواطف القلب الانسانى النبيل ، وأن زوالها يرمى الانسانية
بأبشع مظاهر السقوط

قد يعترض بأن فى الاحسان شيئا من السوء ، لأنه يجرح
من يتقبله وقد يناله ، ولكن من الحق أن نعترف بأن كيفية الاعطاء
أفضل من الاعطاء ، وليس من طبع الاحسان أن يهين من يتوجه
إليهم ، فان هناك وسائل لطيفة يمكن بها المحسن أن ينقذ من يعينهم
بدون أن يمس كرامتهم أو يعرضهم للهوان

ومع ذلك لا ينبغي أن يقدم الاحسان اتفاقا ومصادفة ، وإلى
ذلك أشار لا فوتين فى قصة القروى والثعبان إذ قال ما ترجمته :
من الخير أن تكون محسنا ، ولكن إلى من ؟ تلك هى المسألة .
فلمن بعد إذ عرفنا أن الاحسان خير كيف يجب أن نختار
من نحسن إليهم ، ولندكر أولا خلاصة قصة القروى والثعبان ، وهى
تتلخص فى أن فلاحا أنقذ ثعبانا من البرد فلما أحس الثعبان الدفء
هم بلدغ الفلاح ، ففكرة لافوتين ظاهرة ؛ وهى أنه يجب قبل أن
نحسن أن نتخير مواطن الاحسان ، وأن نتجنب إسداء المعروف
إلى الأشرار وجاحدى الجميل ، ولكنها مع ذلك قابلة للنقد ، فان
علمنا بطبيعة من نعاملهم من الأشرار والجاحدين لا يصلح سببا
لترك الاحسان ، فان من الجميل أن نحسن ولو كان جزاؤنا على
الخير شرا ، وعلى البر عقوقا ، ولا يصح أن يكون غرضنا أن نظفر

بشكر من نسدى إليهم المعروف ، وإنما يجب أن تكون غايتنا أن
نمثل دورنا كرجال ، وأن نظهر أبرارا خيرين مهما تكن الحال ومهما
يمكن الجزاء

على أننا مع هذا لا ننكر أن لفكرة لافوتتين قيمتها من الوجهة
العلمية ، ففي أغلب الأحيان يكون الاحسان نوعا من الصدقة ، وإذا
ذاك لا يمر بلا سوء ، فهناك سائلون اتخذوا الاستجداء مهنة مختارة
إذا كانت قليلة المتاعب كثيرة الأرباح ، وفي المدن الكبيرة توجد
عصابات منظمة تعمل ليل نهار لاستغلال عواطف المحسنين ، يوجد
آباء وأوصياء يهربون من العمل الشريف ، ثم يتركون أبناءهم ومن
يقومون على تربيتهم من القاصرين يستجدون الناس في المنازل ، وفي
الطرق والميادين ، ليعيشوا من فيض هذه المهنة المخجلة التي تندى
الجبين ، وهؤلاء يستطيعون الاعتماد على سوا عدهم في كسب القوت
من طريق محمود ، ولكنهم يتركون العمل خسة ونذالة ليعيشوا عائلة
على الأسخياء ، والاحسان في مثل هذه الأحوال تشجيع للبطالة
والكسل ، والعريضة ، والكذب ، والنفاق ، وقتل للطباع السليمة
وإحياء للغرائز الذميمة التي شقيت بها الانسانية وشقي في حربها
رجال الأخلاق ، وهؤلاء السائلون لصوص يسلبون أموال الناس
والاحسان إليهم اشتراك معهم في الجريمة وتأصيل لما يتعودون من
سوء الخلال ، وكثيرا ما أغمض الانسان عينه عن البؤس الفاتك
الذي يغتال البائسين ، لأن هؤلاء السائلين عودوه الاقتناع بأن

كل سائل لص ، وبأن كل متسول محتال ، حتى غفت الضمائر
وقست القلوب

وفي الحق أننا تبيننا غير مرة أننا كنا مخدوعين وأن أموالنا لم
تمض إلى جيوب أولئك الأفاكين إلا عن غفلة وغرة؛ فاعترمنا أن
نقيد ما يشور في قلوبنا من نبيل العواطف وأن نقف جامدين إزاء من
يطلبون المعروف ، وكذلك جنى البؤس المزور على البؤس الحق
وجنى علينا أيضا إذ قسى قلوبنا وزهدنا في صنع الجميل .

فلنبحث إذاً عن مواطن الضراء ، لنبحث عن البؤس الذي
يتوارى خجلاً من أن يراه الناس ، وذلك يضطر السكرام إلى التغفل
في طيات المنازل المغمورة التي أضنى أربابها الفقر ، ومنع الحياء
أهلها من إعلان الفاقة والتعرض لبر الأبرار وفضل المفضلين ، وهنا
يحسن ألا يكون البر مالا يمنح أو خبزاً يعطى ، وإنما يجب أن يكون
البر نوعاً من التشجيع المنتج الذي يساعد المعوزين على أن يعملوا
بأنفسهم وأن يملؤوا بيوتهم من ثمرات ما يعملون

والاحسان حين يقع على هذا النحو ، لا يساعد على رذيلة ، ولا
يعود أحداً الاستجداء ، ولكنه يوقظ القوى في الغافين ويقوى
الملكات التي أضعفها الفراغ وشلها السكون . وهو كذلك احسان
نبيل : فلن يجد من نحسن اليهم غضاضة ، ولا مرارة في تقبل ما تهدينا
إليه الفطرة الشريفة في نقلهم من وهاد الضياع والخنول الى منازل
النباهة وسمو النفس ، والتطلع الى الغنى عن طريق الكدح الدائم

والعمل الموصول

أيها المحسنون!

ليس من البر أن تبثوا في المعوزين حب الاتكال على ما
تقدمون إليهم من المأوى والطعام واللباس، ولكن البر أن تفتحوا
لهم سبل الكسب وأن تذللوا ما يعترضهم فيها من صعاب وعقبات
ليعودوا وهم أغنياء الجيوب، وأغنياء العواطف والمشاعر والنفوس

فقيد القلم والبيان

محمد السباعي

منذ عشرة قرون كان إمام الكتاب في عصره بديع الزمان
الهمذاني يقول:

« والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان،
ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت
أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها، وأضمرت حتى
صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر غيوبها »

فليعذرني القارئ إذا انصرفت عن وصف الموت وجنائه على
عظماء النفوس والقلوب، فذلك فن من القول تناسبه الناس ولم
يدعوا فيه مجالاً لكتاب ولا شاعر ولا فنان

وأريد في هذه الكلمة أن أصف فجيعتي في السباعي وفجيعة الأدب فيه ، والقراء مرجوون أن يتقبلوها كلمة خالية من الزخرف والتنميق ، ومن الترتيب والتبويب ، فهي دمعة مرسلّة في سبيل ذلك الكاتب البليغ ، أو هي على الأصح كلمة إنصاف يوحى بها الوفاء



منذ عشرين سنة كان أشهر الكتاب في مصر خمسة : محمد المويلحي ، وعبد العزيز شاويش ، وعلى يوسف ، ومصطفى المنفلوطي ومحمد السباعي

وكنّ في ذلك الحين طالبا مبتدئا ، وكنّ كثير الشغف بمطالعة ما يكتب الأدباء المعاصرون ، وكان أحبهم إلى قلبي رجلا : مصطفى المنفلوطي ، ومحمد السباعي ، أما المنفلوطي فكان يجذبني إليه طبيعته السمحة ، وقلبه الطيع ، وقلبه الزاخر بالعطف والحنان . وأما السباعي فكان يحملني على احترامه بصره باللغة العربية وذكأؤه الحاد الذي يتمثل في أحياء الألفاظ والتعابير ، ولا أكاد أو من بأنه كان في مصر كاتب آخر وعت حافظته مفردات اللغة العربية وأساليبها بمقدار ما تم ذلك للسباعي ، طيب الله ثراه

ثم تعاقبت السنون وجد ناس غير الناس ، وكتاب غير الكتاب ونقاد غير النقاد ، وتحولت أيضا مع الأيام إلى قارى ناقد بعد أن مثلت دور القارى المستفيد ، ثم كانت تصرفني الشواغل عن مطالعة

ما يكتب المعاصرون وفيهم كتاب جديرون بالاجلال وكان السباعي مما انصرفت عنهم في العهد الأخير .

وفي العام الماضي وأنا في باريس فكرت في العودة الى قراءة ما يكتب السباعي ، وكان قصر أدبه على الصحف التي يصدرها صاحب البلاغ ، فراغني أن أقرأ أدبا حيا جدا لا يقل عمقا وطلاقة عما ينتجه مشاهير الأدباء في أوروبا ، ولكنني لاحظت أن الرجل يدور حول نفسه ، ويبدى ويعيد في شؤون نفسية دقيقة قد يعسر فهمها على جمهور القراء ، وهناك قررت أن أناوشه من باريس على يغضب فيتنوع بذلك ما يقدمه الى قرائه من غذاء

غير أن الرجل لم يخف عليه أني شريف القصد فيما كتبت فكان من ذلك أن بعث الى بالرسالة الآتية :

«قرأت كلمتك التي دجتها عنى يراعتك الرشيقة ، فطرحت عن كاهلي عبئا من الهم ما كان لشيء خلافا أن يريحني من فادحه وأطفأت عن كبدي شواظا من الكمد ما كان لغيرها أن يجيرني من قاده ، ولا عجب فكثيرا ما كنت أشعر أثناء قراءتي بدائع ملحك ونفائسك بآسلاف بين طبعك وطبعي ، وامتزاج بين روحي وروحك ، ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحدنا وتسامرنا ولكن قضى الله أن لا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرفي الكرة الأرضية ، وبيننا المهامه اليد والآكام ، والتناف الفيج والآجام ، وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وأن لا يصلك

صوتي أو يصلني صوتك إلا بعد أن يجوب شطري قارتين ، ويقطع
دقي عالمين ، ويمر بالجسم العديد من أجناس الناس ، وصنوف
البشر وشتى المذنيات واللغات»

وأخذنا نراسل حتى قويت بيننا الصداقة ، وإن لم تصافحه يدي
ولم تره عيناي ، ولما عدت من أوروبا كنت حريصا على مقابلته
ولكنني شغلت عن ذلك بلا عذر مقبول ، وقد ظل يبحث عني
ويسأل المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يكن لنا من التلاقي نصيب.
ومن هذا يقدر القارئ كيف تكون لوعة من يفجع بمثل هذا
الصديق الذي لم تره عيناه



كان السباعي من أهل المرح والطيش ، لا يرى العيش إلا في
منازلة الصهباء ، ومغازلة الأطباء ، فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء
الحياة ، ولكنه في أخريات أيامه استسلم إلى الحزن والابتئاس
واطمان إلى أن جذله حلم يذهب ، ودنيا تزول ، وقد تلقيت منه
الكلمة الآتية وهي تفصح أتم الافصاح عن تبرمه بالحياة وضجره
من الأحياء :

«لقد مضى على شهور وأيام ، بل دهور وأعوام ، وأنا أبكي
مصائب الإنسانية في مصابي وأندب ما بها من كوارث المحن وما بي ،
وأضج لوعة وأنيئا ، وأنتحب حرقه وحنينا ، وتارة أرغى وأزبد

وأبرق وأرعد ، حتى يخيل إلى أن أعين النجوم ترنو إلي شفقة
وعطفاً ، وتدمع على بقطرات النور أسفا ولهفا ، وأن الريح تعول
معى أسي ووجدانا ، والموج يصطفق حسرة لى وتحنانا ، كل ذلك
ولا أسمع من بنى آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتا يلبي
الدعاء ، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافه مواس ، كلا ، ولا
متعجب لى ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنكر ،
ولا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا
«قبض» كآنى أهتف بكلماتى بين رسوم بالية وأطلال ، أو أعكف
على أصنام وأوثان ، وكآنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد
وأنفخ فى رماد ، وكآنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان كما قال القائل :
فما يرتاح للدهح ولا يرتاع للذم
كانا إذ سألناه وقفنا سائلى رسم

وكذلك تعودت فى هذا الشعب الحى «الحساس» أن أتقرب
وأقابل بالصد والاعراض ، وأتزلف وألقى بالجفوة والانقباض
وأستدنى وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ، وأسهر فى صناعة
القلم وأسهد وأكافأ ممن أسهر على مصلحتهم بالوسن والرقاد ، وأزلف
للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد وأجازى بالكفر والاحاد ، حتى
ألفت من القوم هذه المخزيات المخجلات ، ووطنت نفسى على اليأس
من كل خير ، وتوقع كل شر
وأصبحت حرفة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن

من اللذة والسرور كاسفة حزينة ، جافة جذبة ، ناضبة مقفرة من
الطرب والآنس ، بل من العزاء والسلوة ، وأصبح القلم في يدي أشد
بؤسا ومسكنة من المزمار في يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمة أقرب
إلى أنة الثكلى منه الى رنة المسرور ، وأشبه بصوت النعي منه بصوت
البشير ، وكذلك صرير القلم في يدي أشبه بصرير أعواد النعش ،
ولا عجب فانما قلنى نعش لنفائسه يحملها من المهد الى اللحد ، والله
الأمر من قبل ومن بعد»

وهذا الخطاب يصور آلامه في أيامه الأخيرة أتم تصوير :
فقد كان رحمه الله يشعر أبلغ الشعور بأنه مغبون ، ومثل السباعي
كان جديرا بأن يرى نفسه سيد الكتاب أجمعين ، لأن ثقافته كانت
وافية في العربية والانجليزية ، وكان يقبل على الانشاء إقبال المثال
على كرائم المرمز يخرج منها أروع التماثيل ، فكان من الطبيعي أن
يحنق ويهتاج حين يرى غيره أقرب إلى قلوب الجماهير . . . يضاف
إلى ذلك مرارة الخيبة التي عاناها أخيرا في حياته الغرامية ، فقد كان
مفتونا بالجمال أشنع الفتون ، وكانت له انتصارات في عنفوان الشباب
فلما أسن واكتهل تحولت عنه الطباء ، واضطره عقوق الملاح الى
القناعة بالأوهام ، ولننظر كيف يقول :

أيها المحاولة سترجمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة في صحيفة
حياك ، فقرأناها في صحيفة الطبيعة منشورة ، فأنت لم تحتجبي ما دما
نراك في الصباح المنير ، والجدول النмир ، فهلا منعت النجم لمعانه

والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير ألحانه »
ولكن هذه العلالات لم تغنه فتىلا ، فأخذ يصرخ ويتملبل
فى جزع دونه جزع الملدوغ ، حتى قرأنا له هذه الكلمات
الموجعات :

« الحمد لله على تقطع أسباب الأمل ! هذا الغدر والغش والخيانة
هو قصارى حظ الانسان من المرأة التى يهوى ، هذه عكارة الكأس
بعد رشفك رحيقها ، هذا هو الشمع الذى تنتهى إليه بعد أخذك
العسل من قرص الحلية ، هذه جيفة الحب القنطرة !! »

وله فى هذا الباب فصول طوال يندب بها ما كان له من النعيم
فى أيامه السوالف ولياليه الخوالى ، وقد عرف الجمال فى حاله ؛
عرفه فى نبلة ولؤمه ، فلا أهل الجمال لحظات كرم ونبل ، وأيام لؤم
وإسفاف .

وقد كتب إلى يقول :

« فتحت علينا باب الغانيات ، وهذا باب لا يسد ، والخروج
منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، إني ياسيدى لأعرف سحرة ولا
مشعوذين أشد مهارة وحذقا باختالننا ، واختبالنا ، واختبالنا لدى كل
فرصة سانحة ، وبسبب وبدون سبب ، ولجورد اللهو بنا والعبث
بعواطفنا ، ولجورد الضحك علينا من النساء ، وتراهن يلعبن بنا إلا عيبن
بمنتهى البساطة ، وبمنتهى الجرأة والوقاحة ، وبمنتهى الحذق والبراعة
وهذا ياسيدى طبعهن ودأبن يأتينه من مطلع الشمس إلى

غروبها ومن غروبها إلى مطلعها ، وأعجب العجب أنهم في ذلك
جميعه سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفسادات ،
والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفريات ، والرقاقات
والقاسيات »



أنشأ السباعي كثيرا وترجم كثيرا ، ولكنه كان يترجم حين
ينشئ ، وكان ينشئ حين يترجم ، وبيان ذلك أنه كان يعتمد
في الانشاء على ما اختزنه في ذاكرته من المعاني الغريبة ، وكان يضيف
إلى الترجمة ما وعته حافظته من الأخيلة العربية ، فأنت حين تقرأ
إنشاءه تلمح أشباها انجليزية تغدو وتروح بين السطور وحين تقرأ
ترجمته لأدب بيرون ، وكارليل ترى ابن الرومي والمتنبي ، والبحترى
وذا الرمة ، ومن إليهم من شعراء العرب يواجهونك بين ثنيات
الصفحات ، ومن أجل هذا لم يكن بالمنشئ المبدع ، ولا المترجم
الأمين ، وإلا فلو كان السباعي هو صاحب الأفكار التي أودعها
رسائله الكثيرة لفاخرنا به كتاب الأرض قاطبة ، لأن رسائله حوت
الكثير الطيب من الآراء الفلسفية والأدبية في نضج وقوة ، فزيت
ككاتب متفوق ترجع إلى قدرته على « هضم » تلك الثروة الأدبية
الضخمة التي جمعها من أزهير الآداب العربية والأوربية وتصرفه
فيها تصرف المالك الأصل

أسلوب السباعي فن كله ، فهو ينحت الكلام نحنا ، ومن أجل هذا يغلب عليه الغموض ، ولكنه مع غموض أسلوبه يقهرك على الإعجاب به لأن ذكاه يتمثل في جميع ما كتب وما ترجم ، وقد قال فيه المنفلوطي منذ تسعة عشر عاما مانصه :

«السباعي هو أحد كتاب العصر الممتازين بالبراعة في الترجمة من الانجليزية الى العربية ، المعروفين بالتمكن في كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معا ، الا أنه في ترجمته أميل الى التندر بالغريب وتدوين التراكيب الجزلة منه الى السلاسة والركة ، ولعا باللغة العربية وشغفا باحيائها ، فمن لا ينظر الى الكتابة بالعين التي ينظر بها اليها يرى في كتابته أحيانا من التعقيد والمشادة غير ما يراه »

ومن أشهر آثار السباعي ترجمته لكتاب الأبطال تأليف كارليل وكتاب التريية تأليف سبنسر ، ورواية المدينتين لديكنز ، ورباعيات الخيام ، وقد وضع كتابا نفيسا عن بيرون ، ونقل من الانجليزية الى العربية فصولا كثيرة جدا لم يوفق الى نقل مثلها أحد من المعاصرين ، فهو من أقطاب الجيل الحاضر بلا جدال

والى القارئ نموذجاً من ترجمته لكتاب الأبطال نقطفه من الفصل الذي كتبه كارليل عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام :

«كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكانما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طبائعهم

وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط
من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء ، وقيعان ذات أمواه
وأكلاء ، وكان الأعراب صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن
أرضا فقرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى بجمرة النهار
يومه ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت

فيضحي وأما بالعشي فيخضر

ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون

ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكيا القلوب

حداد الخواطر ، خفاف الحركة ، ثاقبي النظر ، وإذا صح أن الفرس

هم فرنسيو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول لقد كان

أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها

من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه

وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ»

وهذه الفقرة تمثل طريقته في الترجمة فهو يضيف إلى الأصل

معاني جديدة ، ولسنا بحاجة إلى مراجعة الأصل لنعرف ما زاده

السباعي في هذه الفقرة على كلام كارليل ، فمن المؤكد على الأقل أن

البيت الذي انتزعه من رائية عمر بن أبي ربيعة وأضافه إلى معاني

كارليل بعيد كل البعد عن نص كتاب الأبطال !

أما البيت



وبعد فقد كان السباعي من أهل التضحية في سبيل الأدب ،
ضحى بمستقبله وطمأنينته في بلد لا ضمان فيه لحملة الأقلام ، لقد
ابتدأ عمله بالتدريس ، ثم رأى مهنته لا تصلح لغير المتزمطين المتوقرين
الذين يرون الدنيا بعيون النائمين ، ورآها كذلك مهنة تفرض على
أصحابها النفاق وتروضهم على العزلة والانزواء ، وكذلك أثر حياة
الكتابة على حياة التدريس ليطلق لعقله وحسه العنان ، ويعيش
عيش الأديب الفيلسوف .

ولكن في أي عهد كانت هذه المخاطرة ؟ كانت في عهد مظلم يحيا
فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم
من أشباه الخواص !

فان ذكرتم أيها الناس أن السباعي قضى أكثر من عشرين عاما
وهو موصول الجذو والكدح في إمداد الجرائد والمطابع والمكاتب
بأروع آيات الترجمة والانشاء فاذكروا بجانب ذلك أنه كان يحيا
حياة العامل المسخر ، أو الأجير المغبون ، وقد كانت تمر عليه أيام
مضجرة لا يعرف أين يكتب ، ومع من يعمل ، وإلى من يتوجه ،
وذلك حظ أكثر الكتاب المصريين الذين لاعم لهم في الحكومة
ولا خال !

فيا أيها الصديق الذى لم تصاخه يدى ولم تره عيناى ، سلام عليك من إنسان لم يوفق إلى السؤال عنك ، وقد سألت عنه فى صدق وإخلاص ، كأنك كنت تقدر أن أجلك قصير وأن من الخير أن تبادر إلى توديع المعجبين بك من عشاق الأدب والبيان ! والله يعلم مبلغ ندى على التفريط فى لقاءك ، وهو المسئول أن يحزبك على أدبك أحسن الجزاء

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣١

كلمة تستحق الخلود

قرأت ما كتب البلاغ عن حضرة السيد أحمد الهوارى أحد قضاة المحكمة الأهلية فى رباط ، فرأيت لهذا السيد كلمة حكيمة يسرنى أن أوجه إليها القراء مرة ثانية وأن أوصيهم بحفظها بين الكلمات الباقية ، وذلك قوله :

« لقد تملكنى الطرب عند ما لمحت رئيس المحكمة يناقش المتهم بعطف ، ويتكلم مع الشاهد بحذر »

تأملوا هذه الكلمة أيها القراء واحتكموا إليها فى حياتكم الاجتماعية ، فأنتم أيضا قضاة تحكمون بين الناس وترفعون وتخفون وفقا للعواطف أو الوشايات ، وكم من رجل ضاعت حقوقه بفضل

الظلم المباحق الذي يقع من قضاة المحاكم الاجتماعية ، التي لم تصدر
بأنشائها مرسوم ولا قانون ؟ إن المغتاب والنمام من شهود الزور
ولكن الناس لا يعلمون ، ومن تقع عليهم الوشايات والنائم هم
أيضا متهمون ولكنهم لا يملكون الدفاع ، لأنهم يحاكمون أمام
محاكم جائرة لا تسأل المتهم ولا تناقش الشهود
إن المحاكم الأهلية والشرعية في مصر جديرة بالاجلال لأنها
عرفت بانصاف المظلومين

أما المحاكم الاجتماعية في مصر فتحول الفضاء العاسع إلى
سجون وتقضى على الأبرياء بالحرمان من أنفس ما يملكون وهو
حسن السمعة وطيب الأحداثة ، بفضل الحرية القذرة حرية
القبيل والقال

المواساة الروحية للمؤلفين

كتب الأستاذ محمد عبد القادر حمزة كلمة كريمة بمناسبة تكريم
مؤلف النثر الفنى جاء فيها هذا التوجيه النبيل :

« جميل أن يكرم الأدباء فى كل مناسبة ، لأن هذا يدل على أن
للأدب فى مصر أنصارا أصبحوا يقدرون جهود العاملين على
خدمته تقديرًا يشجع الأدباء على مواصلة عملهم الشاق متناسين
ما يلاقونه فى سبيل الفن الذى يعشقونه من عقبات ، ولكن هل

يكفى التشجيع الأدبي وحده لدفع الأدباء وحثهم على مواصلة الجهود التي ينفقونها راضين مسرورين في سبيل الأدب المصرى؟ هل يكفى أن تقام للأديب أو الشاعر حفلة تكريم تمتدح فيها أعماله الأدبية الشاقة ومؤلفاته الكثيرة التي أنفق فيها زهرة عمره؟»

ثم مضى حضرة الكاتب المفضل فوازن بين أدباء الشرق وأدباء الغرب، وقال إن أدباء الغرب يجدون من أنصارهم الكثيرين تشجيعاً مادياً يجلب لهم الثروات الطائلة التي تغنيهم وتوفر لهم العيش الرغد والحياة الراضية مدة حياتهم ثم تبقى لورثتهم بعد ذلك أما أدباؤنا فلا يحلمون بشيء مما ينعم به زملاؤهم الغريبيون لأنهم لا يجدون من الجمهور ومن أنصار الأدب الرواج الذي يرجونه لمؤلفاتهم

وأجيب الكاتب المفضل بأن ما يحتاج إليه كتاب مصر وشعراؤها ومؤلفوها هو المواساة الروحية، أما الثروة الطائلة التي تنفعنا في الحياة وتعود على أهلينا بعد الممات فتلك علالة لم أشغل بها نفسى يوماً من الأيام، وأكاد أؤمن بأن الغنى فتنة سخيصة تقضى على عزائم الرجال. على أن الغنى ميسور لمن يطلبه من الكتاب والمؤلفين، والغنى هنا هو «الستر» المعروف في لغة التخاطب، فليس لمؤلف إلى «الثروة الطائلة» من سبيل، وكل ما نرجوه في دنيانا أن يتركنا أهل زماننا في أمان من الدسائس والوشايات والأراخيف كل ما نرجوه أن يشعرنا من نصاحبهم ونعايشهم ونزاملهم

بأننا في بيئة كريمة ترعى العهد وتحفظ الجميل ، كل ما نرجوه أن
لا يشغلنا أحد عن واجبنا في الدرس والتأليف ، وأن نعيش أحرارا
لا يحد من حريتنا شيء غير سلطان الواجب الذي نرى العبودية له
كرامة وعزة ، كل ما نرجوه أيها الصديق أن يحملنا إنصاف من
نعاصرهم على التأدب بآداب الكرام من الناس ، وليس الغنى بعد
ذلك إلا مشغلة للنفس والقلب والروح

وما رأيك في أن مؤلف النثر الفنى خرج من حفلات التكريم
بدرس بليغ هو أنفع وأجدى من الثروات الطائلات ؟ لقد كنت
يأسا كل اليأس ، وكنت أخشى أن يضع كتاب النثر الفنى ، وكنت
أتوهم أحيانا أنى أورط الناشر وأبدد أمواله بلا رحمة ولا إشفاق ،
وكانت نيتى - إن ضاع كتابى - أن أهجر العلم والمدينة وأعود كما
بدأت بين الفأس والمحراث وفى صحبة البقرة والجل ، أتلهى بأنين
الساقية ، وعصف الرياح بين النخيل والأعنان

كانت تلك نيتى ، وكنت أقرب من النهاية يوما بعد يوم ولكن
المعاصرين من أهل الأدب كانوا أكرم مما كنت أظن فما كاد يظهر
كتاب النثر الفنى حتى أقبلوا عليه وانتشلوا المؤلف من وهدة اليأس
والقنوط

إن الذين أقاموا حفلة القاهرة كانوا من الأصدقاء ، فلا غرابة
فى ان يظفر منهم المؤلف بكلمة ثناء
أما الذين أقاموا حفلة الاسكندرية فلم أكن أعرف منهم غير

الصديق على البحر اوى ، وتقدم لمواساتي وتشجيعي رجال لم أعرفهم
من قبل ، وذلك بيد القصيد ، فليس بالقليل أن يهتم بك ناس
لا تعرفهم فيغمرونك بالعطف والوداد ، على نحو ما صنع الأساتذة
عثمان حلمي ، وعبد المعطي حجازي ، وعلى حافظ ، ومحمد فضل
إسماعيل ومحمد حلمي

إن الحقائق المعنوية أنفع من الحقائق المادية في مداواة القلوب
والعزائم والنفوس ، وأنا رجل تقشفت واخشوشنت زمنا طويلا
ولكني لم أشك الجوع مرة واحدة ، ولن أخشاه فيما بقي من حياتي
وكل ما كنت أصبو إليه أن أجد بيني وبين قرائي صلة روحية
أنسى بها لثوم الزمان

لقد كنت أنظر في رعب وفزع إلى الصداقات التي تهدمت من
حول في الأعوام الأخيرة ، وهي صداقات أنفقت في بنائها ما كنت
أملك من كرم الوفاء في عنفوان شبابي ، ولكن شاء ربك أن تقوم
على أنقاضها صداقات جديدة ستكون أقوى وأمتن ، لأنها صادفت
النفس في حالة يأس فردت إليها المسلوب من بقايا الأمل وصبايات
الرجاء

لقد عرفت أن الدنيا ليست شرا محضا كما يتوهم المتشائمون ،
فإن غدر بك صديق فلا تجزع ، ففي الناس خير مدفون ستظهره
الأيام ، وإن ضاع منك مأرب فلا تحزن ففي الدنيا مجالات واسعة
لمن يعرف كيف يجالذ بعزائم الرجال ، وثق بأن حيويتك هي في

دمك وأعصابك ، وأن من المستحيل أن يهدمك غيرك حين تكون
متين البنيان

تلك كلمات أسوقها للكاتب المفضل الذي دعا الناس إلى
مواساة المؤلفين بالوسائل المادية ، واني لأشكر له هذه الإشارة ،
وأرجوه أن يتذكر أن المواساة الروحية أشرف وأنفع ، وهي من
جانب المنصفين عمل جليل نرجو الله أن يجزيهم عليه خير الجزاء

١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤

خطرات

باريس في ١٩ اغسطس سنة ١٩٣٣

النباتيون في باريس

للنباتيين مطعم في الحى اللاتينى لا يعرفه إلا الأقلون ، وكنت
منذ ثلاث سنين اختلفت إليه نحو أسبوعين لأكتب عنه مقالا
مفصلا لجريدة البلاغ ، ثم انصرفت عنه ولم أعد إليه

وفي هذه الأيام بدا لى أن أرجع إلى النباتيين ، ولم يرجعنى
إليهم الا المعدة الضعيفة والجيب السقيم ، وسقم الجيب أسوأ أثرا
من ضعف الأمعاء

وقد دهشت حين رأيت رواد المطعم أقل مما كنت أعتقد ، وفكرت في السبب فرأيت أنه يرجع الى أن ادارة المطعم غيرت نظامه فقد كان الطاعمون يخدمون أنفسهم بأيديهم ، وكانوا يأخذون ما يشاءون من الألوان ، ويكررون ما يستطيعون بلا حساب ، أما الآن فقد أمسى الطاعمون يخدمون على الموائد ، ويدور عليهم غلمان مقترون لا يخرجون قيد شعرة عن جريدة المائدة ، وزاد ثمن الأكلة خمسين سنتيا ، وهذا وذاك كان السبب في انصراف أكثر زبائن المطعم ، وكانوا من قبل يمدحونه ، ويرون فيه المثل الأعلى للفكرة النباتية التي تبالغ في التحفظ فتحرم السمك والبيض ولهذا الملاحظة نتيجة لا تخفى على القراء ، فأكثر الناس يتفلسفون وليسوا فلاسفة ، ومنهم من يخفى أطماعه وأغراضه بستار من المذاهب الأدبية ، والأخلاقية ، ومنهم من يدافع عن رأى لا يؤمن به ، ولكنه يرى في الدفاع عنه بعض النفع

الحميون والنباتيون

يرى النباتيون أن الانسان نباتي في أصل الخلقة ، وحجتهم أن أنيابه أضعف من أن تنهش اللحم ، بدليل أنه لا يستطيع أكله إلا مطبوخا أو مشويا ، فاذا قدم له اللحم نيئا عجز عن مضغه ، وهو إذا استطاع مضغه بعد تليينه ببعض التوابل كان معرضا للحمى الفتاكة ، كما يقع ذلك لأكلة اللحم النيء في بعض الأقطار الافريقية وعندى أن الانسان لحمي أيضا بالفطرة ، ولا عبرة باحتياجه

إلى شئ اللحم وطبخه ، فانه وصل إلى هذا بذكائه والذكاء للانسان
كالناب للأسد ، ألا ترون كيف تحمد الشجاعة فيمن يصول أسدا
مع أنه لا يستطيع ذلك إلا بقوة السلاح ، والسلاح من عـدة
الانسان الطبيعية ، فهو الذى اخترعه وهو عنده كالآنياب والمخالب
عند السباع

وقد جربت بنفسى أثر العيشة النباتية فرأيتهـا خطرة العواقب :
لأنها تخمد جذوة الاقتراس فى الانسان ، واللحم هو أصل الاقتراس
أما النبات فيفطر آكلية على الوداعة واللين ، ولو شاء القط على
نحافته لروع الجمل على ضخامته ، لأن القط آكل لحم ، والجمل آكل
عشب . وفى الأيام التى أقصر فيها على المواد النباتية أراى هادئا
مسالما لا أفكر فى مهاجمة أحد من خلق الله ، ولعل هذا هو السر فى
أن الأستاذ فريد وجدى صار من ألبن الكتتاب قلما ، فهو لا يجادل
إلا بالتي هى أحسن ، ولا ترى فى كتابته جملة واحدة تحمل معنى
من معانى العنف .

وقد جادلته مرات على صفحات البلاغ فكان لطيفا رقيقا ،
أما أنا فيكنت أنلطف وأترفق ، والفرق بعيد بين من يرق ويلطف
بالطبع ومن يتكلف الرفق واللطف

اللحم والشهوات

ومن مزايا الحياة النباتية أنها تخمد الشهوات ، وفى هذا شئ
من الخير ، ولكنى أخشى أن يكون فيه كذلك شئ من الشر ، فان

الشهوات هي أساس العظمة المدنية ، ولو خمدت شهوات الناس لفقد العالم ثلاثة أرباع ما فيه من المصانع والمتاجر والمكاتب . ولكل عظيم من عظماء العلم والأدب والسياسة شهوة حفزته إلى ميادين المجد ، والشهوات مصدرها أكل اللحم ، فلو قاطعناه وتابعنا النباتيين لعدنا فكرة مسالمة في هذا الوجود ، والمسلمون هم أقل الناس حظا في الحياة لأن الحياة عراك ونضال وقتال

ولو استقصينا مذاهب المصلحين في العالم لرأينا للحميين كانوا أنفذ أثرأ من النباتيين . وفي الموازنة بين الاسلام والمسيحية تفسير لذلك ، فقد ظلت المسيحية معطلة حيناً من الزمان إلى أن قام بأعبائها رجال أشداء ، أما الاسلام فنهض على أكتاف أبنائه منذ اللحظة الأولى ، لأن القرآن نهى من امتنعوا عن أكل اللحم بقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) فهو يروضهم على القوة ، ولكنه ينههم عن الاعتداء ولا ينهى عن الاعتداء إلا الأقوياء ، أما الضعفاء فيوصون بالصبر والاحتمال

وحال الانسان كحال الطير والحيوان : ففي عالم الطير لا يكون الجوارح إلا من أكلة اللحم ، والحمامة يضرب بها المثل في الوداعة لأنها من أكلة الحبوب ، وفي عالم الحيوان لا يكون الاقتراس إلا من أكلة اللحم ، أما أكلة الاعشاب فضعاف ، وهم وحدهم المسخرون للانسان من دون سائر الحيوان

المسلمون والأقباط

وهنا فكاهة لا بد من إيرادها ترويحاً للنفس ، فقد سألني أحد رواد المطاعم عن وطني ، فأخبرته أنني مصري . فسأل : أكنت تأكل اللحم في بلدك ؟ فقلت : إى والله ! فقال : أنت إذن قبطي فقلت : لا ، أنا مسلم ، فقال : وكيف تأكل اللحم وتخالف مواطنيك من المسلمين ؟

وأردت أن أعرف سر هذا الجهل الطريف فقدم لى نشرة نباتية فرأيت فيها ما ترجمته :

«ومما يدل على أن اللحم مضر وأنه يسير بآكله إلى الانقراض أن أقباط مصر صاروا على الزمن أقلية صغيرة جدا ، فقد آثروا سكنى الحواضر واستمروا يأكلون اللحم ، بخلاف المسلمين في مصر فانهم يسكنون الأرياف ولا يأكلون غير البقول ، ولذلك صحت أجسامهم ، وطالت أعمارهم ، وكثرت ذريتهم حتى شارفوا في العدد أكثر من خمسة وتسعين في المائة من مجموع السكان وذلك بفضل الحياة النباتية التي درج عليها المسلمون هناك »

ومن الواضح أن هذا جهل ، فان أقباط مصر قد يكونون نباتيين أكثر من المسلمين بسبب الصوم الذى يمتنعون فيه أشهراً عن لحم الحيوان وما يستخرج من الحيوان

ضجيج المعروف

تطل الغرفة التي أسكنها على شارع هادئ، يصل شارع المدارس بشارع مونج، وفي الشوارع الهادئة يتجول المغنون في الطرقات. وبالأمس قبيل العشاء (بفتح العين) وقف مغن رخيم الصوت وبصحبه زمار لبق، وأخذ هذا يزمر وذاك يغنى، وأقبل السا كنون من الجانبين يتطلعون من النوافذ، واجتمع الأطفال حول الزامر والمغنى، وبعد لحظات شرع السا كنون يرمون أوراقا ملفوفة فيها نقود، ولاحظت أن بعض الأوراق يسقط فلا يسمع له ضجيج، وبعضها يرن رنينا قويا صخابا، وتأملت فعرفت أن الأوراق التي لا يسمع لها ضجيج هي الأوراق التي تحمل نقودا قيمة من فئة الفرنكات، أما الأوراق الصخابة فتحمل فلوسا سخيقة من نوع الخردة، وقد اتفق أن لففت جملة من هذا النوع تساوى أربعة ملليمات وألقيت بها إلى المغنى، فضج بها الشارع ضجيجا مفرعا وكانت مع الأسف ملفوفة في ورقة تحمل حروفا عربية، فأسرعت وداريت وجهي حتى لا يقول المغنى: من أين جاء هذا الاعرابي البخيل!

أىكون المعروف كذلك في جميع الأحوال: يصمت فلا يتكلم حين يكون نفيسا، ويصخب ويثرثر حين يكون سخيقا؟ إن الرجل الذى يصنع المعروف للمعروف يكون فى الأغلب من الصامتين،

ويكون كذلك من الأسخياء الذين ينجلون من إعطاء القليل ، أما
الذى يصنع المعروف حبا في الثناء فهو ثرثار صخب ، وهو في
الأغلب يجرود جود الأشحاء ، وقد يكون ممن عناهم المتنبي حين قال:
جود الرجال من الأيدى وجودهمو

من اللسان فلا كانوا ولا الجود
وجود اللسان هو أكثر ما نرى في هذه الأيام ، فكم رجل تلقاه
فيحدثك بأنه معجب بك وأنه لا يذكرك إلا بالخير في غيبتك ، فإذا
جد الجد وعلم أن كلمة الخير تؤدي إليك بعض المنافع أسرع فطواها
عنك في المحضر والمغيب ، ثم اندفع فقال فيك ما يقول السفهاء
فيارب إن الناس لا ينصفونني وكيف ولو أنصفتهم ظلوني

الأمم والحكومات

تعود الشرقيون منذ أجيال طوال أن ينتظروا من حكوماتهم
كل شيء ، مع أن الحكومات لم تقم في الاصل على خدمة الشعوب
إنشاء وتعميراً ، ولكنها قامت على أساس الفصل بين الناس حين
يختصمون ، ودفع عدوان القوى على الضعيف . ونظرية الحكومة
تقتض ذلك ، لأنها فيما توهم الفلاسفة نشأت عن نزول كل فرد

عن جزء من حريته ليتكون من تلك الحريات مجتمعة سلطة تقوم بها هيئة تنفيذية تتولى حفظ التوازن في حياة الشعوب

ولكن الأمر انعكس في الأمم الشرقية ، ولعل السر في ذلك أن الحكومات في الشرق تتكون في الأغلب من رجال هم الصفوة الممتازة من حيث الثقافة والمال ، فتعود الناس أن يروا صورة الأمة في وجه الحكومة ، ونتج من ذلك أن خمد النشاط الشعبي خمودا مخجلا ، وانطلق الأفراد يتكلمون على حكوماتهم في كل صغيرة وكبيرة ، حتى ضخمت السلطات الحكومية ضخامة هائلة ، وصارت الأمم تعرض للخوف والجوع إذا تولت الأمر حكومة جائرة أو ضعيفة ، وذلك مصير كل أمة لا تعتمد على نفسها ولا ينصب لها في دفع الشدائد ميزان فان شاء القارىء مثالا لهذا الرأي فانا نقدم له الحكومة المصرية وهي الحكومة التي تنفق أكثر من ثلث إيرادها على الموظفين ، فهي حين تكسب دينارين بيد الموظف تعطيه نحو النصف وتأخذ النصف والنصف الذي تأخذه لن يدخر ، ولكنه يعود رأس مال يعمل به موظف جديد ، وهكذا دواليك !

وقد يقال إن هذا لا خطر فيه فان الحكومة حين تحتكر الأعمال الانشائية إنما تؤدي عملا هو في روحه من الأعمال الشعبية ، وهذا في ظاهره حق ، ولكنه في صميمه ضلال ، فان الموظف الحكومي لا يعمل إلا معشار ما يعمل الرجل الحر ، ولو شئت لضربت المثل بمطبوعات دار الكتب المصرية فان كتاب الاغاني يقوم بتصحيحه

ثلاثة من الموظفين الأدباء ، وقد أخرجوا خمسة أجزاء في ثمانية أعوام ، فكلفت هذه الأجزاء الخمسة ألوفا من الجنهات ، ولو قام بتصحيح الأغاني أديب غير موظف لأخرجه كاملا في عامين ، وربحت الأمة ذلك الفرق الهائل المسبب عن شلل الآلات الحكومية^(١)

ومثل ذلك يقال في أكثر الأعمال التي تقوم بها الحكومة والتي أذاعت المثل المعروف « يوم الحكومة بألف » ولولتفتنا إلى الأمم الأجنبية لرأينا الأعمال العظيمة لا يقوم بها غير الهيئات الشعبية ، وهي هيئات تتنافس وتختصم في سبيل الكسب الشريف ، فالمواصلات الأساسية وطرائق التعمير والانشاء تقوم على كواهل الأفراد أو الجماعات الحرة ، ووظيفة الحكومة أن ترأب وتعاون إذا اقتضى الحال ، ولذلك أثر فعال في إذكاء الحماسة الفردية ، فالشاب المتوثب إلى العمل الحر يجد أسبابه حيث اتجه ، ويثق ثقة مطلقة بأن حظه في يده ، وأن النشاط والاستقامة خليقان باحلاله المحل الذي يليق بمواهبه الخلقية والعلمية ، وبذلك لا يتخلف إلا العجزة الضعفاء والذين يحيون هذه الحياة يجدون وقودا لمواهبهم في كل وقت لانهم يستمدون الغوث من قلوبهم وعزائمهم ، ولا يرجعون إلى حكوماتهم إلا عند الفصل في الخصومات

ولك أن ترجع إلى ملفات المحاكم الأوربية والمحاكم المصرية فترى القضايا الشخصية عند أهل أوربا في المحل الثاني ، أما قضايا^(١) وليت هذه الأعوام الثمانية وآلاف الجنهات أنتجت من عمل الأدباء الثلاثة ثمرة ناضجة اه مصححه

الشركات والجمعيات فلها المكان الأول ، لأن الناس هناك يختصمون في سبيل الدنيا ، أى في سبيل المادة التى تخفض وترفع ، والمادة هى أساس المدنية فى هذا العصر ، واشتباك المنافع المادية هو أساس العظمة عند شعوب هذا الزمان . أما محاكم مصر والشرق فللمنازعات الشخصية فى ملفاتها مكان بارز كل البروز ، وإذا اختصم الشرقيون خصومة مالية فتق كل الثقة أن أغلبها يدور حول المال الموروث ، أما النزاع على المكاسب الجديدة العاصمية فنزاع لا نعرفه إلا قليلا . وفيهم نختصم وأقوانا ساعدا هو من يحتفظ بتراث أمه وأبيه ؟ !

وهذا يرجع كما قلت إلى الاتسكال على الحكومة التى تحتكر عظام الأعمال ، فصار أغنياء العصر هم الوارثين والموظفين ، أما الوارث فلا أنه استند إلى ماترك الأموات ، وأما الموظف فلا أنه اعتمد على منافع ثابتة هى مرتبه الذى يناله بأيسر جهد

وقد نبتت فى هذا العصر ناشئة جديدة تريد الاقدام على الأعمال الحرة ، ولكنها حين تتصل بالصحف تكتب أول ما تكتب فى الشكاية من المحسوبة ، فهم إذن يتصنعون شمائل الأحرار ، فيسير الشاب منهم ولسانه ومظهره يغريان بالحياة الحرة ، ولكن قلبه قلب الشاب القديم الذى درج على حب التمرغ فى وحل الميرى وترابه ، والعياذ بالله ! إن مصر لا تشكو ظمأ ولا جوعا ، لأنها بلاد خصب لا يموت فيه أحد من الجوع ، ولكنها تشكو فقد العزائم والنفوس ، ففيها وحدها يعز الموظف وهو ذليل ، وفيها تقاس أقدار الناس بما يقبضون ، والموظف

الذى يزيد مرتبه خمسة ملايين عن مرتب زميله يشعر بالتفوق عليه لأن الخمسة المليون لم تزد عبثا ، وإنما كانت دلالة على أنه عبقرى موهوب !

والعظمة النفسية قلما تكسب صاحبها مجدا فى هذه البلاد ، لأنها تبعده عن مواطن الكسب فى أرض لا يتولاها إلا الحكوميون ، ولهذا يمشى الرجل الكريم منكس الرأس ، لأنه يعرف أن أهل بلده يرون فى وجهه صورة الرجل المغبون

والأم يستمر هذا الحال البغيض ؟ لقد طفح الكيل ، ولم يبق إلا أن يفكر الناس تفكير أجديا فى صيانة العظمة النفسية من عدوان المطامع والأغراض

ألا ترون أن الشركات الأهلية أعزت أصحابها ، ألا ترون أن طلعت حرب على كرسية فى بنك مصر أعز من أكبر وزير تعصف به أهواء السياسة صباح مساء ؟

فلم لا يقبل المصريون على أمثال هذه المنشآت فيصبرونها عشرات ومئات ليقبوا الشباب عادية التملق والتزلف إلى الوزراء والوكلاء ؟

إن مرض التوكل على الغير مرض وويل ، وهو السبب فى قتل المواهب فى مصر والشرق ، وحرب هذا المرض فرض على الكتاب والشعراء والخطباء ، فليذكر كل مفكر أن من واجبه أن ينقذ العظمة النفسية من هذا الداء ، وليتذكر أن كل شاب يوجه وجهة صالحة إنما

هو حجر سليم في بناء هذا الجيل الجديد . ألا قد بلغت ، اللهم اشهد !

٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣

اشجان

أنا أكيد زمانى !

جرت بينى وبين صديق عزيز المحاورة الآتية :

الكاتب - أتذكر الشاعر الذى قال :

أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يرضى
وغالني الدهر بوفر الغنى فليس لي مال سوى عرضي
لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع

في الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنت عيني من الغمض

الصديق - نعم ، أذكره

الكاتب - وتذكر أنك تحدثت عنه في جريدة البلاغ ؟

الصديق - نعم

الكاتب — وتذكر أنك جعلته من مفاخر مصر الشاعرة

الصديق — ولا زلت أقول بذلك

الكاتب — فإني أن تلاحظ أنه شهادة على مصر !

الصديق — وكيف ؟

الكاتب — إن هذا الشعر يدل على أن مصر كانت في أيامها

الخوالي، كما هي اليوم ، تغل بنينا من الكتاب والشعراء ، وتسومهم

سوء العذاب !

الصديق — ليقبل هذا غيرك ، ياسيد زكي ، فإن الدنيا تنتظرك

ألمست على أهبة الرحيل إلى باريس ؟ أو ليس معنى ذلك أنك في

حياتك حر طليق ؟

الكاتب — لا ، يا صديقي ! لا شيء مما ظننت ، فليس في حياتي

طلاقة ولا حرية ، ولكني أكيد زمني !

الصديق — تكايد زمانك ؟ نعم ما تفعل ، وليتك تدوسه

بقدميك !

فيا أصدقائي في مصر . كابدوا زمانكم ، كما كابدت زمني

وأنت يادنيا . إنك لا أرخص من أن يحزن في سبيلك رجل

نبيل

الوطن الغالي

رحلت عن مصر خمس مرات ، وكنت في كل مرة أغمض عيني

عند صغير الباخرة حتى لا أودع شواطئ الاسكندرية ولا أفن

النفس بفراق ذلك الشجر الجميل ، وكان سر ذلك أنى كنت أشعر
دائما بأنى أعيش فى وطنى عيش المغبون ، وكانت تمر بى لحظات
ضجر وملال أكاد أمزق فيها مذكراتى عن اللغة والأدب ، وهى
مذكرات نفيسة تعد بالآلوف ، وكنت أقول : لمن أصنع هذا الصنيع
وأين التلامذة النجباء الذين أصفهم هذا السكنز الثمين
وكان يحزنى أن أوقن أن أحجار مصر لا تنطق ، ولو نطقت
لأثنت على أبنائها الأوفياء .

وكانت الآمال التى بددتها الليلالى تتمثل لخاطرى كلما حان
الرحيل فأتجلد وأنكف الصبر على فراق الوطن الغالى ، وأسرع إلى
مخدعى فى قرار الباخرة لاتناسى لحظة الوداع
وفى هذه المرة صنعت مثل الذى كنت أصنع ، ولكن لم تمض
دقائق على فراق الشاطىء حتى سمعت باخرة تصفر صغير النحية ،
فقطعت فرأيتها باخرة عائدة إلى الارض المصرية ، وعندئذ خفق
قلبى خفقانا شديدا ، وقلت فى تحرق وتلهف :
« ما أسعد العائدين ! »

قهوة سوفليه

هل يعلم أستاذنا الدكتور منصور فهمى أن قهوة سوفليه أغلقت
وحل محلها الخراب ؟

لقد كانت هذه القهوة منتدى الطلبة المصريين منذ عشرين عاما
وكان للدكتور منصور فيها ذكريات ، وفى إحدى غرفاتها اجتمع

به الطلبة الشرقيون من مختلف الأقطار وألفوا جمعية كانت تسمى « الاخاء الاسلامي » وفي أبنائها رنت أصوات الخطباء باللغة العربية دفاعا عن الاسلام

كانت تلك القهوة في أجمل بقعة من بولفار سان ميشيل ، وكان الجالس هناك يستقبل بصره الشره من ترميم الأهواء من البولفار أو شارع المدارس أو شارع مدرسة الطب أو شارع راسين ، وكانت بطبيعة موقعها مألّف ظباء ، وكان الصيد فيها مباحا إلى أخريات الليل ، وكانت في أيامها الأخيرة ناديا للكسالى الفضلاء من الطلبة المصريين . وأحسب أنه لم يسقط طالب مصري سقطة عليّة أو خلقيّة إلا ولقهوة سوفليه نصيب من الفضل في ذلك السقوط . ولهذا شهد الطلبة إغلاقها بقلوب حزينة ، وعيون دامية ، ولم يمنعهم من الموت جزعا عليها إلا التمسك بأهداب الصبر الجميل !

لقد تفرق رواد قهوة سوفليه - واأسفاه ! - فذهب فريق إلى قهوة السورس ، وفريق إلى قهوة الكابولاد ، وأصبح سوفليه وكأن لم يكن بالأمس ولم يبق في أذهان عشاقه إلا مغالطات الجرسون حين يدور الرأس ويعزم اللب على الرحيل !

الدنيا فانية ، حتى دنيا باريس !

باريس في ٢٨ يوليّه ١٩٣٣

المكتبة المصرية

المكاتب من أهم المقاييس في تقدير الحضارة والمدنية ، فهل عندنا مكاتب تمثل يقظتنا العقلية والأدبية ؟! لننظر أولا في القاهرة ، هل يوجد فيها مكتبة واحدة تمثل نهضة الأدب الحديث ، هل توجد مكتبة كل ذخيرتها مما أبدع المعاصرون في العلوم والفنون والآداب لا تذكرها مكاتب الفجالة ، فهي على كثرتها مكاتب مدرسية ، والكتب المدرسية لو وضعت عند باعة الخبز والفول لذهب الطلبة فاشتروها من هناك ، ولا تذكرها المكاتب الأزهرية ، فليس فيها كتاب من الأدب الحديث ، وهي مع ذلك لا تمثل شوق المصريين إلى الدرس لأنها في الأغلب تباع في غير مصر ، ويقرأها طلاب العلوم الدينية واللغوية في بقية الأقطار الإسلامية . فإذا يبقى في القاهرة من المكاتب ؟ كان عندنا ناشر مصري هو صاحب المكتبة التجارية وكان يهتم بالأدب الحديث ! ولكن الأيام علمته كيف يقبل على الكتب القديمة فيبيعها من مراقدها ليتصل بالمسلمين في جاوى والهند ، وتلك رجعة خطيرة ستكون من مقاتل الأدب الحديث والاسكندرية ؟! من كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية ، مع أن فيها مكاتب كثيرة لنشر المطبوعات

الفرنسية والانجليزية والاطالية . قد يكون فيها مكتبة أو مكتبتان من النوع الهزيل الذى يفضحنا إذا قيس بما هنالك من المكاتب الاجنبية . هذا والاسكندرية هى العاصمة الثانية وفيها من المدارس والمعاهد ما يغرى بالتفنن فى إنشاء المكاتب ، لو كان عندنا قراء يقبلون على الأدب الحديث . وبور سعيد ؟ إن القارئ يجب أن يعلم أن بور سعيد تزدان بطائفة من المكاتب الأجنبية ، وليس فيها مع ذلك مكتبة مصرية واحدة ، فكيف كتب الكسل والتغافل والخمود على أهل هذه البلاد ؟

وأسيوط ؟ أسيوط المدينة الرشيدة التى تعد عاصمة الصعيد ، هل فيها مكاتب مصرية ، وهل يستطيع المتشوف أن يصل إلى كتاب حديث وهو فى تلك المدينة الحافلة بالأندية والمدارس والمعاهد ، وأسوان ؟ أسوان المدينة التى يؤمها ألوف الأغنياء والمتقنين فى كل شتاء ، هل استطاع المستنيرون فيها أن يديضوا وجه مصر بمكتبة واحدة تذكر بأمثالها فى المدن التى يزورها كبار الناس ؟

إن فقر « المكتبة المصرية » عار على مصر ، وهذا العار يحمل أوزاره المتعلمون الكسالى الذين يقل تطلعهم وتشوفهم إلى ما يجد فى سوق العلوم والفنون والآداب . وبعض هذا العار يرجع إلى الأساتذة الذين يندر أن يحدثوا تلاميذهم عن كتاب جديد ، وكيف وأكثر المدرسين يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش وهم على غفلتهم يتعاملون ويتفاحسون ، لأن الزمن الغادر مكن الكسالى

من دور التعليم والشقيف ؟ !

في مثل مدينة القاهرة من المدن الأوربية والأمريكية توجد
مكاتب خاصة بالطب ، ومكاتب خاصة بالقانون ، ومكاتب خاصة
بالفلسفة ، ومكاتب خاصة بالأدب ، ومكاتب خاصة بالطيران ،
ولكن عاصمتنا لا توجد فيها مكتبة واحدة تجمع ما أبدع المعاصرون
في تلك الفنون ، فياضعة العلم والأدب في هذه البلاد !!

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

بعض الحقائق

يحلو لبعض الناس أن ينشر شذرات في الصحف تحت عنوان
«هل تعلم» ؟ كأن يقول : هل تعلم أن الانسان يمشى على ثنتين وأن الجمل
يمشى على أربع ؟ وهل تعلم أن النيل اسم نهر ، وأنه يجري في بلاد
تسمى مصر ؟ وهل تعلم أن الارض هي الأرض وأن السماء هي
السماء ؟ !

وقد رأيت أن أسلك هذا المسلك في هذه الكلمة القصيرة فأنشر
هذا السؤال :

هل تعلم أن لغة الدواوين في مصر هي اللغة الانجليزية في كل قلم
يرأسه رجل انجليزى ؟

من : د. محمد مصطفى

تأمل هذا السؤال وافهم جيداً أنه حق ، ففي كل وزارة وفي كل مصلحة ، يوجد عدد من الموظفين الانجليز أصحاب النفوذ ، وهؤلاء يفرضون الانجليزية على مساعديهم من المصريين ، فلا يكتب خطاب إلا بالانجليزية ، ولا يدون حساب الا بالانجليزية ، ولا تحرر ملفات الأعمال إلا بالانجليزية ، ولا تلقى تحية الصباح الا بالانجليزية !
ولك أن تسأل عن مصير الموظفين الذين يراضون هذه الرياضة السكسونية ، والجواب سهل فهم الجيش المنظم الذى يتملأ صباح مساء من فقر اللغة العربية ، ويتكلم فى القهوة وفى الطريق وفى الديوان عن محاسن اللغة الانجليزية . ولهم العذر فى ذلك ، فانهم لا يرون السلطان لغير الانجليزية ، والألفة باب الى الحب ، أما اللغة العربية فمهجورة لديهم ، والهجر باب الى البغض .
أفتونا أيها الناس

إن أولئك الانجليز موظفون فى الحكومة المصرية ، وكان مفهوم ما أنهم يؤدون امتحانا فى اللغة العربية ، فكيف ساغ أن يتجاهلوا أول شرط من شروط الخدمة ، وكيف لان المصريين فرضوا أن تكون السيادة فى الدواوين للغة غير لغة البلاد ؟!

إن التهاون فى هذه المسألة سبهم بصوب الى صدر القومية المصرية فان الموظف الناشئ الذى يكتب فى الديوان بلغة غير لغته تروضه الحوادث يوما فيوما على الاطمئنان الى أنه فى وطنه ذيل لارأس ، وفى هذا تبديد للقوة المعنوية فى نفوس الموظفين

إن الحكومة المصرية تبالغ في مجاملة بعض الناس ، وتنسى في سبيلهم ما يوجب العدل والذوق ، فهل آن لنا أن نعرف أن المجاملة قد تكون أحيانا إشارة الضعف ، وأن الضعيف المجامل لا يقابل في الأغلب بغير الجحود؟؟

١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣

حيرة مؤمن

بين الورق والذهب

كنت أحرر جريدة الأفكار في سنة ١٩٢١ وكان البريد يحمل إلينا رسائل كثيرة يشكو فيها الأسكندريون من ضريبة الملاهي التي تفرضها البلدية ، وكنت بعد قراءة كل رسالة أتملأ وأقول : « ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أتخدمهم البلدية بالمجان ؟ !

وفي صيف ذلك العام ذهبت إلى الأسكندرية أصطاف ، وفي أحد الأمسية توجهت إلى ملهى على الشاطئ ، ودفعت خمسة قروش ثمن تذكرة ، فلما هممت بالدخول دفعني الحاجب وقال « هات قرش البلدية ! »

فغضبت وقلت . « الآن عرفت أن شكوى الأسكندريين

حق ، وأن عمل البلدية باطل ! »
ولما عدت إلى القاهرة أخذت أنشر رسائل الأسكندريين
ضد البلدية ، وأضيف إليها بعض الفقرات !
وفي شتاء هذا العام هاج قدماء الموظفين من الأجانب يطلبون
قبض معاشاتهم ذهباً لا ورقاً ، فكنت أتملأ وأقول :
« ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أيسعون لتنفيذ خزائن الحكومة
المصرية ؟ »

والآن ، وأنا أتأهب لحج بيت الله الحلال في باريس ، أفكر
في مرتبي الذي أتناوله من البلاغ ، وأنظر كم يكون بالعملة الفرنسية
فأراه لا يسقيني ماء في بلاد لا تشرب الماء ، ثم أفكر فأرى أن
الذين طلبوا معاشاتهم ذهباً لم يكونوا على ضلال !
فيا أيها الحكومة الكريمة ، ادفعي ذهباً !
ويا أيها البلاغ الكريم ، ادفع ذهباً !

٢٩ يونيه سنة ١٩٣٣

بعض المدارس الأهلية

لا أذكر أني كتبت شيئا في مهاجمة المدارس الأهلية ، لأنني أعتقد أنها أدت خدمات كثيرة كانت تعجز عنها وزارة المعارف العمومية ، والاعانات التي تمنحها الحكومة لتلك المدارس هي الشاهد على صدق ما أدت من الخدمات ، فان وزارة المعارف لاتعين المدارس الأهلية على سبيل الصدقة والاحسان ، ولكنها تعينها على أساس أنها تؤدي خدمات علمية كان من واجب الوزارة أن تؤديها لو ساعفتها الظروف

وقد أكثر الناقدون من اتهام أصحاب المدارس الأهلية بحب المال ، ولم أشأ أن أشاركهم في ذلك ، لأن التعليم من أبواب الرزق ومن حق المعلمين ونظار المدارس أن يطمعوا في الرزق الحلال

ولكن خيرا صغيرا تافها طرق أذني عن بعض أصحاب المدارس الأهلية فاقشعر له بدني وتمثلت فيه أشباح الخطر المخيف . والخبر صغير تافه كما قلت ، ولكنني أراه ينذر بسيء العواقب ، وهو يتلخص في أن بعض نظار المدارس الأهلية لا يرى مانعا من أن

يدخل التلميذ إلى مكتبه وفي يده سجارة
إنه لخبر صغير حقا ، ولكن مارأى القارىء فى أنه ينذر بداهية
شعواء . إن عادة التدخين عادة سيئة حين يعرفها الرجال ، فكيف يكون
قبحها حين يتعودها الأطفال

إن عادة التدخين عند الشبان هى السبب الأول فيما ينحدرون
إليه من سفالة الأخلاق ، والقارىء قد يعجب من ذلك ، لأن
السجارة قليلة الخطر ، ولكن عجبه يذهب حين يعلم أن التدخين
يفتح للتلميذ نفقات إضافية لانقل عن خمسة قروش فى كل يوم ،
ومن أين يجد المسكين هذه القروش حين تضطره المخرجات إلى
كتمان مرض التدخين عن أهله وذويه ، لا تعجبوا إن قلنا لكم إن
الأمراض الأخلاقية التى تهدد شبان اليوم مصدرها التدخين ، فالشاب
حين يقترض ثمن السجائر من جار أو رفيق قد ينتهى إلى حجارة
نفسية يضيع بها عليه الشرف أغلب الأحيان

والناظر الذى يستقبل التلميذ فى مكتبه ويراه يدخن ولا ينهيه
ما قيمة ذلك الناظر بين رجال التربية والتعليم ؟ إن قبول هذه
الصغائر أو السكوت عنها لا يلىق برجل يتصدر تهذيب الناشئين
وجبن الناظر عن طرد تلميذ يبت عادة التدخين بين إخوانه هو جبن
أمام القناعة وضبط النفس عن حب المال ، فإن التلميذ فى بعض
المدارس الأهلية لا قيمة له إلا ما يقدم من المصروفات المدرسية ،
وتلك المصروفات تعود أحيانا من الحرام البحت الذى يتورع عنه

كرام الناس

إن حرم المدرسة يجب أن يصاب من كل دنس ومن كل زيف ومن كل انحراف ، ويجب أن يعلم النظار والمدرسون أنهم لا يستطيعون رياضة الطلبة إلا إن عرفوا بالحزم ومثانة الأخلاق

والناظر المتهاون الذى يرى بعينه انزلاق الطلبة إلى مهاوى الترف السخيف ثم لا يطردهم أو لا ينهائهم هو رجل يخاطر بمدرسته بمخاطرة حمقاء ، فإن التلميذ الفاسد يشعر فى أعماق نفسه باحترام الناظر الذى يفهم واجبه ، فلا يظن بعض النظار أنهم يتوددون إلى التلامذة ويقربونهم إليهم بالتسامح فى الصغائر التى تجر الناشئين إلى مهاوى الضلال

ورجال التربية مسئولون عن اصلاح الفاسدين ، وهم خليقون بالنقمة إن تسبب تهاونهم فى إفساد الصالحين ، ومهمة المربي أن يكون جيشا للفضيلة فى معهده بحيث ينساق التلميذ الفاسد إلى التخلق بأخلاق الفضلاء — وعندئذ تقوى الوحدة الروحية والخلقية فى المعهد ويرغم ضعيف الخلق على الاقتناع بأنه فى غربة موحشة لا ينجيه من أهوالها الا الاقلاع عما درج عليه من سيئ الخلال

إن بعض النظار والمدرسين يتظاهرون بالانطباع على شمائل الأغنياء ، والأغنياء كانوا ولا يزالون من أهل التسامح مع أبنائهم وهو تسامح له ذكر عاطر فى المحاكم ومعاقل البوليس!

فليزمر رجال التربية حدود الحشونة ، وليذكروا أن من الشرف

ان يفهم الناس أنهم عمال يحملون الأحجار في بناء النهضة العلمية والخلقية ، وليفهموا جيداً أن الأمة لا تريد سماسرة ترف ولين في الحانات والمراقص غنى عن ذلك ، وإنما تريد الأمة جنوداً مخلصين يحمون العرض والعقل من عادات النزق والطيش

هي سجارة فقط ، نعم ولكن بعدها الكأس ، وإذا عرف التليذ الكأس فقد انتهى إلى مصائر السفهاء ، ومن ذلك ترون أنه لاغربة أن تنقز النفس ويقشعر البدن حين نسمع أن من نظار المدارس الأهلية من يستقبل تليذا في مكتبه وفي يده سجارة ، فقدما قيل « ومعظم النار من مستصغر الشرر »

إن التسابق إلى الحزم والرجولة أولى بحميتكم وحماسكم يا نظار المدارس الأهلية ، فان لم تفعلوا - وستفعلون - فانكم تهدمون مدارسكم من حيث لا تشعرون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣

التعليم في فرنسا

باريس في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

تعد فرنسا من الأمم التي تعنى عناية شديدة بنشر التعليم .
ومعروف أن التعليم الابتدائي إجباري للبنين والبنات ، ولكن ليس
معنى هذا أن الأمية انقطعت وذهبت آثارها من هذه البلاد كما
يتوهم من يظنون أن أوربا تفوقت في كل شيء . ولا ينقصها شيء ،
فإن الواقع أن عشر الفرنسيين أميون على وجه التقريب ، والقوم
يعرفون ذلك ويأسفون على أن لم تمكنهم الظروف من نشر التعليم
الابتدائي بطريقة حازمة تقطع دابر الأمية ، وتصون سمعة فرنسا
بين العالمين .

لكن ماهي الأسباب التي تحول دون نشر التعليم في أمة تفرض
على أبنائها أن يتعلموا ، وتعاقب المتخلفين منهم ، وتفتح لهم المدارس
بالمجان ؟

أكبر السبب يرجع إلى صعوبة الاتفاق على الأطفال في
المدارس الأولية والابتدائية ، وصعوبة الاتفاق هذه لا ترجع إلى أن
الآباء يدفعون مصروفات مدرسية ثقيلة الأداء ، كلا ، ولكنها ترجع
إلى أن المدارس مجانية في الظاهر ، ولكنها في الواقع تتطلب كثيرا

من النفقات ، وإلى القارىء البيان :-

ليس في المدارس الأولية تدفئة في الشتاء ، ولا يمكن الأطفال بالطبع أن يتحملوا برودة الجو وهم يتعلمون ، فمن الواجب عليهم لأنفسهم أن يقوموا بإحضار مواد التدفئة ، وكذلك يحضر كل طفل في الصباح ومعه كتلة من الخشب لا تقل عن أقة ومن مجموع ما يحضر الأطفال من الخشب يتكون الوقود الكافي لتدفئة القصول ، وهذه الكتلة من الخشب ليست بلا ثمن ، فقد تبدو غالية جدا عند الفقراء من الريفيين والحضرين الذين يعجزون عن تدفئة منازلهم في أقسى أيام الشتاء ، وللقارىء أن يتصور كيف يكون خجل الطفل حين يدخل المدرسة وليس معه (معلوم) الخشب فان خجله لا يقل عن خجل الطفل الريفي في مصر حين يصل إلى الكتاب وليس معه (المعلوم) والمعلوم هذا شيء ثقيل يذكرنا كيف كنا نقاسى أهواله يوم كنا نتبارى في ترضية (سيدنا) فقد كانت ترضية عسيرة ، وكان لا يرضى إلا عن الأطفال الذين يحضرون البيض والفطير ، فقد كان الطفل الذي يحضر ومعه بيضة أو فطيرة خليقا بأن يحبيه (سيدنا) بعبارة يا صباح البيض ! أما الطفل الذي كان يدخل الكتاب وليس معه غير (البتاو) فقد كان يظل مغضوبا عليه ولا يأتي دوره في التسميع إلا بعد العصر ، وربما كان أقرب الأطفال إلى ضرب الجريدة والزخمة والفلقة ، على أيامهن السلام !

والأطفال الذين لا يستطيعون إحضار الخشب المطلوب في

المدارس الفرنسية جديرون بالتخلف فراراً من أوزار هذه الضريبة الثقيلة التي لم يفرضها القانون ، وإن كان العرف أقرها وأدخلها في عداد الواجبات.

وهناك عبء أثقل : وهو ملابس الأطفال ، فإن المدارس الفرنسية من بين مدارس العالم تفرض العناية بالهندام وجمال الثياب وللعلم أن يطرد من شاء من الأطفال الذين يرى ملابسهم خلقة أوقدرة ، وهذا في ذاته جميل ، ولكن كيف يسهل على الرجل الفقير الذي رزق طفلين أو ثلاثة أن يعد لأبنائه الملابس الكافية التي تنجيهم من عقوبة الطرد ، وتحفظ سمعتهم طيبة بين زملائهم الأطفال والفقير في فرنسا خطر ثقیل قد لا يعرفه فقراء الشرق الذين يتساحون فيما بينهم ، ولا يكثرون التأمل في الفروق بين الأغنياء والفقراء ، ومن هنا يكثّر في الأسر الفرنسية من يخلقون الأعذار خلقت لتخلف أبنائهم عن المدرسة . والعذر الحقيقي هو الفقر الذي يحول بينهم وبين إعداد ما يحتاج إليه أطفالهم من مختلف الاثواب ليمروا بسلام تحت أعين المراقبين والمعلمين و... البواب !

وهناك مانع آخر هو حاجة الفقراء من الأهالي إلى الاستعانة بأبنائهم فان الطفل حين يشب يستطيع أن يقوم ببعض الأعمال التحضيرية لحياة البيت ، فقد ترسل الام طفلها أو طفلتها إلى الخباز أو الجزار أو الحضري ، وقد تكلفه برد الأمتعة إلى الزبائن إن كانت تشتغل.

بغسل الملابس وكيها مثلا ؛ وهذه الأعمال الصغيرة التي يقوم بها الطفل أو الطفلة ذات أثر شديد في إصلاح الحياة المنزلية ، ونحن في مصر نفهم ذلك حق الفهم ، فأكثر الآباء يتفعون بجهود الاطفال وخصوصا الباعة والفلاحين ، والأطفال أنفسهم يستطيعون العمل في المنازل والحقول ، ويفضلونه على الحياة المدرسية ، لأن الانسان في أصله حيوان خشن جواب لا يروقه المقام بين الجدران طول النهار ، فحاجة الآباء إلى أبنائهم من ناحية ، وشوق الأبناء إلى الحياة الطليقة من ناحية أخرى ، يساعدان على إهمال المدرسة واختلاق الأعذار للنجاة من العقوبات التي تفرضها الحكومة على من يتخلف أبنائهم عن المدرسة بغير عذر مقبول

وهناك أسباب جوية لا يستهان بها عند البحث عن أسباب نقص التعليم ، ففي فرنسا أيضا عزب وكفور وأكواخ بعيدة عن البلدان التي تقام فيها المدارس الأولية ، فعلى الطفل في تلك الأماكن النائية أن يمشى في صباح كل يوم نحو ساعة ليصل إلى القرية التي تقام فيها مدرسة ، ومشى ساعة ليس بالشئ الهين على الطفل ، خصوصا في الأيام التي يكثر فيها المطر والجليد ، والآهالي الذين يقيمون في مثل تلك القرى الصغيرة لا يعدمون تقديم الأعذار التي تقبلها الدولة وهي مكرهة حيث لا تستطيع المكابرة في الأمر الواقع

هذه البيانات التي أقدمها للقارىء مستقاة من مصادر وثيقة ، ولم يلفتني إليها إلا ما شهدته بنفسى حين كنت أجلس في حديقة النباتات

فيتقدم إلي بعض الشبان ومعهم رسائل من أهلهم لا يدرون ما فيها ويطلبون أن أقرأها عليهم ، وقد حدث مرة أن قدم إلي شاب رسالة كتبها إليه رئيسه — وقد كان ذلك الشاب صديا في مخازن السماريتين فقرأتها عليه فكانت بعض العبارات تستغلق على فهمه لأنه بعيد بعض البعد عن لغة المراسلات إذ كان لا يحسن غير (البتوا) التي يتكلمونها في الريف .

والفرنسيون حين تحدثهم مثل هذا الحديث يحيون بأن الحالة كذلك في الأقطار الأمريكية ، ويسكتون عن ذكر الألمان والانجليز وقد امتعض بعضهم مرة وقال : ولكن آلام الجيران لا ينبغي أن تعزينا من آلامنا !

على أنه ينبغي ان نشير إلى أن في طبيعة الشعب الفرنسي شيئا من الاستهانة بتعميم التعليم ، إذ يرون ذلك (بدعة عالمية) لا توجهها ظروف الحياة في أكثر الأقاليم ، وهم في صميم أنفسهم لا يفهمون لماذا يجب على الفلاحين وجوبا مطلقا أن يقضوا بعض سنوات في المدارس الأولية والابتدائية مع أنهم سيقضون أعمارهم بين الثيران والفؤوس والمحاريث في أرجاء الحقول !

وهذا الجانب من الأمية له أثره في حياة الشعب الفرنسي ، فهو شعب يقل فيه التلاؤم والتناسب والتقارب بين الحضريين والريفيين بحيث يصعب أن يتفاهم أهل الشمال مع أهل الجنوب ، لاختلاف اللهجات وضعف اللغة الفصيحة عن أن تسود سيادة مطلقة بين

الأقطار الفرنسية المختلفة حيث تحيا في كل قطر تقاليده وعاداته وطرائق تعبيره . والخدمة العسكرية لها أثر قوى في تعريف هذه الأقطار بعضها ببعض وربطها بأواصر الوطنية والاخاء

والتعليم في فرنسا تتنازع طائفة من القوى المدنية ، فقد كان رجال الدين قديما يملكون كل شئ تقريبا في التربية والتعليم ، فلما كان عهد الجمهورية أراد رجال الحكومة أن يكون التعليم مدنيا صرفا لا أثر فيه للمؤثرات الدينية التي يذيعها البروتستان والكاثوليك ، وقد تم لرجال الحكومة ما يريدون ، ولكن رجال الدين لم يعدموا وسيلة إلى نشر نفوذهم بين الأطفال والشبان وذلك أن المدارس الفرنسية تعطل يومين في كل أسبوع هما الأحد والخميس . والآباء كما يعرف القراء يخافون على أبنائهم من الأضرار الصحية والأخلاقية تعرض لهم في عطلة يومين كاملين حيث لا يعرف الأطفال والشبان كيف يقضون أوقات الفراغ في أمن وسلام ، وهنا تدخل رجال الدين وأنشئوا ماسموه (باتروناج) وعرضوا على الأهالي أن يسلموا إليهم أبنائهم في يوم الأحد والخميس حيث يقضون أوقات الفراغ في الرياضة واللهو المباح ، وتعهد رجال الدين أن لا يعطوا الأطفال دروسا دينية ، وأن يتركوهم لسجايهم يرحلون ويلعبون ، وقد كان ذلك اليوم فرصة عظيمة لرجال الدين حيث يتسلمون الأطفال فيصوغونهم صياغة دينية بليغة الاثر في أنفسهم ، ورجال الدين أقدر على التأثير من المعلمين لأن المعلمين يسوسون الأطفال سياسة جافة

في سبيل الوفاء للمناهج والمقررات . ولذلك يبغضهم التلاميذ وينفرون
 منهم . في حين أن الرهبان يشاركون الاطفال في ألعابهم ويروضونهم
 برفق وعطف وحذق على اعتناق ماتدعو إليه الاناجيل . وقد تنبه
 رجال الدولة بعد ذلك إلى خطر هذا (البروناج) وتطوع المعلمون
 إلى النهوض برعاية الاطفال في يومى الاحد والخميس ، وأعدوا لذيئك
 اليومين أنواعا مختلفة من الألعاب والسياحات ، وبهذه التضيحة التي
 قام بها المعلمون استطاعت الجمهورية أن تأمن خطر رجال الدين .
 على أن هذا لا يمنع أن للرهبان مدارس يعلمون فيها مذهبهم الدينية
 ولكنها قليلة الاثر بجانب المدارس الحكومية التي تصوغ الاطفال
 صياغة مدنية صرفة تناسب واجبات الحضارة في القرن العشرين
 فاذا انتقلنا إلى التعليم الثانوى وجدناه محصورا في دائرة ضيقة
 حيث لا يتقدم اليه إلا الموسرون ، فليست المدارس الثانوية مجانية
 كما يتوهم بعض من يتصورون اوربا تسبح في بحار الرقى والنهوض
 والتعليم الثانوى في فرنسا يذكر كثيرا بالتعليم الثانوى في مصر فكلاهما
 ثقيل النفقات، معقد الأصول والفروع، وهذا التعقد في التعليم الثانوى
 الفرنسى له سبب معروف ذلك أن الفرنسيين يحبون أن يمتازوا من
 بين أمم العالم بالتفوق المطلق في العلوم والآداب والفنون ، والسبيل
 إلى ذلك في وهمهم هو إقبال مناهج التعليم الثانوى بأكثر ما يمكن
 من المواد المختلفة التي تتم بها الثقافة العامة، وكذلك نرى قوى الطلبة
 نهبا مقسما بين أطلاح الأساتذة المختلفين الذين يريد كل منهم أن يفرغ

في رؤوس تلامذته كل ما وصل إليه في العلم الذي يخصص فيه .
وهذه الرغبة في التهام مواد الثقافة العامة محمودة في ذاتها . ولكنها
من وجهة التربية خطأ جسيم ، فإن أذهان الطلبة محدودة القوى
وليس في وسع الطالب أن يؤدي في حماسة وإخلاص ما يفرضه
أساتذة الطبيعة والكيمياء والرياضيات والآداب واللغات الحية
والفلسفة والتاريخ . وقد يحدث أن يتحمس الأساتذة لعلومهم ،
ولكن تلك الحماسة تنتهي بتهاون الطالب وتغافله وتبلده وانصرافه
عن متابعة الأساتذة الذين يطالبونه بما لا يطيق

ويسرنى أن تجد هذه الكلمة آذانا واعية من رجال التعليم في
مصر . فأغلب الظن أن تعقيد المناهج في التعليم الثانوى المصرى كان
أثراً لمحاكاة مناهج التعليم الثانوى الفرنسى . وقد اعترف الفرنسيون
بخطئهم وهموا فعلاً بالاقلاع عنه فمن الواجب أن نقلع نحن في مصر
عن خطأ كنا فيه مقلدين !

لقد رأى الفرنسيون فداحة الخطب في إثقال مناهج التعليم .
ورأوا كيف يفرض على الطلبة كل شيء ، ولا يظفرون بشيء .
ولأضرب المثل باللغات القديمة ، فقد كان الفرنسيون يتشبثون بتعليم
اليونانى واللاتينى . ثم انتهى بهم الأمر إلى التخيير بين اللغات الميتة
واللغات الحية ، فكانت النتيجة أن انصرف الطلبة عن اللغات القديمة
إلا أقلية ضئيلة لا يحسب لها حساب

والمتبوعون لحركة التعليم في مصر يذكرون تقرير المسترمان

الذى صرح فيه بان تعليم اللاتينى لاقيمة له فى الثقافة المصرية
 وذكرون كذلك أن هذا رأى لم يغير شيئا من مناهج التعليم
 بكلية الآداب بالجامعة المصرية . أفأستطيع أن أذكر لقرائى أن تعليم
 اللاتينى فى فرنسا نفسها وهى أعرق الامم اللاتينية أصبح ضئيل
 الاثر فى نفوس الطلاب ، وأن أحد الاساتذة المتفوقين فى تعليم
 اللاتينى أقسم أنه قضى شهرا كاملا مع طلبة البكالوريا فى دراسة
 « ثلاثين سطرا » فقط ، وأنه سأل أحد الطلبة يوما عن « الاليزاد »
 ما هى فما استطاع أن يجيب ؟ !

إن العصر الذى نعيش فيه عصر رقى وحضارة ، مافى ذلك
 ريب ، ولكنه فى الوقت نفسه مغمور بأسباب المحاكاة والتقليد
 فأكثر الشعوب يضعون لتعليمهم مناهج ليست من طبائعهم ولا
 سجاياهم ، ويتورطون فى واجبات هم عنها اغنياء ، إن فرنسا نفسها
 تعنى بطائفة من التقاليد التعليمية لتحاكى من ؟ أتعرف أيها القارى ؟
 لتحاكى فرنسا القديمة فى القرن السادس عشر والسابع عشر
 ومع أن الشعب هو هو لم يتغير فقد أصبحت محاكاة فرنسا
 لحاضرة لفرنسا الماضية نوعا من خطل رأى ، فكيف نريد لمصر
 مثلا أن تتورط فى محاكاة فرنسا أو ألمانيا أو انجلترا محاكاة مطلقة
 لا أثر فيها لتقدير البيئة والاقليم وما يوجبانه من تخير ألوان التثقيف
 الواقع أن مسألة التعليم فى غاية الصعوبة وقد وقع فى حبالها
 الفرنسيون ، فللمصريين بعض العذر إن ضلوا السبيل ، ولكن

كيف يمكن الصبر على من جعلوا من المدارس حقول تجربة ، في حين أن صرعى هذا التردد هم شبان الأمة المرجوون الذين سيصبح الأمر كله إليهم بعد عشر سنين ؟ إن الاقدام والحزم لواجبان في اللحظة الحاضرة ليسلم لمصر جيلها الجديد ، وذرة من الاخلاص كافية لاقناع أولى الشأن في وزارة المعارف بأن الأمر أخطر من أن يداوى بقرارات تصدر ، ومنشورات تذاع

حديث كله شجون

سأبكيك ما فاضت دموعي فان تغض
فحسبك مني ما تبين الجوانح
فما أنا من رزء وإن جل جازع
ولا بسرور بعد موتك فارح

أبي

أتذكر كيف كنت أطوى عنك همومي وأحزاني ؟ أتذكر كيف كنت تسميني الرجل الشجاع ؟
ألا فلتعلم أن موتك أثار دمعى ، وكنت رجلا لا تفجعه
الحوادث ولا تهزه الخطوب ... وما أحب أن أزكى نفسى بالبهتان

فأنا إنسان أحزن كما يحزن الناس ، وأفرح كما يفرح الناس ، ولكني
كنت أطوى عنك أشجائي رفقا بك ، وإشفاقا عليك ، أما الآن ،
وأنت في عالم البقاء فلم يبق ما يوجب الرفق بك ، ولا الإشفاق
عليك ، فانظر من عليين إلى ذلك الطفل الذي هزمته الفجيعة بك
وأمضه الرزء فيك !!

أبي

لقد أردت أن أنهض بأحزاني كما ينهض الجمل بالحمل الثقيل ،
وكذلك أخفيت موتك عن أصدقائي وإخواني ، فلم أتلق التعزية
إلا من الأهل والأقرباء ، فانظر كيف يفضحني الحزن فأحدث
بمصايبك إلى من يعرف ومن لا يعرف ، وأعجب كيف مادت
الأرض بالرجل الشجاع ، وكيف انطلق يبكي وينتحب لا يستره
تجمل ولا يوارى حزنه عزاء

أبي

أرأيت كيف يكون لك الفضل في الآخرة والأولى ؟ لقد عرفت
بموتك حقيقة نفسي ، وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدي في عالم
الوفاء ، فطب نفسا إن كان يعوزك ذلك ، فما أثار موتك في صدري
إلا ذكرين غاليين : ذكرى أمي التي فقدتها في سنة ١٩١٧ و ذكرى
أخي سيد الذي فقدته في سنة ١٩١٨ . أما أطفالي الذين دفنهم من
قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان ، لأن حزني عليهم نوع من
اللاثرة ، أما حزني عليكم فباب من البر والوفاء

أبي

عزيز علي والله أن تقهرني الأقدار على رثائك ، وكنت أود أن
يطول عمرك حتى تبلل قبري بدموعك ، ولكن وراك الله شر
الشكل ، وأعد لي فيك فواجع الأحزان ، فكانت رحمته بك من بعض
نعمه عليك .

أبي

كيف أذكرك ؟ وكيف أتحدث عنك ؟ إن أقطاب المنوفية يذكرون
جيداً كيف كان عبد السلام مبارك ، وأقسم ما رأيت أصبح منك
وجهاً ، ولا أصح ديناً ، ولا أصدق قولاً ، ولا أفصح لساناً ، ولا
أثبت جناحاً ، فامض إلى دار البقاء مرضياً عنك من الله والناس ،
وادع الله أن يسدد خطوات ابنك الحزين

وهل أراني في حاجه إلى الشاء عليك ؟ لقد قضيت في حديثك
أعواماً قليلة في المدرسة ، ثم بقيت طول عمرك في عقل لم يظفر به
من الناس إلا القليل ، وما قيمة الدرس بجانب العقل الموهوب ؟
لقد كنت حجة على من يتوهمون أن العقل من نصيب من يطيلون
صحبة الفلاسفة والحكماء ، وكان أسلوبك في حياتك نموذجاً للعقل
الراجح والذوق الدقيق ، فاذا افتخر أهل الدنيا بأبائهم فانت المأثرة
الباقية التي يفتخر بها ابنك الحزين ، إن كانت الدنيا تستحق أن يتباهى
فيها الرجال بكرم الأنساب

أبي

الآن أشعر بأنتى فقدت كنزا من الكنوز الغالية ، فقد كان يروق لى أحيانا أن أدعو بعض الكبراء لزيارة سنتريس . وكنت فى ذلك أمثل الأثرة والأنانية ، كنت احب أن أقول : هذا أبى ملء العيون والقلوب ، فأصبحت محروما من تلك المتعة النفيسة ، وعدت وليس لى من الحسب والنسب الا ذكراك فى قلوب من عرفوك
أبى

أفى الحق أنتى لن أراك وأنى صرت من الأيتام الكهول ؟
لو تركتنى وأنا طفل لشغلنى عنك الجهل بقدرك ، أما الآن وقد عرفت فضلك ، وخبرت مواهبك ، وعرفت سرك وجهرك ، وفطنت إلى فجيعتى فيك ، فكيف الصبر عنك ، وكيف السبيل إلى نسيان أياديك ؟

يا حليف الكرم والجود ، ويا نصير الضعفاء ، ويا سناد المظلومين انظر من عالم البقاء لترى كيف خلا مكانك ، ولتعرف كيف تكون غيبة البدر فى الليلة الظلماء

أبى
أتذكر أيامك الأخيرة ، من كان يظن أنى سافارك إلى غير لقاء وهل رأى الناس قبلك إنسانا يتهيا للووت شهورا فلا يتأوه ولا يتوجع ؟

ولكن لا موجب للعجب ، فقد كان المصحف سميرك ، وكان لقاء الله أحب اليك من لقاء الأهل والأحباب ، وعند من تطلب

الشجاعة إن لم يفض بها طبعك ، وكنت الرجل البسام فى السراء
والضراء ؟

أبى

كنت أقول : أوصانى أبى ، ونهاني أبى ، فالآن ماذا أقول ؟
إن اسمك وحده يملأ البيت أحزاناً وأشجاناً ، فكيف الرجوع
إلى مانصحت وأوصيت ؟

ذكراك ، أيها الفقيد الغالى ، تنغص عيشى ، وتؤرق نومى ،
وترمىنى بالويل والخبال ، فكيف ترانى أعود إلى عهدك فأحيىها بالبر
والحنان ؟

يا زينة الدنيا ، كيف خلقتنى ومضيت !
الدنيا ، يا أبتاه ، أحقر من أن تستطيل بفتنة ، أو تعتز بسلطان ،
بعد أن كفتك وسويت قبرك يميناً

أبى

لقد أخرجنى موتك عن وقارى ، ورماني بطوائف من التحرق
والإلتياح ، فأخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود ، وكيف تتعاقب
النجوم فلا يعوقها أفول ، ثم نظرت فرأيتك تذهب إلى غير معاد
وفكرت فى العلالة الانسانية التى وعد بها الأنبياء ، وتمنيت أن
تكون الحق كل الحق . وأقسم ما كفرت مذآمنت ، ولكن موتك
قلقل يقينى ، ورمى بقلبي فى أتون من الحزح لا يرحمنى من بلائه إلا
الخبير بتصرف الخواطر وتقلب القلوب

كيف يموت مثلك وكنت من عناوين الرحمة في هذا الوجود؟
ولأية غاية نحيا ونموت ، نحن المساكين الذين يخلقون قهراً ، ويموتون
جبراً ، وما هي الأسرار الخفية التي تقضى بأن ننبت ، ثم نزهر ، ثم
نذبل ، ثم نبيد ؟

أنحن جهلة نتناول إلى فهم ما لا نملك ؟ وكيف بالله كتب علينا
الحرمان من فهم أسرار الوجود ؟ كيف كتب علينا أن نجعل سر
الحياة والموت وقد كدنا نعرف كل شيء ؟
ما هذا الذي أقول ، أتراني أشك في مصير الصالحين من
المؤمنين ؟

أنا لا أشك ، ولكني أضعف ، والإنسان منذ خلق عرضة
للفزع والضعف ، وهل رأى الناس رجلاً يكفن جيبه وهو يتسم
ثقة بأنه ينقل من يحب إلى فراديس الجنان ؟
إن المعاني العلوية فوق ما نملك ، نحن نتصورها تصوراً ، ولا
نطمئن إليها إلا أملاً في تخفيف ما نقاسى من عنت البأساء ، وقد آن
أن نعترف بأننا مهما استطلنا لا نزيد عن ذرات صغيرة تغدو وتروح
في أجواز الفضاء .

رباه ، إن الشك يأكل قاي ، وأكاد أنظر ما يضطرب في صدري من
شياطين الارتباب ، سبحانه كقضية ما قضيت : فهذا شقي وهذا سعيد
فامنحنى من الصبر ما أستر به همومي وأحزاني ، واجعل لي مخرجاً من
هذا البلاء الذي صبه على قلبي فراق ذلك الفقيد الغالي

أبي

لقد حدثونا أن الأرواح لا يغيب عنها شيء ، فهل رأيت ما
أعاني من كرب الـأسى بعد إذ كفتك ، وهل رأيت كيف تفردت
بالوان من الـيتم لم يعرفها أحد سواي ؟

إن من القليل أن أحزن وألتاع ، ومن ذا الذي رأى وجهك
مرة واحدة فاستطاع أن يحبس دمه حين بلغه نعيك ؟

لقد كنت من أعظم الشواهد على رفق الله الذي خلقك وسواك
فعدت شاهداً على أن الأمر كله لله ، وأن الإنسان مهما سما وشرف
لا يقيم في الدنيا إلا إلى حين

أبي

هل تعلم أني ما تلفت إلا رأيتني مغموراً بأيديك ، فهذا دمك
يجري في عروقي ، وأنت الرجل الشهم الذي اجتاز مفاوز الدنيا
بقلب أقسى من الصخر ، وعزيمة أمضى من السيف ، وتلك رزانتك
أتمثلها فأزداد سخرية بالحوادث والخطوب ، وذلك ثغرك الذي لم
يعرف غير الابتسام في جميع الأحوال أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون
من أن يقطب لها جبين الرجل الشجاع ، وذاك إيمانك أنذكره
فأعرف أن اليقين كنز ثمين

وآخر درس تلقيته عنك هو بساطك أيام المرض ، ويالها من
أيام ! لقد كنت تعاني أهوالاً تنذك لها الجبال ، ومع ذلك لم تحزن
ولم تبتس ، ولم تفارق الابتسامة شفئك

ولكن هل أفادني ذلك الدرس يا أبتاه ؟ لقد جزعت لفقدك
جزعا لم يصب بمثله قلب قبل قلبي ، ألم تركيف عجزت عن دخول
البيت الذي خرجت منه محمولا على الأعناق ؟

أى بلاء هذا الذى صبه موتك على فؤادى ، أكنت أنت أول من
مات وكنت أنا أول من وقف يتلقى فى أبيه العزاء

ولكن أى أب ، لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحنان
وكان النظر إلى وجهك ريعا للقلب والروح ، وكان اتجاه الفكر
إليك يغمرنى بالرفق والروحانية ؟ فكيف العزاء وقد حرمنى موتك
جميع أسباب العزاء ؟

أما أنا فماذا تحفظ عني يا أبى ؟ أتذكر أنك شهدت منى لمحمة واحدة
من ملاحم العقوق ؟ إن كان لثلى بعد موتك عزاء ، فسيكون من
أسباب عزائى أنى لم أخرج فى سرى ولا جهرى عن واجبات البنوة
ولم أتحدث إليك إلا بقلب خاشع وطرف غضيض

ولكن كيف أمن عليك بالتأدب فى حقك ، وأنا ابنك ، على
حين لم يطمع فى مخاشنتك مخلوق ، وكنت بكرمك وهيبتك أعز
من أن تمتحن بعداوة الناس

أيها الكنز الغالى ، كيف فقدتك ؟

إن الوجود بعد فراقك يبدو لعيني فى لون قائم سخي ، وما
قيمة الدنيا وقد ودعتك فيها الى غير لقاء . لقد كنت آمل أن يظل
عودك يقاوم الشيخوخة زمنا طويلا ، وكنت أتعزى كلما تذكرت

أن أمامي فرصا كثيرة لمشاهدة وجهك ، والتمتع بحديثك ، فما بال
الأقدار تعجل هذا الشقاء الذي كنت أرجو أن لا أرزأ به إلا
بعد أعوام طوال ؟

أبي

إنى لأعجب كيف يصح لمثلى أن يجزع ، بعد إذ رأى سخف
الدنيا وهزالها منذ رآك بين الأموات ، إن الدنيا التي لا يخلد فيها
وجه مثل وجهك لا تصلح ميدانا للأفراح والأحزان ، فما الذي
يغرينى بعدك بالحديث عن البؤس والنعيم ، وقد رأيت بعيني كيف
يضن الوجود على مثلك بالخلود ، وما أشقانى بعد اليوم إن غرني
ما في الدنيا من زخرف وبريق !

أبي

أيسرك أن تعلم أن موتك أودثنى بعض النفع ؟ لقد كانت خطوب
الزمان لا تؤذيني إلا لأنها تؤذيك ، واليوم وقد تنزه قلبك عن الحزن ،
فلتفعل الأيام ما تشاء : فسألقى صروف الدهر بقلب أقمى من الموت
وأعنف من كيد الزمان

٨ مايو سنة ١٩٣٥

الى الدكتور زكى مبارك

بقلم الاستاذ ابراهيم الدباغ

إلى الصديق الحنين والأخ الحزين الدكتور زكى مبارك
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فى معترك الحياة مرأى تأساء للحزين ، وفى ميادينها مباءة سلو
لأهل اليقين . والحليم الحليم من تلقى سهامها بصدره ، والشجاع
الشجاع من عرف أبواب الصبر الجميل عند وقع المصاب .

أزعجنى بلاغ يوم الجمعة الماضى ففيه قرأت وفاة والدكم المبرور
والتقطت من حبات دموعك ولآلىء نثرك ما أحاول تنسيقه أو جمع
طاقة منه فأستطيع القيام لك بواجب المواساة والتعزية التى هى حق
لك غير محدود على كل متأدب فى هذا البلد الأمين

ولقد عجبت ثم عجبت من إخفائك عن إخوانك خبر المصاب
يوم وقوع سهمه ، فلعل لهم شأن أو هوية فى مشاطرتك الأسى على
فقدك أعز عزيز لديك .

صنيعك هذا يذكرنى برزاة رجال أهل حكمة سبقوك فتلقوا
المصائب فطووها فى الحقائق ، وشربوا من الأمرين فى أكوام

الأيام والليالي كؤوساً أدارتها يد الزمان ، وتلك صفات استأثر بها
الصفوة من أهل النبوة ، والنخب من حكماء العرب ، وأقربهم بنا
عهداً أستاذنا الامام محمد عبده وقد مات والده ولم تقم (له المآتم)
ولا علقت شارات الاتراح والأحزان على الأبواب والجدران
وقد سافر الكثيرون من المعزين إلى منزل الشيخ محمد عبده في عين
شمس فلم يجدوا على الباب غير مصباح المنزل ، ومن هذا العهد أخذ
الناس يفكرون في حل هذه العقدة الاجتماعية الأديبة في مصر التي
يذيع عنها في الشرق كل ما تصنع من خير وشر ، وكما ذهب الشيخ
أحمد عبد الله والد الشيخ محمد عبده ذهب عبدالسلام والد الدكتور
زكي مبارك ، فلا مناحة ولا لطم خدود ، ولا صبغ وجوه بالسواد
ولا صياح ولا تصدية أو مكاء ، إلا ما كان أسفاً أو بكاء . إني أعرفك
ولقد رأيتك ولم أر الفقيد العزيز ولكنني بك عرفته فرأيتك فيه ،
ورأيتك فيك ، والوليد سر الوالد

قال حكيم العرب (ولدك ريحانتك سبعا ، وحاجبك سبعا ، ثم
هو بعد السبعة الثالثة عدو أو صديق) وهذا أنت للرحوم أيك نعم
الصديق الحميم ، فصلوات وتسليم ، أما صبرك ورباطة جأشك التي
شهدتها في سطور مقالك فحدث عنها صدور أهل الحلم والرجال
البارزين في تحمل المكاره من المتقدمين ، جاء رجل إلى الأحنف بن
قيس سيد بني تميم يشكو له وجع الضرس فقال الأحنف : فقدت
عيني منذ ثلاثين عاماً ولم أشك أمرها لأحد من الناس ولم أخبر

بشأنها جليسا ، وها أنت تراها كأنها سليمة . وإني لأعجب لصبرك
عجبي لصبر الأحنف وإن جاء صبرك بعده بقرون وأحايين ! وقد
حدثنا كتب الأدب أن أحدهم تزوج ثم أصيبت زوجته بالعمى فتعامى
معها عشرين عاما ثم ماتت ورآه الناس وهو يغدو ويروح مبصرا
فقالوا ألم تكن أعمى ؟ وكيف رجع إليك بصرك ؟ قال لم أكن في
عمى وإنما تعاميت جبر الكسر تلك الزوجة المسكينة

هاؤم اقرأوا فيها الكتاب والأدباء والشعراء هذا السطر الذهبي
من سطور المروءة والنخوة في السابقين السالفين .

لا يريد الدكتور زكي مبارك حمل إخوانه مشاطرته في حمل
أحزانه . إني سأشاطرك الحزن على أيك أنا وبعض محبيك أرضاك
ذلك أولم يرضك يادكتور

إن نوعا من النخوة والمروءة سيظهر له أثر اجتماعي قوى بين
الناس إذ شاهدوا فيك من الثبات ما لم يشهدوا في سواك . لعل
للرحوم والدك وصية أستاذنا الشيخ محمد أبو راشد فقد جمع أولاده
وأفراد أسرته في ساعة متأخرة من الليل وأخذ يسألهم واحدا واحدا
عن شأنه إذا أصبح الأستاذ في عداد الأموات ففزعوا جميعا فما زال
بهم يروضهم بالعظة والحكمة حتى ألزمهم الصمت والصبر ، ثم
قال : إذا أنا مت بعد صلاة الصبح فلا تأت الساعة العاشرة إلا وأنا
في قبري قبل أن تخبروا أحدا من أصدقائي

وهكذا كان . فاني ذهبت لزيارة الشيخ كعادي فوجدته في العالم

الثانى .وتبارك الباقي ، ومسكين هذا الانسان الفانى
لم أبلغ ما فى نفسى مما أريده فى تعزيتك ولعل نفحة قدسية
أو روحا سماوية تمربنى وتبعث فى قوة أستطيع بها القيام بما يجب
على الحر للحر ، ويفترض على الأديب للأديب ، والسلام عليك

لغة العرب قبل الاسلام

جیلان یختصمان : جیل النقل و جیل العقل

إعتاب الشيخ عبد المطلب - صراع بين مدرستين - أصل الخلاف - رأى
المتقدمين - أهمية النقوش الحجرية - وحدة اللغة الفرنسية - كيف يتكلم العرب
اليوم فى مختلف أرجاء الجزيرة - اللغة العربية فى أفريقيا الشمالية - روح اللغة -
كلمة تساوي خمسة جنهات وكلمة تساوى (شلن) - نصوص القرآن لاتكفى
فى الدلالة على وحدة اللغة - حديث خنافر الحميرى - نصوص حميرية - قيمة كلام
ياقوت عن اللغة اليمنية

١ - قرأت ذلك البحث المطول الذى كتبه الأستاذ محمد عبد
المطلب عن وحدة اللغة العربية فى جزيرة العرب « كلها » وقرأت
بعد ذلك كلمته الرقيقة التى يعتب فيها ويستعتب . وأنا أعتبه أجمل
الاعتاب ثقة منى بصدقه وإخلاصه ، وإعزازاً لتلك النفس التى تحب
فى الله وتبغض فى الله . وأصارحه بعد ذلك أنى وإياه تمثل جيلين

مختلفين أشد الاختلاف في درس تاريخ الآداب العربية
وأحسب أن الفرصة سانحة لمناقشة الأستاذ عبدالمطلب . ولهذه
المناقشة فائدة ونفع : فالأستاذ كان ولا يزال من مدرسي الأدب وله
تلاميذ في مدرسة القضاء الشرع ، والأزهر ودار العلوم . وهؤلاء
التلاميذ قد أصبح فريق منهم أساتذة في المدارس الثانوية ، فهم
ينشرون ما تلقوه عنه بين شباب العصر الحاضر ، وللأستاذ مع ذلك
زملاء ينهجون منهجه ويذيعون نفس الآراء التي يذيعها هو بين
مختلف الأوساط ، وبهذا نرى أن المدرسة الأدبية التي يمثلها الأستاذ
ويمثلها معه زملاؤه ومشايعوه مدرسة ذات خطر في تكوين النشء
الجديد من طلاب الآداب

أما أنا فأمثل مدرسة ثانية هي المدرسة التي تحكم العقل في كل
شيء ، وتفرض على الباحث أن ينقد أولا المصادر التي يعتمد عليها
وتروضه على إدراك الفروق بين الأذواق والأحاسيس في مختلف
العصور الأدبية ، وهذه المدرسة الجديدة أشياء عديدة ، ولكني
أمتاز من بينهم بميزة ظاهرة إتي لأعرف ما هو الحق وما هو الضغن
ولا أفهم مطلقا كيف تنقلب الخصومات العقلية إلى خصومات
شخصية يقال فيها : هذا لله وهذا للشيطان

وفي يقيني أنني سأحول النقد الأدبي في مصر تحويلا جديا وسأعلم
القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين قبل أن يغرموا بتلسم
النزوات الصغيرة التي يلقي بها الكتاب هنا وهناك وهم يتجادلون ويتحاورون

و خلاصة القول أني لا أنفق مع الأستاذ على الأساس الذي يبنى عليه ما ينشئ من النظريات والفروض ، وأرى أن المدرسة التي يمثلها لا تتناسب مع الجيل الجديد ، وأرى من واجبي أن أقدم للقراء كل ما سححت الفرص شواهد جديدة على أن المدرسة التي أمثلها أنا هي المدرسة التي توفق بين المعقول والمنقول وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع وترك ما درج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام وليكن الميدان اليوم مناقشة الأستاذ فيما قال به من وحدة اللغة العربية في جزيرة العرب «كلماء» قبل الاسلام ، ولتلاميذ الأستاذ وأنصاره أن يختاروا أى الصنفين بعد ذلك ، وإن كنت أوصي الأستاذ منذ الآن أن يذهب إلى إحدى شركات التأمين ليؤمن على ذلك الجيش الذي يناصره فاني واثق أنه سينضم إلى صفى بعد قليل وأكاد أرى طلائعہ تتحول من ميدان إلى ميدان

٢- الخلاف بيني وبين الأستاذ عبد المطلب ينحصر هذه المرة في وحدة اللغة : فانا أرى أن اللغة العربية التي نزل بها القرآن هي لغة قريش أو لغة العدنانيين ، وأرى أن هذه اللغة تختلف اختلافا جوهريا عن لغة القحطانيين من أهل الجنوب ، والأستاذ يرى أن لغة العرب كانت واحدة في جميع أقطار الجزيرة العربية . فكيف يفض هذا الخلاف

أنا أعتمد على الأدلة الآتية

أولا - كان القدماء من مؤرخي اللغة العربية يفهمون حق

الفهم أن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير ، وشواهد ذلك كثيرة جدا سأقدمها إذا طلبها القراء ، ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير لغة أهل الحجاز ، ومن هؤلاء عمرو بن العلاء

ثانياً — النقوش التي اكتشفت في اليمن ودرسها المستشرقون تبين في وضوح تام أن اللغة الحميرية لغة مستقلة لا تتشابه مع اللغة العدنانية إلا في طائفة من الألفاظ ، أما أصولها من حيث النحو والتصريف وصياغة الجمل وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة العدنانية أشد الاختلاف . ومن أشهر من كتب في هذا الموضوع السنيور جويدي الكبير الذي استقدمته الجامعة المصرية القديمة لدراسة فقه اللغة العربية ، وأبحاثه في هذا الموضوع نشر جزء منها في مجلة الجامعة المصرية واستغل الدكتور طه جزءاً منها في كتابه عن الأدب الجاهلي

وتلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التي يعتمد عليها بعض الناس . واستهانة الأستاذ عبد المطلب بهذه النقوش تعد جرأة عجبية ، لأن الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب في عرف أهل التاريخ . وما يلجأ اليه الأستاذ عبد المطلب من التشكيك في قيمة النقوش لا يغنيه قليلاً ، لأن تلك النقوش إليها المرجع حتماً في درس أصول اللغات

ثالثاً — طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة في جميع

أرجاء الجزيرة قبل الاسلام ، لأن الأسباب التي يفترضها أمثال الأستاذ عبد المطلب لا تكفي لتوحيد تلك اللغة

وأنا أقدم شاهدا بديعا لما أراه من أن طبيعة الحياة تأبى أن تتوحد اللغة في أمة مترامية الأطراف ، ذلك الشاهد هو الأمة الفرنسية ، وأنا أكتفي بالأمة الفرنسية لأنى أعرف آدابها وأعرف كيف تطورت لغتها ، فهذه الأمة التي توحدت سياسيا واجتماعيا وأديا منذ زمن طويل لا تزال فيها عدة لهجات تتباعد تباعدا شديدا بحيث لا يستطيع بعض أهل الجنوب أن يتفاهم مع بعض أهل الشمال وهذا يقع مع انتشار الجرائد والمجلات والمطبوعات وفرض تعليم اللغة الفصيحة على البنين والبنات . والحكومة الفرنسية تعرف ذلك ولها في مداواته طرق عديدة منها المزج بين الجنود في أيام الخدمة العسكرية ، ومع هذا توجد أقاليم تصر على إحياء لغتها الإقليمية مثل مقاطعة البروفنس ولشاعرها ميسترال مؤلفات كبار هجر فيها اللغة الفصيحة وآثر لغة الاقليم . ولا تزال هناك إلى اليوم صحف إقليمية تكتب بما يسمونه « البتوا » فكيف يمكن إذن أن تتوحد لغة العرب قبل الاسلام في جميع أطراف الجزيرة ولم يكن هناك ما يوجب توحيد اللغة بين أهل الشمال وأهل الجنوب ؟

٣ — جاء الاسلام فأذاع لغة قریش وفرضها على جميع المسلمين حين صيرها لغة الصلوات والعبادات ، أفتحسب أنه مع هذا أمكن أن تصبح لغة قریش لغة جميع سكان الجزيرة العربية ؟

إذهب ايها الأستاذ فعش عاما أو عامين متنقلا في أرجاء الجزيرة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ثم اعمل ما كان يعملهُ أبو عبيدة والأصمعي فقيد الفروق المختلفة بين الألفاظ والتعابير فسترى أنه لا تزال هناك لغات متعددة يعجز التفاهم بين أهلها ويعسر عليهم فهم القرآن والحديث والشعر الفصيح

أنا أوصيك بهذا وأرجوك ألا تنسى أن سكان الجزيرة راضهم القرآن على اصطفاء لغة قریش، وهم مع ذلك لا يزالون مختلفين في تسمية الأشياء وفي طرائق التعبير، وإن كان هذا لا يمنع أن جماهيرهم تتذوق لغة قریش بعض التذوق لأنهم يقرءون بها الأدعية والأوراد والصلوات

وما رأيك في سكان أفريقيا الشمالية ؟

أنت لا تنكر أن الاسلام أذاع اللغة الفصيحة في طرابلس والجزائر ومراكش، ومع هذا أوكد لك أن أولئك الجيران لا يستطيعون التفاهم في أكثر الأحيان، لأن العامة في جميع الأمم لا تهتم باللغة الفصيحة وإنما تلقى بنفسها في تيار اللغات المحلية، وتلك لغات تتقارب وتتباعد من بلد إلى بلد، ومن صقع إلى صقع : حتى ليعسر التفاهم بين فريق من أهل مصر وفريق من أهل السودان مع أنهم يسكنون واديا واحدا ويلتفون حول راية واحدة هي راية القرآن وكل ما يمكن الاطمئنان إليه هو أن اللغة الحميرية أمدت اللغة العدنانية بكثير من الألفاظ والأخيلة والتعابير والصور، وانتقل

ذلك المدد على أيدي الشعراء والخطباء الذين انحدروا إلى الشمال وحاولوا التفاهم مع العدنانيين المثقفين . والهجرة من الجنوب إلى الشمال كان لها أثر في التقريب بين اللغتين ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تحولهما إلى لغة واحدة لأن ذلك من العسر بمكان

ولأضرب لك مثلا اللغة العامية التي يتكلمها المصريون : فهذه لغة معظم مفرداتها عربية ، ولكنها في تكوينها اللغوي من حيث صياغة الجمل واستعمال حروف الجر وأدوات التنفيس تقرب من اللغة المصرية القديمة ؛ وذلك أن المصريين حين اتخذوا اللغة العربية أداة للتفاهم ظلوا يجرّون على روحهم الأول في كيفية التعبير ، ونظير ذلك ما يقع لأحدنا حين ينشئ بحثا بلغة أجنبية فإنه في الغالب يصوغ مفردات تلك اللغة في قالب تذكر بلغته الأصلية ، فهو إلى الترجمة أقرب منه إلى الانشاء

وهذه مسألة دقيقة جدا وهي تذكر بما يسميها الفرنسيون « تور نور » وعليها يتوقف فهم روح اللغة ، ولا أزال أذكر أن أديبا مصرياً كان يأخذ على مجلة الفكاهة أن أكثر كتابها سوريون وكان يقول « يستحيل على الشامي أن يضحك المصري » ومرجع هذا أن الأمم التي تتكلم لغة واحدة قد تتفاوت تفاوتاً بعيداً في طرائق الإفصاح مع اتفاقها في المفردات ، وهذا في أوربا ظاهر في الأمم التي تتكلم اللغة الفرنسية ، فالبلجيكيون والسويسريون لا يفصحون عن أغراضهم بنفس الأنماط التي يفصح بها الفرنسيون ، ولو انتقل فلاح بلجيكي

إلى مقاطعة فرنسية لعسر عليه التفاهم ، لأن وحدة اللغة الأدبية عند الأمم المتجاورة لا تقضى بوحدة الروح إلا بعد أن تتخذ الوسائل لذلك في أزمان طوال

وقد نقل إلى أنك كنت تشرح مرة لتلاميذك قول الشاعر
وأطلالك اللاتي بمنعرج اللوى بلين بلى لم تباهن ربوع
فقلت لهم : كلمة (بمنعرج اللوى) تساوى خمسة جنهات !
وهذا مرجعه أنك تتذوق هذا التعبير ، ومن المحتمل أن نجده من يقومه بأكثر من ذلك فيرى أنه يساوى عشرة جنهات ! وقد لا يفهمه بعض الناس فيرفض أن يدفع فيه خمسة مليمات !

ومن هذا ما وقع مرة للأستاذ على الجارم وكان يفتش في إحدى مدارس البنات فقرأت له تلميذة موضوع الانشاء فجاءت فيه كلمة « سابلة » فقال الأستاذ : هذه كلمة تساوى شان !

وأنا هنا لا أمزح وإنما أتخذ من هذه النوادر شواهد لاجتاهي في فقه اللغة : فللألفاظ حيوات مختلفة في أذهان الناس ، وبعض الألفاظ أحياء من بعض في التعبير الواحد ، وهو لم يتغير ، وإنما تتغير الأذواق

وما تعتمد أنت عليه من قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) لا يدل على وحدة اللغة العربية في جميع أطراف الجزيرة ، لأن القرآن كان يخاطب حينذاك خصومه من قريش ، ولم يكن اليمنيون اشتركوا في معارضة الدين الجديد حين نزلت الآيات التي تمن على

العرب أن القرآن جاء بلسان عربي مبين

٤ — ونعود بعد ذلك إلى الحديث الذي أثار هذه المشكلة وهو حديث الكاهن خنافر ابن التوأم الحميري وقد رواه ابن الكلبي عن أبيه ، وهذا الراوية معروف بعدم الثقة ، وللاستاذ عبدالمطلب أن يجهد نفسه قليلا فيقدم لنا بحثا عن الرواة الذين اهتموا بنقل آثار العرب القحطانيين ، ولو فعل لا نكشف له الغطاء عن أشياء كثيرة كانت تحسب حقائق وهي أوهام . فان لم يفعل فسنده نحن على قيمة الآثار الحميرية التي دونت بلغة قريش . وأنا على هذا سأشقيه وأشقى زملاءه معه فقد انقضى زمن الفروض وأصبحنا في أشد الحاجة إلى أن نعرف كيف تكون الرهينة في طلب العلم وكيف يجب أن نشغل بدرس آدابنا دراسة عميقة تقفنا من أصولها موقف المستيقن الواثق مما يكتب وما يقول

وإلى القراء نموذجاً من حديث خنافر الذي اطمأن فريق من القدماء والمحدثين إلى أنه يمثل اللغة الحميرية قبيل الاسلام . فقد روى عن ذلك الكاهن أنه قال :

« كان رأيي في الجاهلية لا يكاد يتغيب عني ، فلما شاع الاسلام فقدته مدة طويلة وساء في ذلك ، فبينما أنا ليلة بذلك الوادي نائماً إذ هوى هوى العقاب فقال : خنافر ! فقلت : شصار ! فقال : اسمع أقل . قلت : قل اسمع . فقال : عه تغنم . لكل مدة نهاية ، وكل ذي أمد إلى غاية . قلت : أجل ! فقال كل دولة إلى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت

النحل ، ورجعت إلى حقائقها الملل ، إنك سيجر موصول ، والنصح لك مبذول ، وإني آنست بأرض الشام ، نفرا من آل العذام ، حكاما على الحكم ، يزبرون ذارونق من الكلام ، ليس بالشعر المؤلف ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ، فعاودت فظلفت . فقلت : بهم تهيمون ، وإلام تعتزون ؟ قالوا : خطاب كبار ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الأخبار ، واسلك أوضح الآثار تنج من أوار النار . فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا فرقان ، بين الكفر والإيمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، انبعث فظهر فجاء بقول قد بهر ، وأوضح نهجا قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآي الكبر . قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر . فإن آمنت أعطيت الشبر ، وإن خالفت أصليت سقر ، فأمنت يا خنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لآعن تلاق « الخ . الخ .

وهو حديث طويل اكتفينا منه بهذه الفقرات ، ويهمننا أن ثبت أن الذي اخترعه دس فيه بعض الألفاظ اليمينية لتصح له المحاكاة ، من ذلك الزخيمخ والهوب بمعنى النار ، والجحمة بمعنى العين والواهر بمعنى الساكن . الخ

وإن هذه اللغة السهلة المقبولة من النصوص التي نقلها السنيور جويدي عن النقوش الحميرية كقولههم :

« وهيم وأخوه بنو كلبت هقينو إل مقعة ذهرن ذن مزندن
حجن وقهمو بمسألهمو لو فيهمو وسعدهمو نعمتم »
وقولهم :

« أخت أمهو وشففرم بعلى خمتن بخلف هجرت مريب شمتى
وثنن لال مقعة بعل أوم حجن وقهمو بمسألهمو لو فيهمو »
ويجب أن لا يدهش القارئ من غرابة هذه النصوص فهي
عند الشرح تبدو قريبة من اللغة العدنانية قريبا يتناسب مع ما كان
بين القحطانيين والعدنانيين من مختلف الصلات ، والتفاوت بين هاتين
اللغتين يشبه التفاوت بين اللغة العربية واللغة العبرية ، فهما مختلفتان
ولكنهما في الوقت نفسه تتقاربان في كثير من الخصائص
والمميزات

وقد اتفق لى مرة أن اطلعت على جريدة تونسية فيها مقال
بلغة أهل تونس العامية فحسبته لأول وهلة كتب باللغة التركية ، ثم
تبينت بعد التأمل قربه من العربى الفصيح

وهذا هو الحال فيما كان بين اللغة الحميرية واللغة العدنانية فهما
أختان لأحدهما خصائص أهل الجنوب ولأخرهما خصائص أهل
الشمال

وأنا موقن بأن أهل اليمن لم يفهموا القرآن حق فهمه حين
وصل إليهم لأول مرة ، وإنما راضهم زعماء الاسلام الفاتحون على
فهم اللغة العدنانية ليفهموا بلاغة القرآن

وهذا الذى أقوله يطابق العقل والمنطق والاستقراء ، وللاستاذ عبد المطلب أن يتغاضى لحظة عن نصوص ياقوت وأحكامه فى اللغة والتاريخ ، ثم يقيم بنفسه تجارب لغوية ليقنع بصدق ما أقول وكان فى مقدورى أن أنكر قيمة ما يراه ياقوت لأنه كتب ما كتب فى القرن السابع للهجرة وعن مصادر تنقصها الدقة وفى حياة مضطربة لا تسمح بروية ولا تحقيق ، ولكنى مكنت بالاشارة إلى أن أحكام ياقوت وأمثاله على اللغة الحميرية لا تفيد غير الغن ، أما النقوش التى يدرسها الباحثون اليوم فهى باب إلى اليقين

٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

العيد فى سنتر يس^(١)

« صورة وصفية »

١ — القرى المصرية تتشابه فى كثير من الشئائل والتقاليد ، وأوضح آيات هذا التشابه هندسة البناء ، وهى تدل على وحدة الذوق فحيثما توجهت فى قرى المنوفية والشرقية والغربية والجيزة وأسيوط تروى لك الصورة الموحدة أو المتماثلة التى تمتاز بها القرى المصرية ، ومن أسباب هذا التشابه وحدة منافع العيش التى تفرض على أهل

(١) وهى بلدة الأستاذ الدكتور وقد أنجبت كثيرا من أهل العلم والأدب والفضل . مصححه

الشمال أن ينقلوا بعض محصولاتهم إلى الجهات الجنوبية ، وشجرة
الجميزة المقدسة يراها الناظر في كل قرية حيث تغرس في المنازل
الكبيرة في الشمال والجنوب لتدل الناظر على أنها نبتت في بيت
واسع الأرجاء ، ولتشعر من يراها بأن من غرسوها يعيشون في بلد
يستحب فيه الظل الظليل

وشمائل الفلاحين واحدة ، أو كالأحاددة ، في نظام البيت
واستقبال الضيف ، والتعابير التي يتداولونها واحدة مع اختلاف
قليل في الأداء وجرس النبرات ، وأحلامهم ومخاوفهم واحدة ، فهم
جميعا يعيشون فوق أرض متشابهة فيما استعدت لإخراجه من
الشجر والنبات ، ويروون من نهر واحد هو النيل ، وهم فوق هذا
وذاك يخضعون لثقافة واحدة ، هي ما يصل اليهم من تعاليم الدين
فان رأيتني أتحدث عن العيد في سنتريس فتذكر أي أعني العيد في
الريف ، وأنا مع هذا لا أنكر أن هناك تقاليد خاصة يفترقبها بعض
البلاد عن بعض ، ولكنها لا تلاشى الطبع الأصيل الذي يصطبغ
به مجموع البلاد

٢- في سنتريس صورتان مختلفتان لطعام العيد ، الأولى لعيد
الفطر والثانية لعيد الأضحى ، ففي عيد الفطر يغلب الكمك - وهم
في بلدنا ينطقونه بالحاء المهملة ومنه جاءت كلمة الكيك في اللغات
الأجنبية وهو في الأصل فارسي معرب
ويكثر كذلك « المنين » وهو أقراص صغيرة تحلى بالسكر

أو بالعجوة، وربة البيت تصنع من عجينة الكعك قوسا لكل صبي وعروسة لكل صبية، والقوس كعكة كبيرة تنقش نقوشا مختلفة يفرح بها الصبيان، والعروسة بنية صغيرة من العجين المأدوم بالزبد والمحلى بالسكر والزبيب

وفي عيد الأضحى يكون الطعام من اللحم، ولا يصنع الكعك إلا قليلا

والهدايا تساير هذا الاصطلاح، فالخاطب يهدى لخطيبته كعكا في عيد الفطر، ومعه البندق وعين الجمل واللوز وهذه الأشياء تسمى «الفطرة» لذلك، وفي عيد الأضحى يهدى إليها فخذة الخروف، والعروس بعد أن تزف إلى زوجها ويحىء العيد يهدى إليها أهلها كعكا فيه قوس «للعريس الجديد» وفيه عروسة للعروسة!

٣ - وللکعک فی نفس أهل سنتريس صورة الفرح والانشراح وهم لذلك يحرمونه على أنفسهم في العيد إذا كان في البيت حزن، والأهل والجيران يراعون خواطر من مات لهم ميت لم يمس عليه العيد فيمتنعون عن خبز الكعك، ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فانهم يصنعونه أحيانا للصدقة على روح الأموات، كأنهم يتأدبون بأدب الآية الكريمة (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)

ومن غرائب التقاليد في سنتريس أن الكعك والفطير لا يحسن

صنعه إلا كرائم النساء ، وفي كل حي سيدة أو اثنتان لهما شهرة بذلك : والفتاة التي تحسن « تبطيط » الفطيرة وتجيد « تفتيل » الكعك ، وتعرف كيف تقعد أمام الفرن لانضاج الكعك والفطير ، مثل هذه الفتاة يأتي الجارات لتهنئة أمها ويدعون لها « بعريس الغفلة ، والباب بلا قفلة » وسر ذلك أن الفطير أسيل الخد تؤذيه النار ولا تحسن إنضاجه إلا سيدة لبقة أو فتاة ناضجة الذكاء ، وكذلك الكعك يحتاج في إنضاجه إلى حزم ورفق والبنات التي لا تحسن انضاج الكعك والفطير يسكتها أهل البيت بهذه الكلمة

« اختوا للخاية النقرة ، عيشتها عار وموتها سترة »
ويتبع دلالة الكعك على الفرح والانشراح أنهم لا يصنعونه في غير العيد إلا عند عملية الختان وعند الزواج ، وهو يقدم بسخاء لمن يدفعون النقوط وفيما عدا ذلك يضربون هذا المثل :

« بعد العيد لا ينقتل كعك »

٤ - وألفاظ التعبير تختلف باختلاف المخاطبين فحين تلقى رجلاً كهلاً تخاطبه في عيد الأضحى بهذه العبارة « العيد المقبل تكون على منى » وعندما تلقى شاباً تقول له : « العيد المقبل تكون في حضنك العروسة » والسيدات يتخاطبن فيما بينهن بأمثال هذه العبارات :

« السنة المقبلة يا أختي ، يكون على كتفك ولد! .. السنة المقبلة تكون الشاطرة بنتك لها أخ! .. السنة المقبلة تكون بنتك في بيت العدل » بفتح العين والبدال

وكذلك تمضى عبارات التعيين في حدود المعاني الأدبية والمعاشية ، وكلمة « العروسة » تجري يوم العيد في كل بيت وفي كل شارع وفي كل مجتمع ، وبهذا تأخذ « العروسة » مكانا في خيال الطفل منذ نعومة أظفاره ، فلا يرى نفسه رجلا إلا حين يتزوج ، ولهذه النزعة أثر كبير في منع أزمة الزواج في الأرياف ، وأهل بلدنا لا يعرفون هذه الازمة الاجتماعية على الإطلاق ، وبذلك يغلب عليهم التصون والعفاف ، أكرمك الله ياسنتريس !

٥ — ولصلاة العيد اسم طنان في سنتريس ، وأشهر مساجدها جامع أبي فراج وجامع سيدى سالم ، وهم يزعمون أن «أبا فراج » من العراق ، وأن « سيدى سالم » هو سالم بن عبد الله أحد كرام التابعين وما رأيت في شرح البخارى ينقض ذلك ، ولعل هذا جاء من أن أهل مصر لا يعز لديهم في الغالب غير الغريب ولذلك حرص أهل سنتريس على أن يكون (سيدى سالم) من الحجاز وأن يكون (أبو فراج) من العراق ، والغريب يستطيع بسهولة أن يصطنع لنفسه منزلة عليية أو أدبية أو دينية ، أما ابن البلد فيشقى كما شقيت ولا يعترف له أحد بحميل !

وأعود فأقول إن أهل سنتريس يذهبون إلى المساجد قبل

الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتجهّدون ورد السحر ويرتلون الدعوات والتسبيحات ، أما الشبان فيأخذون معهم في عيد الفطر كميات من البندق وعين الجمل واللوز ويملاؤن المسجد بالفرقة والضجيج ، وفي هذه الاثناء يكون الأطفال قد أحاطوا بالمسجد وشرعوا في ضرب الأسواط والصواريخ !

٦ - يتأهب الفقراء للعيد بشراء ثوب العيد ، وهو في الأغلب من البفتة البيضاء ويلبسونه بلا غسل فيكون له قعقة وحفيف ! والخياطة غالبا من صنعة النساء الفقيرات ، ولا يذهب إلى الخياطين إلا المتأنقون ، وفي يوم الوقفة تجدد الناس يغدون ويروحون للبحث عن ثيابهم ، وقد يتجمهرون على باب الخياط في ليلة العيد ، وهي عند الخياطين ليلة ساهرة يصلونها بالصباح

ولهم في عيد الأضحى خرافة طريفة ، فهم يعتقدون أنه لا تجوز الخياطة ولا حمل الابرة في وقفة عيد الأضحى ، ويزعمون أن الحجاج يدعون عليهم في عرفات فيقولون

(الله عليك يا ما سكة الابرة ، الله عليك يا حالة شعرك !!)

٧ - وزيارة الأموات في ليلة العيد من التقاليد المعروفة في سنتريس ، ولكن لا يبيت أحد منهم كما يقع في القاهرة ، ولا يذهب رجل أوفى إلى المقبرة إلا وفي يده فانوس ، والطبقات الفقيرة تقتنى الفانوس ولا توقده إلا في ليلة العيد لهذا الغرض ، وتكون الفوانيس غالبا ملونة الجوانب بالأحمر والأخضر والأصفر ، كأنها عرائس

هذا الزمان !

٨ - وفي يوم العيد تجلس كل عائلة في الدوار لا استقبال المعيدين وتتنخير كل عائلة (وفدا) للطواف حول البادفنى الشوارع تموج بجماهير تلك الوفود ، ومن واجبك أن تصافح يوم العيد كل من تلقاه وإن لم يكن لك به معرفة ، وأن تدعوله بحج بيت الله الحرام إن كان متزوجا ، وحضن العروسة إن كان عزبا ، وبالذرية الصالحة إن كانت امرأته عقيما

وتلك الوفود تتناول القهوة في كل دوار ، ولا ضرر في ذلك فانها فناجين صغيرة لا يبلغ مجموعها كاسا من الشاي ، ولكنهم يمتنعون عن القهوة في منازل الاحزان ، ولنقيد أن المحزونين لا يقدمون للعزبن غير القهوة المرة ، ولنقيد أيضا أن الميت يقام مأتمه في العيد الاول والثانى بعد وفاته وإن مضت أشهر ، ويسمع الصراخ والعويل في بيت أهله كأنه لم يدفن إلا أمس ، وهذه العادة تضعيع كثيرا من بهجة العيد في سنتريس

٩ - ومع أنه لا يجوز صنع الكعك في المنازل الحزينة فانه يجب على أهل الميت أن يلبسوا في العيد جديد الثياب مع الاحتشام ، والحشمة توجب أن يتجنبوا اللون الأبيض والأحمر ، وأن يتخيروا اللون البنى أو الأسود . ومن غرائب المفارقات أن أهل الأندلس كانوا يختارون اللون الأبيض في ثياب الحداد وفي هذا المعنى قيل هذان البيتان :

يقولون البياض لباس حزن بأندلس وذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شعري لأنني قد حزنت على شباني
ويعتقد أهل سنتريس أن الميت يشتهي في قبره أن يظهر أهله
بمظهر الغنى والجاه ، ولذلك يستحب أن يتمش المحزونون

١٠ - وفي اليوم الذي يسبق وقفة العيد يطوف الجزائريون
بالبلد في موكب من الأطفال اللاعبين ، ومعهم ما أعدوا للذبح من
الغنم والبقر والجمال ، ويكون ذلك قبيل الغروب ، وهي اللحظة التي
يعود فيها الناس من الغيطان ، وينادي المنادي :

غربي البلد بكره ، عند محمود الرفاعي !

شرقي البلد بكره ، عند أبو شعلان !

العسل الشهد عند أبو شبل !

انفرج وشوف يا ابن الحلال !

وفي فجر الوقفة تنحرا الذبائح ويتسابق الناس إلى تموين بيوتهم من
اللحم الغصيب

١١ - وفي سنتريس أسرة قبطية تشارك المسلمين في العيد ،
ولكنهم لا يأكلون لحم الجمل ، وفي الصباح يتكون وفد من
الأقباط للطواف بدواوير المسلمين فيقالون بالترحيب

١٢ - وكانت ملاهي العيد في سنتريس قليلة ، ليس فيها إلا
أراجيح الأطفال ، ولكن جدت في هذه الأيام قهوتان إحداها
على النيل بجوار طريق الاسكندرية والأخرى على طريق أشمون

وفي هاتين القهوتين يدار الفونوغراف ، وتلقى بعض النكت المبتذلة ولا يذهب إلى هذه الملاهي إلا الشبان الذين يخلصون من سلطان الآباء ، فإن أهل سنتريس لا يعيدون إلا في منازلهم ودواويرهم ، ولا يخرج منهم إلى القهوة إلا من وصل إلى أذنه أن المدينة الحديثة لها في العيد مذهب جديد !

ومن المؤكد أن رواد القهوة في سنتريس سيقراءون هذا المقال ويعتبون ، ولكن لا بأس فنحن نصور الواقع رغبة في تأريخ التطورات الاجتماعية في الريف



أما بعد فقد كان حضور العيد فريضة وكنت لا أستطيع قضاءه إلا في سنتريس بين الأهل والأحباب ، ثم راضتني الأيام على احتمال الفراق . وصل الله بكم قلبي يا أهل سنتريس ، وأراني وجوهكم

في خير وعافية والسلام

أول شوال سنة ١٣٥٢

فلمست تدري وإن كنت الحريص متى
تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والملمع
ولست تدري وإن قدرت مجتهدا
متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وإن أرداك متبع
أو قوله :

البنان ردتى اليك من النوى
أقدار سير للحياة دراك
جمعت نزيلى ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
تمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك
والذى يقرأ ما سطره الكتاب فى رثاء شوقى يراهم جميعا وقفوا
يتحدثون عن الموت وعمما بعد الموت ، كأن ذلك الرجل الذى طال
وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون فى التطلع إلى ما سيكون بعد
الموت ... أ كان شوقى أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون ؟
لا ، لم يكن شوقى أول ميت ، ولكن موت الشاعر فجعية تبعث

على التفكير في حقائق الموت والحياة، وخاصة شوقي، فانا لانعرف
إنسانا في مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقي، ولا نعرف شاعرا
تغنى بأطياب الحياة كما تغنى شوقي، فكان من الحق أن نسأل: وشوقي
أيضا يموت؟!

وبعد فمن شوقي؟ وما شعره؟

كان شوقي عاديا في حديثه، وفي مظهره، ولكنه كان في شعره
أعجوبة الأعاجيب، وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين
ظنوا الشعر من وحى الشياطين. فما أذكر أن حديث شوقي راعني
مرة، أو داني على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول. وكان
مظهره بسيطا جداً لانه كان يرفض اللباس الأنيق، وإنهم ليدكرون
أنه كان يضيق صدره بالملابس الرسمية، وأنه طلب من الخديو السابق
أن يعفيه من لبس الرديجوت في قصر عابدين، وأن الخديو أعفاه
وأن شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم
بعض السفراء.

ولكن هل العبقرية لباس مهندهم ولسان معسول؟

هيهات! لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن
يكون أشعر الناس في زمانه، لان العبقرية سر مكنون، وقد أفصح
هو عن ذلك أبرع إفصاح حين قال:

رب سامي البيان. نبه شاني

أنا أسمو إلى نسبة شانه

كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ في سواء عنائه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر

مى وإن عشت طائفا بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تخنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى

من يد فى صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذى وهبه شوقى كانت الدرع الحصينة
التي يدفع بها سهام الحاقدين ، فقد قامت فى وجه الرجل أعاصير جائحة
من النقد المسموم ، قُتبت لها ثبات الجبال الرواسخ ، وظل هوفى
جميع الأحوال لا يخبو زنده ، ولا ينكسر جناحه ، ولا يقع طائرته ،
مع أن حاسديه لم يتورعوا - وهم ينهشون لحمه - من رميه بما يهد عزائم
الرجال . وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من
أجمل ما تغذى به خياله الوثاب ، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا
عليه سكوته عند نعى حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل ،
فدمغهم بقوله فى رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

على التفكير في حقائق الموت والحياة ، وخاصة شوقى ، فانا لانعرف
إنسانا فى مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقى ، ولا نعرف شاعرا
تغنى بأطايب الحياة كما تغنى شوقى ، فكان من الحق أن نسأل : وشوقى
أيضا يموت ؟ !

وبعد فمن شوقى ؟ وما شعره ؟

كان شوقى عاديا فى حديثه ، وفى مظهره ، ولكنه كان فى شعره
أعجوبة الأعاجيب ، وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين
ظنوا الشعر من وحى الشياطين . فما أذكر أن حديث شوقى راغى
مرة ، أو دلى على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول . وكان
مظهره بسيطا جدا لأنه كان يبعض اللباس الأنيق ، وإنهم ليدكرون
أنه كان يضيق صدرأ بالملابس الرسمية ، وأنه طلب من الخديو السابق
أن يعفيه من لبس الرديجوت فى قصر عابدين ، وأن الخديو أعفاه
وأن شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم
بعض السفراء .

ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول ؟
هيهات ! لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن
يكون أشعر الناس فى زمانه ، لأن العبقرية سر مكنون ، وقد أفصح
هو عن ذلك أبرع إفصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شانى

أنا أسمو إلى نباهة شانه

كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ في سواء عنه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر
مى وإن عشت طائفا بدنانه

وهبوني الحمام لذة سجع
أبى فضل الحمام فى تخنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذى وهبه شوقى كانت الدرع الحصينة
التي يدفع بها سهام الحاقدين ، فقد قامت فى وجه الرجل أعاصير جاثحة
من النقد المسموم ، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ ، وظل هوى
جميع الأحوال لا يخبو زنده ، ولا ينكسر جناحه ، ولا يقع طائرته ،
مع أن حاسديه لم يتورعوا - وهم ينهشون لحمه - من رميه بما يهد عزائم
الرجال . وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من
أجمل ما تغذى به خياله الوثاب ، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا
عليه سكوته عند نعى حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل ،
فدمغهم بقوله فى رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة
 قدر ، وكل منية بقضاء
 وودت لو أنى فداك من الردى
 والكاذبون المرجفون فدائي
 الناطقون عن الضغينة والهوى
 والموغرو الموتى على الأحياء
 من كل هدام ويبنى مجده
 بكرائم الانقراض والاشلاء
 ما حطموك وإنما بك حطموا
 من ذا يحطم رفرف الجوزاء !
 انظر فأنت كأمس شأنك باذخ
 في الشرق واسمك ارفع الأسماء
 وهو يعنى نفسه بالبيتين الأخيرين ، وإن توهم القارىء أنه يعنى
 حافظ إبراهيم



كان شوقى مفطورا على الشعر ، وكانت الحياة فى عينيه شعرية
 الملامح ، وكان يستبجح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء
 وكانت حياته فى بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعرى أخاذ ، وكان

هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلا على أن
 الرجل يقظ المشاعر ، وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود ، وكان
 الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب . وقد تصادفنا
 حيناً وألفنا التلاقي في كل يوم حقبة من الزمان ، فكنت ألاحظ أن
 للرجل نواحي هو فيها أضبط من الساعة - كما نعبر في لغة الحديث -
 ونواحي يهمل في ضبطها وتحديدها أغرب الإهمال ، وهو في نظامه
 واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون
 وكان شوقي مفتونا بأبنائه إلى حد العشق ، وخاصة بابنته أمينة
 وابنه حسين ، وله في أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر
 العقل والذوق والروح ، وكان يتعلق بأصهاره تعلقا شديدا يذكر
 بعيش الفطرة في خيام الأعراب ، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فائدة
 جذابة ، لأن الرجل في شعره وفي صميم قلبه وروحه ونظامه
 السياسي والاجتماعي كان رجل دنيا ، وكان لا يفهم كيف يكون الزهد
 وكيف يكون الاعراض عن أطايب العيش ، والذين لاموا شوقي على
 التشبث بأهداب الجاه العريض لم ينظروا إلى الدنيا بعينيه القلقتين
 ولم يعرفوا كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش
 على شواطئ النيل . والحياة في مصر - وفي الدنيا كلها - لا تتم أسبابها
 بغير الجاه والمال ، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر ، ولتصور
 القارئ كيف يكون فهم الشاعر ، وخاصة عند أمثال شوقي ممن
 تلقوا الدنيا بحس مرهف وذوق مصقول

كانت لشوقي دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعى الحوادث
كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة ، وقد ظلت ذكريات ذلك
الفردوس المفقود تعتاده فى اليقظة والنام ، وذلك هو سر تحفظه
وحيطته فى كل ما يمس دقائق السياسة العالية ؛ فان قال ناس إنه لم
يهب الجماهير صفو شعره فليتكروا أن ذلك لم يكن ليقع لو أن
الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية ، وكيف وكان يزهى ويفتن كلما
تذكر أنه ولد فى رحاب المجد والجاه !

كان شوقي مفتونا بشعره كل الفتون ، وكان لا يصدق أن فى
الدنيا شاعرا غيره ، وكان يعادى ويصادق على هذا الأساس ، وقد
اتفق أن توثقت بيننا أواصر الصداقة بعد عودته من المنفى ، وظلت
صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام ، فلما كان صيف سنة
١٩٢٥ طلب منى أن أكتب مقدمة للشوقيات فقبلت ، ثم عدت
فتذكرت أن الذوق يفرض أن تكتب المقدمة بشئ من الجمالة ،
وأن هذا قد يضرنى إذا اضطرت لنقد شعره فى مستقبل الأيام ،
فكتبت إليه خطابا أعذر عن كتابة مقدمة الشوقيات ، وكان فى
الخطاب تعليل لذلك الاعتذار يتلخص فى مصارحته بأنه عرضة
للخطأ والصواب وأنتى أحب أن أحتفظ بحريتى فى نقده إذا اقتضى
الحال . وكنت أنتظر أن يتقبل الرجل عذرى ، ولكنه أسر الغضب
وأضمر الجفاء وطوى ما كان بيننا من وداد منذ ذلك الحين ^(١)

(١) ومع ذلك فقد بالغ الدكتور فى الثناء عليه بما لا مزيد فوقه وتلك لعمري
أحاسن أخلاق العلماء . مصححه .



كان شوقي من كبار أهل العلم بأسرار اللغة العربية ، وقد دانت له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائده تحمل من صنوف الثروة اللغوية مالا تظفر به قصائد غيره من المعاصرين إلا في النادر القليل ، ومن رأى بعض رجال الأدب أن شوقي كان أعلم من حافظ باللغة ، وحجته في ذلك أن حافظ لم يملك غير الديباجة المتينة أما شوقي فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعر القارئ أنها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال ، وكان شوقي بالفعل من المولعين بالمراجعات الموصولة في كتب الأدب والتاريخ وكان يفهم جيداً أنه من أئمة الأدب ، وأن من واجبه أن يتعرف إلى روائع الأدب القديم والحديث ، وكان له مثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية وإن كانت صلته بأدب أوروبا وأمريكا وقعت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة ، ومثل شوقي كانت تكفيه اللمحة الدالة ، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأفاصيص .



كان شوقي من حيث الديباجة في الذروة العالية ، وكانت

معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد ، وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقد النزيه حين قرروا أن شوقي لم يكن في معانيه من المبدعين ، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقي كان من أسبق الناس إلى تدوين كبريات الحوادث في مصر والشرق ، وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل .

وقد ابتدع شوقي القصص الشعري المسرحي لأول مرة في تاريخ اللغة العربية ، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة ، ولكنه أول من نجح نجاحا يذكر ويؤثر ، وسينسى التاريخ المحاولات الأولية مع الأسف ، ويذكر أن شوقي هو أول من شغل المسارح برواياته الشعرية ، وأول من طاف بشعره الممثلون في مختلف الأقطار العربية

وبعد فهذه كلمة قصيرة في توديع شوقي ، وإن نفسى لتطيب كلما ذكرت أنى كنت أول ناقد أنصف شوقي في حياته كما يشهد بذلك كتاب « الموازنة بين الشعراء » ويرحم الله من قال :

وطيب نفسى أتى لم أقل له كذبت ولم أبخل بماملكت يدي

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢

النباتيون في باريس

حقائق تنفع الشباب والكهول

باريس في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠

إن المذاهب الفلسفية لا تنشأ مصادفة واتفاقاً، ولكنها تنشأ وفقاً لطائفة من الغرائز والطبائع والميول والأهواء، ولن تجد رجلاً يتشيع لمذهب من المذاهب الروحية، أو الطبيعية، أو الاجتماعية إلا خضوعاً لحاجة ملحة من تكوينه الطبيعي والجسماني والحسي. فالفلسفة ليست من الشؤون الكمالية كما يتوهم المتوهمون ولكنها ضرورات الحياة يلجأ إليها من خاتته قوة من قواه أو ألح عليه هوى من أهوائه، أو اضطرب نظام أعصابه، أو أمعائه، أو غلبت عليه أزمة من الأزمات الاجتماعية التي تفرض تغيير نظام الاجتماع من وضع إلى وضع، وتبديله من حال إلى حال. وأهل الفلسفة ليسوا هم طلبة الفلسفة ولا أساتذة الفلسفة الذين يدرسونها في المعاهد والجامعات؛ فقد يكون أكثر طلبة الفلسفة وأساتذتها ناساً عاديين هادئين لم يجدوا من تقلبات الحياة وصروفها ما يحملهم على اعتناق مذهب من المذاهب الفلسفية، وإنما أهل الفلسفة هم

الناس الحساسون الذين اصطدموا بأمواج الحياة فغالبوها وغالبتهم
 وكان منهم المنتصرون والمنهزمون، ولو أننا عدنا إلى الفلاسفة فدرسنا
 حياتهم الخاصة ، وعرفنا كيف كانوا يعيشون في منازلهم ، وبين
 أزواجهم وأبنائهم ، وأصدقائهم وأقربائهم ، وخطائهم وعشوائهم
 ثم تطرفنا فبحشنا كيف كانوا يلهون ويلعبون ، وكيف كانوا يجدون
 ويعملون ، وكيف كانوا يحبون ويبغضون ، ومن أى طبيعة
 كان حبهم وبغضهم ، وجدهم ولعبهم ، وعلى أى حال من الأحوال
 النفسية كان أحبابهم وأعداؤهم وأنصارهم وحسادهم ، لو أننا درسنا
 حياة الفلاسفة بشئ من الاستقصاء لعرفنا كيف تكونت فكرتهم
 الفلسفية ، وعرفنا ما السبب في أن بعضهم يقبل على مذهب وينحرف
 عن مذهب آخر ، وما السبب في أن هذا الفيلسوف كان من
 الروحيين ، وذلك كان من الطبيعيين، وهذا كان من فلاسفة الاجتماع
 وذلك كان من أصحاب الرأي في الحق أو الخير أو الجمال. فان الواقع
 أن كل كلمة يخطها الأديب العبقري أو الفيلسوف المتمرد، ترجع
 إلى طائفة معقدة من الحوادث الفردية والاجتماعية ، وليست الآثار
 الأدبية والفلسفية إلا صدى لزواجر وأعاصير ورعود مرت بنفس
 الأديب أو الفيلسوف ، والقارئ قد يلهو وهو يقرأ ما يقع له من
 آثار الفلاسفة والأدباء ، غير مكترث بما بين يديه من عصارة
 الاحشاء والاعصاب والقلوب ، ولعله لو تأمل لرأى في ظلال كل
 كلمة حشا يتفتت أو قلبا يذوب .

أكتب هذا تمهيداً لما أقدمه من أعمال النباتيين في باريس ، فاني لا أظن أن المذاهب الطبيعية تنشأ في مثل باريس حبا في الشهرة وطلباً لبعده الصيت ، كلا وإنما استطاعت باريس بما فيها من تعقيد اللهو والطعام والشراب ، وما يجري في خفايا بيوتها من البؤس والفاقة والضجر والاكتئاب ، استطاعت باريس بعنفها وجبروتها أن تهدي ناسا وتضل آخرين : فهي مأوى لجميع المذاهب الأدبية والفلسفية إذ كانت مأوى لأكثر الأشقياء والسعداء والمترفين والبانسين ، ففي كل ركن من أركانها يشقى ناس ويسعد ناس ، ويموت فريق من البطنة وفريق من الجوع ، ويغتسل ناس باللبن لتنعم أجسامهم فيما يزعمون ، ويبحث آخرون عن لقمة فلا يجدون ، ومثل هذا الجو المعقد جدير بأن يخلق ألوانا من التفكير يختلف بعضها عن بعض أشد الاختلاف : فللمدرسين فلسفة ، وللفنانين فلسفة ، وللعمال فلسفة وهكذا دواليك حتى لا تجد باريسيا واحدا خالي الذهن من المشاكل العقلية والروحية والاجتماعية ، وإنك لتجد صدى ذلك كله في الجرائد وفي الأندية وفي المطبوعات ، وعلى ألسنة الناس حيث تجمعهم ساعات العمل أو ساعات الفراغ .

وليس معنى ذلك أن الفلسفة النباتية لم تنشأ إلا في باريس ، لا فهي فلسفة قديمة عرفها الهنود والعرب واليونان ، وهي فوق ذلك كله فلسفة طبيعية : فهناك ناس يفرون بفطرتهم من اللحوم من دون أن يعظم أديب أو فيلسوف ، ففي القرى المصرية يوجد أفراد

لا يا كلون اللحم ، وليس امتناعهم عن أكله أثراً للاقتصاد أو الفلسفة ، ولكنهم لا يسيغونه ولا يشتهونه ، وأنياب الانسان عند التأمل غير مستعدة لأكل اللحم ، وإن كان هذا لا يمنع أن في الناس من يأكلون السمك نيئاً ، وأقول السمك فقط ، لأنني ماسمعت ولا رأيت إنساناً يأكل لحم الحيوان قبل أن تنضجه النار ^(١) وقديما وجد في العرب لعهد النبوة من حرم اللحم على نفسه فنزلت آية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وامتناع الانسان عن اللحم امتناعا مطلقا يبدو كأنه فلسفة عديمة القيمة ، وقد امتنع أبو العلاء المعري عن أكل اللحم ، ويؤثر أن طبيبه وصف له فروجا يأكله وقد أبل من مرض ألم به ، فللمسح صاح : « استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شبل الأسد ! » وهي سذاجة من جانب أبي العلاء ، وإلا فلو وصف له شبل الأسد فأكل منه لعجزت أمعاؤه عن هضم ذلك الضاري الفتاك

والأطباء حين يصفون اللحوم البيضاء يسايرون الطبيعة ، فانه لا جدال في أن الانسان بطبيعة تكوينه قادر على هضم لحوم الطير بلا مشقة ولا عناء ، وفقهاء الشريعة الاسلامية كانوا على حق يوم تعرضوا للحمل الجمل واستحبوا أن يضعوا لآكله بعض الآداب الخاصة بالوضوء والاغتسال ، لأن لحم الجمل قوى لا يهضم بسهولة .

(١) علمت أن بعض القبائل الوحشية تأكل اللحم نيئاً ، ولكنهم في الأغلب

يضعونه في ترابيل تليته

وقديما عاب كسرى على العرب إقبالهم على لحم ذلك الحيوان ، ورأى
في أكله نوعا من الوحشية والاستذآب

وبعد فقد أنشئت جمعية النباتين في باريس سنة ١٩١١ وهى
تسمى بالفرنسية « علامة الوصل » أنشأها جماعة من محبي الفلسفة
والراغبين فى إنقاذ الحياة الانسانية من مضار اللحم والخمروالتدخين
واليك ترجمة المبادئ التى أعلنتها يومذاك:

أولا - نحن نعتقد أنه من الممكن لكل إنسان فى الحالة
الاجتماعية الراهنة أن يصل بمراعاة أفضل قواعد الصحة والتهديب
الشخصى إلى تحسين عظيم الأهمية فى تقويم حياته

ثانيا - نحن نعتقد أن قيمة الأفراد هى التى تكون قيمة الجماعات
وهى التى تحدث أعظم الأثر فى الأنظمة العمومية

ثالثا - ونحن نعتقد - تبعا لذلك - أن كل إنسان عليه واجب
خطير نحو نفسه ونحو المجموع ونحو مستقبل النوع، وذلك الواجب
يتحقق حين يعمل جهده فى إصلاح حياته الفردية

رابعا - نحن نعتقد أن جهد الانسان فى إصلاح نفسه له نتيجة
لازمة هى ظفـره بمقدار من السعادة يتناسب مع ما يبذله فى هذا الشأن
خامسا - نحن نعتقد أن دراسة قوانين الطبيعة والوفاء لمبادئها
تعطى الانسان أصدق المرشدين لتقويم نفسه

سادسا - نحن نعتقد أن للفكرة وللارادة الانسانية قوة عظيمة
وأنه يجب أن يستخدم الانسان فكرته وإرادته عن عزيمة صادقة

في عمل الخير ، والسمو إلى الآفاق العلوية
 سابعا - نحن نعتقد اعتقادا جازما بالانتصار المؤكد للجمال على
 القبح ، والحق على الباطل ، والبر على الأثرة والحققد
 ثامنا - نحن نعتقد أن الوسائل الفعالة في تحقيق النفع هي
 الحب الشامل والاخاء والتعاون ، وأنه لا شيء من الحق أو الجمال
 أو الخير يمكن أن يبنى على أساس الحققد والتحزب والتعصب
 والمنافسة والانتقام والاضطهاد

تاسعا - نحن نعتقد وجود الجاذبية العامة ، والعطف المشترك
 بين من يعملون مخلصين للخير ، وإن كانوا متعارضين في الظاهر
 لأن الطرائق لايجاد مستقبل أحسن تختلف بمقدار ما تختلف طبائع
 الناس .

هذه هي المبادئ التي أعلنتها جمعية النباتيين يوم إنشائها ، والذي
 يتأمل هذه المبادئ يرى أنها تعطي القوة الفردية قيمة كبيرة ،
 والفرد في حقيقة الأمر هو الحجر في بناء الجماعة ، وكل بناء لا تسلم
 أصوله لبنة لبنة ، وحجراً حجراً ، قريب من التداعي والسقوط .
 والطرائق لتحقيق هذه المبادئ تتلخص فيما يأتي :

أولاً - الامتناع المطلق عن المشروبات الروحية .
 ثانياً - الامتناع عن التدخين وجميع المواد التي تميل بالجسم
 إلى التخدر والذهول
 ثالثاً - الامتناع عن اللحوم وجميع الأطعمة التي تثير الشهية

رابعا - الاقبال يوميا على الاستحمام ، أو على الأقل ذلك الجسم .

خامسا - الحياة في الهواء الطلق وفي الشمس كلما أمكن ذلك
سادسا - القيام يوميا بطائفة من الألعاب البدنية التي تحيى الجسم وتنبه قواه الغافية

سابعا - تقوية الاحساس وفهم الجمال وذلك يتحقق بتخصيص جزء من كل يوم لدراسة الاحساسات والمشاعر الفنية النبيلة ومشاهدة الجمال

ثامنا - تقوية الذكاء بالمطالعة والدرس المنظم الموصول للنصوص التي تتطلب جهودا عقلية

تاسعا - تقوية ملكات النفس من اعتدال واتساق وابتهاج وصبر واحتمال وثبات وحزم وكرم وحب

عاشرا - تمرين الارادة على الحياة العالية وذلك يتحقق بالاشتراك عن إخلاص ونزاهة في أعمال الخير والبر التي يتجه نفعها إلى الانسانية بدون تفريق بين الأجناس والأديان



وللقارئ أن يسأل : هل لهذه الجمعية شهرة وسلطان في باريس ؟

والجواب بالسلب : فقد طال ترددى على هذه المدينة منذ أعوام

ولم أر أثرًا فعالاً لهذه الجمعية ، وقدمت في صدر هذا المقال أن المذاهب الفلسفية لا تخلقها إلا الضرورة ، فمن المعقول إذن أن تكون أعمال النباتيين وجهودهم مقصورة النفع على من يجد الحاجة إلى متابعة ما يفرضون من القواعد والأصول ، وأهل باريس نشاوى من الخمر والحب وقلما يفيقون .

وحسب القارىء أن يعلم أن المطاعم في باريس تعد بالآلوف يجدها الانسان حيثما توجه ، ومع ذلك لا يوجد للنباتيين في باريس إلا مطعمان لا ثالث لهما ، وهذا دليل على أن النباتيين لا يتجاوزون بضع مئات في مدينة كاد سكانها يبلغون ستة ملايين .

ولكن كيف حال المطاعم النباتية ؟

الواقع أنها غير مغرية ، وأنا شخصيا لم أتردد عليها إلا بقدر ما أعد المستندات لهذا المقال ، وهى فى الجملة خالية من كل أنواع الخمر ولا يشرب الآكلون فيها غير الماء ونوع من عصير العنب غير المختمر وفى الخمر معنى ليس فى العنب كما يقولون ، ولا يباح التدخين للآكلين والخبز جاف جدا لأنه على طبيعته الجافية لم تنزع منه النخالة ، والمائدة تتكون من الحساء والخضراوات والبقول والفواكه والبسكوت وليس فى هذه المطاعم خدم يوزعون الطعام على الزائرين وإنما يذهب كل امرئ . ومعه ماعونه يأخذ فيه ما شاء من أنواع الطعام وهو طعام تغلب عليه « قلة الطهى » خلوه من إدام اللحوم وهو كثير الأنواع ويختلف باختلاف الأيام ، والملح فى هذه المطاعم

جريش غير مطحون . والآكلون في هذه المطاعم يتكلمون بعضهم مع بعض بدون تعارف خلافا للقواعد المتبعة في باريس حيث يعد ذلك نوعا من الفضول . ومواعيد الطعام يغلب عليها التبكير ، فإذا ذهبت قبل الظهر بساعة مثلا وجدت الناس سبقوك إلى هناك وكذلك يبكرون في طعام العشاء . والكامخ (السلاطة) يعطى بلا حساب . وهو مصنوع من الكرنب والجزر والبطاطس والزيت والبصل . والمطعم في جملته تغلب عليه الصبغة الطبيعية ، وزوار هذه المطاعم غرباء في باريس حتى لتكاد تحسبهم من أهل ما قبل التاريخ !

لقد ذكرني هؤلاء النباتيون بفقراء الفلاحين في مصر ، فهناك عائلات فقيرة لا تعرف ما طعم اللحم إلا في المواسم والأعياد ، وهم مع ذلك في غاية من سلامة الخواص ، وعافية الأبدان . فمن الفقراء الفلاحين من يفهمهم بأنهم فلاسفة من حيث لا يشعرون ؟

إنما ينافق الضعفاء

تنصحنى يا هذا بأن أجامل ، وأن أصانع ، بل تريد أن أنافق ، ويحك ، إنما ينافق الضعفاء

إن الله لم يخلقني لأكون ألعوبة ، أدارى هذا وأحاجى ذاك ؛ أنا خير منكم جميعا ؛ بل سيدكم جميعا ، فانظروا ما تصنعون

أنا في نعمة من الله ، لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم ، وأين يكون رضاكم ، وإن الله لأكرم من أن يضطرنني إلى مصانعة جماعة من الكسالى لقيمة لهم في هذا الوجود . لاتنصحوني وانصحوا أنفسكم ، حدثونا ماخطركم في هذه الحياة العاملة ، التي نطق فيها الحجر وأتم بفضل جهلكم صامتون ؟

إن فضيلة الوفاء هي التي تضطر مثلى إلى أن يحامل بعض الناس وسأعرف كيف أهجر الناس جميعا حين لا يرضيهم غير النفاق !
هذا هو فصل الخطاب : أستم تريدون أن أنافق كما تنافقون ؟ كلا
لن يكون ذلك : إنكم تنافقون لتعيشوا ، أما أنا فحى بالرغم منكم ،
لأن الله لا يريد أن أموت ؛ وسوف تعلمون
أغسطس سنة ١٩١٩

الحياة الحرة^(١)

يذكرون أن السيد جمال الدين الأفغاني رفض مساعدة المصريين له وهم يودعونه إلى منفاه ، فلما ألحوا عليه أقنعهم بهذه الكلمة « أينما توجه الليث وجد فريسته » وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يستطيع مكاثرة (قارون) لو كان للبال عنده قيمة ، ولكنه

(١) نشرت في جريدة الأفكار في نوفمبر سنة ١٩٢٢

كان رجلا يستقل الموت في سبيل الشرف ؛ فلم يكن عجبا أن يستقل في سبيله العدم والاقلال !

واليوم نسجل مانقل عن المستر لويد جورج من الرغبة الشديدة في الحياة الحرة، لأن في ذلك عبرة لأولى الأبصار : فقد جاهر الرجل الذى دوخ العالم بضع سنين بأنه مضطر إلى طلب الرزق ، وصرح بأنه فقير ولا عار عليه في فقره إن عمل لسد حاجته من طريق شريف ! سقط لويد جورج ، ثم تأمل فاذا هو خالى الوفاض ، ثم نظر حواله نظرة الليث الجائع فاذا كل ما فى الأرض من طعام وشراب قد لوته الذباب ، ففرع إلى قلبه يستصرخه فأمطره شآبيب الرزق الحلال !

اتفقت جريدة النيويورك تيمس والشيكاغو تريبون مع المستر لويد جورج على أن يقدم لهما كتابه « ذكريات الحرب » ليختصا بنشره في مقابل أربعين ألفا من الجنيهات يأخذها دفعة واحدة حين يسلمهما الكتاب !

ثم اتفقت معه بعد ذلك جمعية النشر الأمريكية على أن يكتب لها مقالات أسبوعية تنشر في صفحتها التى تزيد على ثلاثين صحيفة في مقابل سبعة آلاف وخمسمائة من الجنيهات ! ولكن مراسل النيويورك تيمس والشيكاغو تريبون خاطب هاتين الجريدتين حين علم بهذا الاتفاق : وسألهما أيدخل فى مزايدة ويتفق مع المستر لويد جورج على ٨٥٠٠ أى بزيادة الف جنيه عن المبلغ الذى قبله من

جمعية النشر وهل له أن يزيد المبلغ إلى تسعة آلاف جنيه ؟ فجاء الرد بأن يحتاج على هذا الاتفاق : لأن اشتغال لويد جورج بهذه المقالات يؤخر وضع كتابه ، ولأن ظهور هذه المقالات أسبوعياً قد يصرف الناس عن ترقبه ، فلما رفع المراسل إليه الاحتجاج كتب من فوره إلى الجريدتين خطاباً طويلاً جاء فيه :

« ما ظننت لحظة أن العقد الذي وقعته يمنعني من نشر المقالات السياسية ، ولو رأيت فيه مادة من هذا القبيل لرفضته : فقد عولت بعد أن استقلت على الاشتغال بالكتابة في الصحف بغض النظر عن كتاب « ذكريات الحرب » ولقد خدمت الحكومة سبعة عشر عاماً ثم خرجت وأنا فقير فلم يكن بد من أن أكتسب بقلبي بعد ما وقفت ما سأخذه منكم على الصدقات »

هذا لويد جورج بطل انجلترا يودع رئاسة الوزارة ويودع معها الجاه والمال ، ليستقبل الحياة الحرة ، وليفتح بقلبه ممالك عجزت عن فتحها الجيوش والأساطيل !! وهكذا يشغل العظماء عن أنفسهم حين يتولون المناصب الرفيعة ، فإذا تخلوا عنها أصبحوا فقراء كأنما يطرقون باب العالم من جديد ، أما صغار النفوس فلم من مصالحهم الشخصية شاغل عن مصالح الجماهير ، والمناصب فرصة لهؤلاء يدخرون فيها الدراهم البيض لليالئ السود . افتحوا أعينكم أيها الناس وتأملوا كيف عجز لويد جورج وقدماء المشرقين عن أن يدخروا لنفسه « بدرة من الذهب » ينفقها حين يخونه الحظ ، ويسلبه التوفيق !!

لا ينجل لويد جورج ولا يتخرج من أن يقول إنه فقير ، لأن
الغنى لم يمنع آلاف الناس في إنجلترا من أن يودوا بجدة الأنف لو
أصبحوا فقراء على أن يكون لهم ما لهذا الفقير من مجد شامخ يعز
على من رآه ويطول ، ولكن بعض الناس في مصر - وفي غير مصر -
يخفي فقره ويسامى الأغنياء فيكون مثله كمثل الضفدعة التي راقها
جسم الثور ، فأخذت تنتفخ عساها تصبح في ضخامته حتى بقرها
الاتفاخ

ولئن حمدنا للمستر لويد جورج وقفته هذه في وجه الحياة
يطلب ما خلق له من السيطرة على الناس بأرائه الأدبية والسياسية
بعد هيمنته عليهم هيمنة فعلية حين كان رئيسا لأقوى حكومة في
العالم الحديث ، فانا لنحمد للامة الانجليزية والشعوب الامريكية
هذه الشهوة الحادة شهوة الاطلاع التي جعلت رسائل هذا الوزير
مما يتنافس فيه المتنافسون ، حتى لتصبح شغلا لثلاثين جريدة لمن
ما لمن من الدوى الشديد في آذان الملايين من أحرار العقول !

لقد غلا كل شيء في الغرب حتى المداد ، ورخص كل شيء في
الشرق حتى الدماء !! وإن قطرات من الخبر يسود بها لويد جورج
وجه القرطاس لأعز منالا من الدم القاني يسفح في سهول الشرق
وإن بكت له الأرض والسماء

ويديكم أيها الشرقيون كشف هذه الغمة ومحو هذا الظلام ،
فلو شتم أعزتم نفوسكم ، واغليتم دماءكم ، ولن يكلفكم ذلك أن

تكونوا ناراً تلتهم القابسين والمستصبحين ، بل يكفي أن تكونوا
نبذة مرة المذاق ينفر منها أولئك (الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها
وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)

اعملوا في شبابكم بعض ما يعمل لويد جورج في مشييه ، واعلموا
أن الأمم لا تحيا بالقليل والقال ، وكثرة السؤال ، وإنما تحيا بالأعمال
العظيمة يقوم بها جبايرة المفكرين من حيث لا يتغنون الجزاء

الادب عند الاحياء

ذهبت لزيارة صديق فرنسي حجه عنا المرض يومين ، فتجلد
وأقبل يحيني ويحي رفيق الذي صحبني إلى هناك . وبعد لحظة هممنا
بالانصراف ليعود إلى سريره الصديق العليل ، ولكن قادما طرق
الباب ، ففتح له فاذا رجل فرنسي يكاد ينقله الفرع إلى هذيان الجنون
وهو يصيح :

— اليك يا صديقي مجموعة من (كانديد) و (جرنجوار) تقتل
بها وحشة الليل إن أزعجك المرض وغاب عنك الأنيس
وأقبل الصديق العليل على تلك الصحف يقلبها واحدة واحدة
وقد تمشى البرء في سقمه وعاوده الجذل والنشاط ؛ وأخذ الصديقان
يتقارضان الثناء ؛ وأخذ رفيق يجاذبهما أطراف الحديث ، أما أنا فظلمت

مطرق الرأس أفكر في حياتنا الأدبية وما ينتابها من خمود
عندنا في مصر أدباء ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن يشغلوا
القراء بالأدب ، وأن يصيروه من العناصر الضرورية لمقومات الحياة
فكيف اتفق ذلك مع كثرة الصحف وكثرة الكتاب ؟

السبب واضح : ذلك بأن أدباءنا لما يعرفوا أن الأدب في صميمه
ليس إلا شرحاً لأهواء النفوس ، وشهوات العقول ، ونزوات
القلوب ، ومن أجل ذلك كان أدباء فرنسا أعز الناس على القراء ، لأن
كل قارئ هناك يجد فيما يقرأ صوراً صادقة لمشاكله الروحية
والوجدانية والعقلية . أما هنا فالأدب في جملة ثروة فارغة بعيدة
أشد البعد عن حياة العواطف والقلوب والعقول ، لأن الحديث
عن الوجدان طيش وخلاعة ومجون ، والحديث عن العقل زيغ
وزندقة وإلحاد . وبهذا ينصرف الأدباء طائعين أو كارهين إلى الأدب
الصوري الذي يتمثل في طنطنة الألفاظ لا في روعة الأغراض

ومن أشنع ما رزى به الأدب في مصر أن هناك طائفة من
« المجددين » هم في أنفسهم حجارة صماء ، وقد استطاع هؤلاء أن
يفرضوا « أسماءهم » على الناس ، ولكنهم لم يهتموا وجمودهم لم
يستطيعوا أن ينقلوا أحداً من غي إلى رشد ، أو من هدى إلى ضلال .
والأدب الصادق هو الذي يدخل على النفوس فيبدد ما كان فيها من أمن
وسكون ، ويحورها إلى ميادين يصطرع فيها الحق والباطل ، والشك
واليقين .

وقد تسمعون أحيانا أن من المؤلفين الأوربيين من تقدم إليهم
ثمرات مؤلفاتهم قبل أن يشرعوا في تأليفها ، فاعلموا إذن أن الناشرين
يثقون بخطر أولئك المؤلفين ، ويعلمون أنهم سيطلعون على الناس وقد
اكتشفوا آفاقا جديدة كانت مجهولة من حيوات النفوس الانسانية
وكثير من الناس لا يعرفون أنفسهم ، وينتظرون من يدلهم على
ما فيها من أصول الخير والشر ، والبر والعقوق ، والنفس دنيا
ثانية فيها أزهار وأشواك ، وسهول ونجود ، وفيها كذلك مناطق
خطر ومناطق أمن ، وفيها أيضا عوالم شدة وعوالم رخاء
وفي اكتشاف ذلك العالم المجهول ، عالم النفس الانسانية تتفاوت
أقدار الكتاب والشعراء والمؤلفين ، وخريطة ذلك العالم خريطة
مطموسة لارسوم فيها ولا حدود ، ويمكن أن يقال مع هذا إن
رموزها سهلة الحل لأهل الصدق ، أما المنافقون من أدعياء الأدب
فهم عنها مبعدون . وهل جزاء النفاق إلا الحجاب عن مشارق
النور الخالد ، نور العقل المتمرد والقلب الخفاق ؟

٣ سبتمبر سنة ١٩٣١

ذكرى صديق

كان مسلم بن الوليد يعجب من اتفاق اليأس والحنين ، وكنت
أشاطره العجب ، فأتروني بقوله :

حنين ويأس كيف يلتقيان مقيلاهما في القلب مختلفان
ثم أصبحت مؤمنا بهذا الاتفاق ؛ فلا أراه عجيبا ، فقد مات
صديقي الشيخ حسين الحكيم منذ سنين ، وأمست يائسا من لقائه
بل الطمع في لقائه جنون ، ولكنني أحسن إليه كأنه حي وأكاد أزوره
في منزله ، لأنسى - حين ألقاه - همومي وأحزاني !!

والحق أنني لا أريد الاقتناع بأنه مات ، فليس إلى الصبر على
موته سبيل ، وإنما أغالط حسي ، وأخادع نفسي : فأتوهم تارة أنه على
سفر ، وأن هذا السفر طويل ، وأتخيل تارة أخرى أن الموت لا
حقيقة له ، وإنما ننقل من دار إلى دار كما قال أبو العلاء ، وأنا
سأجده في انتظاري حين أنقل إلى الدار الباقية ، فالى الملتقى يا صديق
العزير !!

آمنت بالله ، فما أحوجنى إلى الايمان وما أغنى الله عني ، وعن
إيماني ، وعن جميع العالمين ، وماذا يغني الشك ؟ إنه لا يقف دورة
الفلك ولا يحول بين القدر وبين تصرفه في الكائنات ، بالمحو

والاثبات ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب !! آمنت
 بأن الله قوى ، وأن العبد ضعيف ، وآمنت بأن الله عزيز ، وأن
 العبد ذليل ، ولكن أليس لى فى ضعفى وذلى ، أن أطلب من الله فى
 عزته وقوته أن يهينى الطمأنينة على مصيرى ومصير من أفقد
 من الأصدقاء !؟



ولد الشيخ حسين الحكيم فى سنترىس ، من قرى المنوفية ، ثم
 سكن القاهرة ، والتحق بمدرسة القضاء الشرعى ونال منها شهادة
 العالمية ، ثم عين مدرسا بمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، ف قضى
 سنة فى المدرسة الواصفية ببور سعيد ، وبضعة أشهر فى مدرسة
 دسوق الثانوية ، وقضى نحوه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع أول سنة
 ١٣٣٧ - ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل إلى القاهرة مساء
 السبت ودفن بها مساء الأحد ، وسبحان من تفرد بالبقاء !

كان للفقيد أصدقاء ثلاثة ، ومازالوا أصدقاؤه وإن حجبهم عنهم
 التراب ، أولهم كاتب هذه السطور ، وثانيهم الأستاذ الشيخ حسن
 مامون قاضى محكمة زقى الشرعية ، وثالثهم الشيخ مصطفى الجبل
 المحامى الشرعى ، ففكرنا بعد موته فى أن نوفيه حق الرثاء فى إحدى
 الجرائد اليومية ، فكتبت عنه أربع رسائل بعثتها إلى جريدة المنبر
 ولكنها ألفت بها جميعا فى سلة المهملات ، إذ كانت لا تعرف مانعرف

من مجد ذلك الصديق!! فضممت تلك الرسائل إلى صورة الفقيد ،
 وإلى خطاب بعثه إلى من القاهرة ، وخطاب بعثه إلى من بور سعيد
 ووضعت هذه الذكريات في مكان حريز آملا أن يحىء يوم أسجل
 فيه هذا الأثر الغالى ! فلها كانت الثورة المصرية وجاء دورى فى
 الاعتقال ، لم يكن همى حين زارنى فى منزلى مأمور قسم الدرب
 الأحمر إذ ذاك المرحوم محمد بك فرج إلا أن آخذ معى إلى المعتقل
 ما بقى من آثار الشيخ حسين الحكيم لتكون أنسى فى وحشة
 الاعتقال ! فلها عدت وضعتها فى مكانها من جديد ، وصرت أتردد
 إليها كما يتردد العابد إلى المحراب ، ثم فقتش البوليس منزلى فى الصيف
 الفائت فبعثر هذه الأوراق ، فأعدتها إلى مكانها مرة ثالثة ، ولكن
 البوليس عاد ففقتش منزلى فى الأسبوع الماضى ، فعزمت نهائيا على
 نشر هذه الآثار فى كتاب البدائع لأقوم لصديق الراحل ببعض ما
 يوجب الوفاء

كان صديقى الشيخ حسين لا يرسل إلى خطابا إلا ابتدأه بوصف
 ما أرسل إليه من الشعر ، أو النثر ، ولو كنت أرى رأيه فى شعرى
 ونثرى لنشرت ما بعث به إلى من آيات الشاء ، ولكنى أرجوه أن
 يأذن لى بطلى هذه الصحيفة فقد لاتهم القراء ، وأكتفى بنشر ما يمثل
 سمو نفسه ، وصفاء روحه ، ورونق أدبه ، وجمال خلقه .. فمن ذلك
 خطاب بعثه إلى بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩١٨ جاء فيه .

(أخى ! لقد حالت بينى وبين الانتفاع بآثار قلبك ، والتمتع

بمكنون نظمك وشرك ، ضرورة حياتي الجديدة التي أنستني كل شيء — ما عدا صداقتنا الوطيدة الأركان المتينة الدعائم — وما كان بودي شهد الله ولا عن رضا ، ولكنها الحياة تشغل المرء عن نفسه وتلهيه عن واجبه ، وكان ما كان

والآن ، هل لأخى أن يفتح لي قلبه ، ويحلني من نفسه المحل الذي كنت أشغله من قبل ؟ وهل أجد من كريم أخلاقه ، ولطيف عفوه ، وجميل رعايته ، وحسن عطفه ، ما يشجعني على إحياء حب دفين ، وغرام مستكن ، كاد يقضى عليه الإهمال ، ويسحب ذيل العفاء عليه النسيان ، ويذهب برونقه وبهائه باطل هذه الحياة الفانية ؟

إنك إذا فعلت ذلك ياسيدى - وأظنك فاعلا - تكون قد أحسنت إلى إحسانا لا أزال أذكره ، حتى يعتاق نفسى حمامها ، ويهال عليها ترابها ، وضممت هذه إلى نظيراتها - وهى كثير عندى - بل هى كنزى الثمين ، أحرص عليها حرص البخيل بماله ، والعفيف بعرضه - هى سلواى فى هذه الديار النائية ، والبلاد القاصية ، إذا ذكرت ذكرت نعيمنا الماضى وعزنا الغابر وهناءنا السالف

يوم كنا ولا تسلى كيف كنا تنهذى من الهوى ما نشاء
نعم تصرم جبل ذلك الزمان السعيد وخلفه آخر أسود من الغراب
وأمر من الصاب ، يصدق فيه قول الشاعر :
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

لولا أنه أراد الانسان وأردت الزمان ، فكلاهما غادر ما كر
لا يؤمن كيده ، ولا يتق شره ، ولا رعى الله حياة التدريس لأطفال
حمر الحواصل ، لا يحسنون النطق ، ولا يفرقون بين التمرة والجمرة
ولا بين الألف والمأذنة ، حياة شبيهة بالموت ، تمسخ العالم جاهلا ،
وتقلب المفكر غبيا ، وترجع بالمرء إلى ما قبل الآن بعشرات من
السنين . . فتجاوز عما تمر به في كتابي من أشياء لا ترضيك ، فهذه
إحدى سيئات الدهر إلينا !!)

وفي هذا الخطاب كلمة قاسية في وصف بور سعيد إذ يراها
« قطعة من أوربا في الأخلاق والنظام والعادات » وقد رأيت
التجاوز عن هذه الكلمة ، مراعاة لعواطف أولئك الناس ، فقد
تكون الغربية أثرت في ذلك الأديب فقال مقال

ولا أنسى أنه أجزل الشاء على صديقيه الشيخ محمد طاهر سمره
ومحمد افندى بهجت ولعلهما كانا زميليه في المدرسة الواصفية ،
وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن في القطعة التي نقلتها من خطابه
دليلا على شعوره بأن أجله قصير ، وقد لفتني إلى ذلك حضرة
صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى القاياتي حين أسمعته هذا الخطاب
في سنتريس وكان شرفني بالزيارة هناك

وقد أرسل إلى من مصر خطابا رقيق الحاشية ، استمله بهذا

البيت

سلام الله لا أرضى سلامي فكل تحية دون المقام

وفي هذا الخطاب كلمة عن رأيه في التسرع بالزواج ، نقلها
بنصها لأهمية الموضوع الذي كتبت عنه . قال :

« وكنت أتمنى من صميم الفؤاد أن يسعدنى الحظ فأنعم برؤية
ذلك المهرجان الذى أقامه حضرة الوجيه السيد عبد الحميد مبارك
احتفالاً بزفاف نجله الأديب الشيخ على مبارك لأقوم بواجب التهنة
ولأوجه اليه بعض اللوم على تسرعه فى هذا الزواج ، فانت تعلم
يا أخى أن للشبان أطواراً مختلفة فى حياتهم ، تكون حسب تربيتهم
التي خصصوا أنفسهم لها . وربما رضى الشاب بعمل اليوم لقصر
نظره وصغر عقله ، حتى إذا دخل فى طور جديد من أطوار حياته
تحول فى عينيه نعيم هذه الدنيا إلى شقاء ، ورضاه إلى سخط ، ويندم
ولات ساعة مندم !! »

وآخر خطاب وصلنى من هذا الصديق جاءت فى ختامه هذه
الكلمة :

« أنا سعيد بالاقامة فى مصر ولا ينقصنى إلا التمتع بقلبك
فأمل أن يسمح الدهر برد نعيمنا الشارد وأنسنا الغابر ؛ فأين ذلك
اليوم ومتى أراه ؟ »

وهنا يعجز القلم عن رد هذا الخطاب ، فقد سمعت أن هذا
الصديق مات فى ديسمبر سنة ١٩١٨ ، وعلمت بعد ذلك أن
شقيقه الأستاذ حامد افندى الحكيم مات فى أسبوط فى أواخر السنة
الماضية ١٩٢٢ م

وقد كان حامد افندي غزير العلم ، شهى الحديث ، وكأني
أحاوره الآن على شاطئ النيل في سنتريس ، وكنت أتعزى به عن
شقيقه الشيخ حسين ، ولكن الدهر بالكرام ضنين
شهابان منا أوقدا ثم أخمدا وكان سناً للبدلين سنهما
لقد ساءنى أن عنست زوجتهما وأن عريت بعدالوجى فرسهما
ولن يلبث العرشان يستل منهما خيار الأواسى أن يميل غماهما

مومس تستبِق الخيرات

قرأت كلمة لمراسل احدى الصحف اليومية يذكر فيها أن
مومسا ببندر دمنهور طلبت من وزارة الأوقاف التصريح لها ببناء
مسجد سيدى ضحوة الحرب ، على نفقتها الخاصة ، ولما كانت موارد
رزق هذه المرأة (معروفة) فقد رفض الطلب بادىء ذى بدء ، لولا
أنها جددته وقدمت إعلاما شرعيا يفيد حيازتها بالميراث الشرعى
أملا كما ثابتة ومنقولة . فوافق المفتى على طلبها وشرعت فى البناء .
قال المراسل : وزادت تلك المومس على ذلك أن وقفت جميع أملاكها
على بناء وترميم وتصليح كل مسجد خرب فى دمنهور ، والمساجد الخربة
فيها كثيرة

ثم علق هذا على النبأ بقوله : كان لا تيان هذه المومس عملا خيرا

كهذا صيحة دهش وعجب في نفوس الجميع : فكنت ترى في الأندية
والفنادق وفي مشارب القهوةات جموع الحاضرين يتساءلون ألا
يوجد في المدينة غير المومس ! فكان المنظر مؤثرا جدا يبعث على
الحزن العميق ، وينم على مبلغ تأصل الحقد في النفوس ، ويوجب في
القلوب نارا لا يخمدها لهيب . فياللعار وبالفضيحة ، وبالشقاءك
يادمهور !!



هكذا يتحدث الناس حين تقوم امرأة فاجرة أو رجل فاسق
بعمل جليل ، ولعل أكثرهم ثرثرة في مثل هذه الشؤون هو أعداؤهم
للبر وأبعدهم من المعروف !! إنكم لا تستنكرون أن يخبث الطيب ، كما
تستنكرون أن يطيب الخبيث . ولكن الله في رحمته لم يشأن يترك
العالم لأحكامكم الجائرة ، وعدوانكم الفظيع ، فقال وهو أصدق القائلين
(إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال (قل للذين كفروا إن ينتهوا
يعفو لهم ما قد سلف)
فما لكم كيف تحكمون

المحدث حافظ ابراهيم

بمناسبة سفره إلى وادي الخلود

قضى الأمر، ولا راد لقضاء الله، وأصبح حافظ ابراهيم في
ذمة التاريخ

وأول مانقاسيه بعد فقدته هو الوحشة الأليمة التي تساورنا بوفاة
رجل مذهب كان يضافي كل من يعرفه من الناس، وكان لقاءه تحية
خالصة لا تعرف التصنع ولا الرياء، وكان الأدباء في صدره إخوة
وأبناء، يعزهم جميعا ويوليهم من إنصافه وتشجيعه ما يندر أن يوجد له
نظير عند أكثر الشعراء. وكان متواضعا أجمل التواضع، وكان في
تواضعه يقوم أغلاط محدثيه في لطف ورفق، ثم يشير عليهم بمراجعة
القاموس، لينفي عن نفسه الثبوت، وهو بذلك يريد أن يكون موقفه
موقف المشير لا موقف الأستاذ، ولقد أذكر أنه لقيني مرة فاستنشدني
شيئا من شعرى فأنشدته قصيدة ختمت بهذين البيتين:

يامن يعز علينا أن نجازيهم صداً بصد وإغضاء باغضاء
وترحمون وصلتم شيقا كلفا ألقى جفامك عليه ألف بأساء
ونطقت كلمة (يعز) بكسر العين، فقال رحمه الله: يظهر يامبارك

أنه يحسن أن تنطق (يعز) في هذا الموضع بفتح العين ، لأنها بمعنى يشق ، وهى بالضم بمعنى يغلب ، وبالكسر معناها صار عزيزاً ، ومع هذا فأرجوك أن تراجع القاموس ، وقد راجعت القاموس يومئذ فرأيتنى على صواب ووجدت فيها لغتين الكسر والفتح ، ومع هذا استفدت من كلامه رحمه الله فائدتين : اللطف في تقويم المحدثين ، والشعور بقيمة الدقة في نطق الألفاظ ، فاني مع اعترافي بأن (يعز) بمعنى يشق تفتح عينها وتكسر أصبحت أميل إلى إثارة الفتح ليصح التمييز بالحركات بين المعاني الثلاثة ، وكذلك كان رحمه الله يميل إلى تنويع المدلولات وفقاً لتنويع حركات البناء



ليس يهمنى في هذا المقال رثاء حافظ لأنه أعز علينا من أن يودع بالبكاء ، ولكن يهمنى أن أذكر الخصائص الأدبية لحياة ذلك الشاعر العظيم ليكون في ذلك خدمة لمن يريدون الكتابة عنه من الباحثين

وأول ميزة لحافظ أنه كان «محدثاً» وكلمة محدث في هذا الموطن تماثل الكلمة الفرنسية «كوزير» والحديث نوع من الأدب الرفيع ولا يحسنه إلا الألقون ، وقد كان حافظ محدثاً بكل معنى الكلمة كما يقولون - فإذا صادفك في الطريق أهلك حديثه عن نفسك وعمّا تقصد إليه ، وأذكر أنني ما صادفته مرة في الطريق إلا ألهاني وشغلني

بأدبه نحو ساعة أو يزيد ، وكنت في جميع المرات أجد مشقة في
 صرف نفسى عن حديثه لأمضى إلى حيث أشاء ، أما مجالسه فكانت
 جنة دانية القطوف ، كان يجلس فيتحدث في ظرف ولباقة ، ويتنقل
 من فن إلى فن ، ومن حديث إلى حديث ، وهو في ذلك يمزج الحلو
 بالمر والجد بالهزل ، ويحول الجالسين إلى آذان مرهفة وقلوب واعية
 وأحلام تكاد من طرب تطير ، والخمر التي وصفوها بأغرب الأوصاف
 لا تفعل بالنفس ما كانت تفعله أحاديث حافظ ابراهيم ، ولقد لقيته
 مرة في المساء فاحتجزنى بالقوة في مشرب نيوبار ، وانطلق يتحدث
 وكنت من لحظة إلى لحظة أقول : أعفى يا حافظ بك ، أنا عندى
 الحصة الأولى ، وأنت لاتعرف ما الحصة الأولى عند المدرسين !
 وهو في كل مرة يقول : اسمع هذه فقط ! ثم انصرفت وأنا أوقن
 أن الدنيا كلها بما فيها من حصة أولى وأخيرة لاتساوى لحظة في حضرة
 حافظ ابراهيم ، فيارحمنا لمن صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث
 حافظ ابراهيم ، فان هؤلاء حرموا من خير كثير ، ولم يعرفوا
 شيئا قيما عن حافظ ، لأن شعره ونثره لا يقاسان إلى حديثه ، فان
 له أمثالا ونظائر في الشعر والنثر ، ولكنه كان في حديثه منقطع
 النظائر والأمثال

كانت أحاديث حافظ ابراهيم ترجع إلى أصليين : أولهما
 روائع الأدب العربى ، وثانيهما ما اخترعه أو سمعه من الطرائف
 المصرية .

أما الأصل الأول فكان أبلغ دليل على أن حافظ بذ معاصريه
جميعاً في الاطلاع على ذخائر الأدب العربي، وأعيد القاء أن
يظن أن أحاديث حافظ كانت كلها نكتاً وفكاهات، لا، فقد كانت
أحاديث حافظ روايات ممتعة شائعة خلاصة من الهزل البارع والجد
الرصين، وكان يحفظ كثيراً من القصائد والمقطوعات والأبيات،
واسمه (حافظ) منطبق على حياته الأدبية أتم الانطباق: وقد كانت
كلمة (حافظ) لقباً عند المتقدمين على من يحفظ جملة كبيرة جداً من
الأحاديث الصحيحة، ولقب بها كثير من الأئمة والمجتهدين، وكذلك
كان حافظ إبراهيم في الأدب، فقد كانت محفوظاته تعد بالآلاف،
وكانت لاتزال ماثلة في ذهنه على كبر السن وطول العهد، بحيث لا
يمتري إنسان في أن هذا الرجل كان من أعاجيب الزمان

وقد حدثني رحمه الله أن في نيته أن ينشر كتاباً يختار فيه لكل
شاعر بيتاً واحداً، وأنه جمع أصول ذلك الكتاب فبلغ بضعة آلاف
ثم أخذ يذكر الشواهد، وأشار إلى أنه اختار لأحد الشعراء هذا
البيت:

ولا بد لي من جملة في وصاله

فهل من حلیم أودع الحلم عنده

ثم أخذ رحمه الله يعجب بسحر هذا البيت، فقالت له: ليست
هنا مشكلة كما يظن حافظ بك، فقال وكيف؟ فقالت: الخطب سهل
يترك حلمه عند البواب!

فقهمه رحمه الله قهقهة عالية وقال : صدقت ، فان البوابين أحلم الناس !! ثم اندفع يحدث عن (سماحة) البوابين !

وكانت أحاديث حافظ تذكربما قيل : إن الناس يختارون أحسن ما يقرأون ، ويحفظون أحسن ما يختارون ، ويتحدثون بأجل ما يحفظون ، فإذا شئت الأدب فخذ من أفواه الأدباء ، وكذلك كانت أحاديث حافظ تفيض بالأدب المتخير الجميل ، وكانت أقوى حجة على غنى الأدب العربي وقدرته على إمداد الأديب بما يحتاج إليه في شتى الفنون ، وقد لاحظت أنه كان يحفظ أشعارا كثيرة بمجولة طويت في بطون المخطوطات واستقر عليها من ذاكرته في حرز حريز ، وكان يحفظ كذلك تنفا كثيرة جدا من الكلمات النادرة التي تدل على بلاغة أو عقل أو وجدان ، فكان يقف رحمه الله عند الكلمة يختبرها اختبارا دقيقا ثم يضيفها إلى محصوله الوافر لتكون من عتاده حين يفتتح الحديث

وقد كنا نقرأ أن بعض المحدثين القدماء كان يصاحب الأمراء أعواما طويلة فلا يعيد حديثا واحدا وإن طال الزمان ، فما كنا نصدق ذلك ، فلما رأينا حافظ وشهدنا كيف يتحدث كل يوم بفن جديد عرفنا أن ذلك من المواهب التي لا تمنحها العناية إلا لقليل من النابغين

ومن الواجب أن نقرر أن نشأة حافظ ساعدت على تفوقه في الآداب العربية ، والنشأة هنا لا أريد بها غير العشرة الصالحة التي

وفق إليها حين اتصل برجال الأدب الممتازين مثل محمد عبده
 ومحمود البارودي وسيد المرصفي ، ومن اليهم من الرجال الأبرار
 الذين كانوا يؤمنون بأن اللغة العربية من أرقى اللغات ، وأدبها من
 أسمى الآداب ، وهذا حق فإن اللغة العربية ظفرت في ماضيها بما
 لم تظفر به لغة من اللغات الحية ، فقد دخلت إليها العبقريات من كل
 جنس عن طريق الاسلام ، وجمعت بين ثقافات مختلفة في آسيا
 وأفريقيا وأوربا ، ونكأها من الحظ ما لم تحظ بمثله الفرنسية أو
 الانجليزية في العصر الحديث ، وذلك أن الفرنسية والانجليزية على
 حظهما من الرواج لم يكتب بهما من الأجانب عن فرنسا وإنجلترا
 إلا عدد ضئيل جدا ، أما اللغة العربية فتغلغلت في أقطار كثيرة اجنبية
 ثم حولت أولئك الأجانب عنها بفضل الاسلام إلى جنود مخلصين
 يكتبون بها ويؤلفون ويصنفون ، فكان من ذلك أن ظفرت العربية
 بكنوز غنية من عبقريات الأمم المختلفة ، وكان لها من جهودهم غناء
 أى غناء

وهذا الذى نقوله لاحتيز فيه ، ولكنه الحق ، وللقرارى أن يتأمل
 هذه الفكرة فسيراهما من صميم الصواب

أولئك الأصدقاء العارفون بقدر اللغة العربية وجهوا حافظ
 وجهة صالحة حين غرسوا فيه الميل إلى التعمق فى الأدب القديم
 فكان له فيه معين من الرواية لا ينضب ولا يغيض ، وكذلك كان من
 أعرف الناس بما أبدع الأولون

أما الأصل الثانى لأحاديث حافظ وهو الفكاهات المصرية فيرجع إلى فطرة حافظ ، وكانت شعبية تمت إلى روح الشعب بأمتن الأواصر والأسباب ، والشعب المصرى شعب طرب وجدل وافتنان فى ضروب اللهو والمجون ، وكان حافظ يتلبس مساقط النكتة فى المشارب والقهوات ، ويسره أن يكون له من أدب العامة مجموعة صالحة يتندر بها عند الخواص حين يشاء . والعامة فى مصر أدباء بالسابقة ، وحكمتهم فى جهلهم تذكر بأعراب البادية الذين كانوا ينطقون بالقول الفصل وهم جهلاء ، وقد استطاع حافظ أن يتخلص من قيود الصنعة وهو يستمع إلى العوام ، لأن هؤلاء ليسوا بفنانين ولكنهم يرمون بالكلمات القصيرة فيمثلون بها عواطفهم ونوازعهم أصدق تمثيل . وفى أدب العامة صدق وصراحة وإشراق ، لأنه يصدر عن النفس فى غير تكلف ويعبر عن مشاعر أصحابه فى جلاء وكان من هم حافظ أن يسمر عند الخواص المصطفين من أعيان المصريين ، فينقل اليهم من حكمة العامة أمثال ما كان ينقله الأصمعى من حكمة الأعراب فى مجالس الخواص ببغداد

أضيف إلى هذا أن حافظ كانت له شعبة كبيرة جدا من عشاق النكتة المصرية ، وكانت له خلوات وصبوات تحتاج إلى ذلك الهزل الطريف ، وما كان رحمه الله يتورع عن مصارحة أصفياه ببعض الألفاظ والتعابير التى تقع له أو لغيره فى أوقات العبث والمجون . وكان هو نفسه يتفق مع بعض أصدقائه على خلق أسباب النكتة ،

وله في ذلك نوادر يحسن ظيها عن القراء مراعاة لبعض التقاليد
واذكر أنه حدثني مرة عن مشكلة أثارها في بعض المنازل وقد
استدعى أحد الأطباء المعروفين وزج به في ورطة (فنية) صارت
بعد ذلك مورد فكاهة لمعارف ذلك الطبيب

وكان حافظ مع هذا يخلق النكتة خلقا حين يعز عليه النقل :
من ذلك ماحدثنا به أن أحد رؤساء الأقسام كان له حاجب ، واتفق
أن الحاجب أخبر بخدومه أن برقية جاءتته بوفاة أبيه ، وأنه لذلك في
حاجة إلى إجازة ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وبعد ذلك عاد الحاجب
فطلب إجازة لأن برقية جاءتته بوفاة أبيه ، فمنحه رئيسه الإجازة ، وبعد
عامين التمس الحاجب إجازة لأن برقية جاءتته بوفاة أبيه ، فمنحه
رئيسه الإجازة ، وقد فهم الحاجب من هذا أن رئيسه ينسى ما فات ،
وبعد مدة طلب إجازة لأن أمه ماتت ، فمنحه رئيسه الإجازة ،
وبعد عامين طلب إجازة لأن برقية جاءتته بوفاة أمه ، فصرخ
الرئيس في وجهه وقال :

« قد أفهم أن يكون لك أربعون أبا ، ولكن لا يمكن أن
يكون لك إلا أم واحدة !! » فأسقط في يد الحاجب وفهم أن رئيسه
يعد عليه أسباب الاجازات !



وكان حافظ يجد متعة عظيمة في رواية النوادر والملح والفكاهات

وكان يقبل على جلسه في نشاط عجيب فيتكلم بكل نفسه ، ويسد على جلسه منافذ الخلاص من المجلس إذا طال ، وكان أحيانا يتعب من القصص فيقول في كل مرة : هذه آخر نكتة أقولها ، وتكون هذه النكتة الأخيرة واحدة من خمسين يقصها بعد أن تبدو عليه

أمارات الملل

وليحذر القارىء أن يظن أن حافظ كان على هذا « مهرجا » . معاذ الأدب أن يكون ذلك ، وإنما كان حافظ « محدثا » على نحو ما كان الجاحظ في قديم الزمان

وقد نفعه مذهبه عند كبار الرجال ، وأذكر أنه ذهب مرة إلى المغفور له سعد باشا وكان رئيس الوزارة وكتب إليه هذين البيتين

قل للرئيس جزاء الله صالحه

بأن شاعره بالباب ينتظر

إن شاء حدثه أو شاء أتخفه

بكل نادرة تروى وتبتكر

أو كما قال ، فقد اجتذبت هذين البيتين من الذائرة بجهاد عنيف والمؤكد هو عبارة « إن شاء حدثه » وفيها تصريح بما كان يفهم حافظ عن نفسه من حسن الحديث .

وقد تعلق به سعد باشا في أخريات أيامه تعلقا شديدا ، وكان سعد باشا من الأدباء الفحول ، فكان يروقه أن يستمع إلى أحاديث

حافظ الحلوة الشهية ، وقد اجتذبه في العام الذي توفي فيه الى مصاحبته في مسجد وصيف ، وقد سألت المرحوم حافظ عما اشترطه على سعد باشا في تلك الصحبة فابتسم وقال : اشترطت أن أبقى دائما في البيجامة كيفما كانت الظروف ، ثم سكت لحظة وقال الا اذا اقتضت الحال أن نستقبل بعض السفراء !! وهذه الحكاية لها حواش لا تكتب وهي تدل على مبلغ ما وصل اليه من امتلاك قلب المرحوم سعد باشا

وللقارئ أن يثق بأن الصلات التي ربطها حافظ مع كبار الرجال في مصر من أمثال سعد زغلول وأحمد حشمت ومحمد عبده ومحمد محمود ، يرجع الفضل فيها أولا الى صفاء نفسه وظرف حديثه وعذوبة لسانه ، لأنه كان في حديثه أشعر منه في قصيده ، وكان لصوته رنات مقبولة جدا على قوته وجهارته ، وتلك ميزة تفرد بها بين أدباء العصر الحديث

انتفع حافظ بحلاوة حديثه أجزل النفع ، واستطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخاصا تاما ، فكنت لا تراه في دار الكتب المصرية الا زائرا ، ولم يستطع الأستاذ لطفى بك السيد أن يحتجزه في تلك الدار الا في اللحظات التي كان يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق

وكان رحمه الله يخرج من بيته فيظل يتنقل من ناد الى ناد ومن مشرب الى مشرب ومن منزل الى منزل باحثا عن أصفياه الذين

ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث
وأشهر المشارب التي كان يغشاها حافظ بار اللواء ونيوبار حيث
يجلس الأدباء المتقاعدون الذين أخلدوا إلى السكينة بعد أن كانوا
أنشط من الجن وأخطر من النار ، وفي يقيني أن تلك المشارب
ستشعر لفراقه بوحشة أليمة ، وسيذكر السامرون أن نديمهم غاب
وأن أنسهم مضى وراح !



لقد كانت الدنيا ضيقة على حافظ ، وكان يتلبس الخلاص من
همومه في لقاء اخوانه ، فليؤنس الله وحشته في قبره ، وليجزه عن
أدبه ووفائه أطيب الجزاء !

وبعد فلحافظ مكاتته في الشعر والنثر ، وهو فيهما من الأئمة
المقدمين ، وسيحرص قوم على درس شعره ونثره ، وسيجمع له من
ذلك مجلدات إن صحت نية المتأدبين ، فهل من إخوانه وأصفياه
من يسارع إلى وضع كتاب عن أحاديث حافظ قبل أن يتصرم
الزمن ويعفى النسيان على ما بقي منها في أذهان أولئك الأصفياء ؟

لقد فكر ناس في جمع نكت البابلي ، ثم انصرفوا ونسوا ، فليتهم
لا ينسون هذه المرة حتى لا تصح دائماً كلمة شوقي في موكب أم المحسنين
نسيت روعته في بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين

خطر يهدد الثقافة المصرية

الحكومة وشهادات كلية فكتوريا

وقع في هذه الأيام حادث لم يلتفت الناس اليه إلا قليلا ، ثم شغلهم عنه توافه الحياة اليومية . وقد علمتني التجارب ومعاشره الأجانب من أوريين وأمريكيين أن المصرى وحده هو الذى يغفل عن التفكير فى مستقبله ويهتم بمشا كل الساعة الحاضرة . أما الأجانب الذى عرفهم فلا يخطون خطوة إلا وهم يقدرون ما سيكون لها من نفع أو ضرر بعد خمسين عاما ، ومنهم من يقدر نتائج الأعمال بعد قرن أو قرنين من الزمان ، وينبنى على هذا أن الفرد منهم لا تهتمه صفته الفردية إلا فى حدود المعاش ، ولكنه فيما عدا ذلك أسير لصفته القومية ، فهو انجليزى أو فرنسى أو أمريكى ، أعنى أنه ينظر إلى الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية كرجل يمثل أمته فى مختلف الشؤون ، أما المصرى فيضيق صدره حين تسأله عن نتائج عمله بعد عشرين عاما ، لأنه تعود التفكير فى النفع المباشر الذى يجنى ثمره بعد عام أو عامين

وعلى هذا الأساس فكر الانجليز فى المستقبل البعيد حين حملوا الحكومة المصرية على منح شهادات كلية فكتوريا لجميع الحقوق .

التي يتمتع بها حملة البكالوريا المصرية ، وفي ظني أن الانجليز وصلوا إلى ذلك بلا عناء ، لأن الوزراء المصريين يصعب عليهم تقدير ما لتلك المنحة من العواقب المشؤمة التي سنبينها للقارىء في هذه الكلمات وقد يكون من القراء من خلا ذهنه من مشاكل التعليم ، فمن الخير إذن أن نوضح هذه المسألة بعض التوضيح فنقول :

الذي درجت عليه الحكومة المصرية منذ أزمان يتلخص في أن الشهادات الأجنبية لا تعطى لحاملها حق التوظيف في مناصب الدولة إلا إذا ظهر بالبكالوريا المصرية ، وهذه ظاهرة تبدو بسيطة ولكنها مهمة جدا من حيث النتائج : فان اشتراط البكالوريا المصرية معناه فرض الثقافة المصرية على جميع الموظفين ، والموظفون حين تتوحد ثقافتهم الأساسية يكونون هيئة متجانسة متقاربة العواطف والأهواء والميول ، والثقافة الأساسية تتكون من التعليم الابتدائي والثانوي أما التعليم العالي فتتكون منه في الغالب ثقافة عالمية تمتاز بسموها عن الصبغات الطائفية والقومية ، ومن هنا فكر كثير من المصلحين في أن لا يتعلم الشبان في الخارج إلا بعد إتمام الدراسة الثانوية

إذا فهمنا هذا أدركنا الخطر الذي يهدد الثقافة المصرية من منح شهادات كلية فيكتوريا الانجليزية مزايا البكالوريا المصرية ، فان الانجليز لن يهتموا مطلقا بثقافة المصرية في كلية فيكتوريا بالاسكندرية وما سيلحق بها من معاهد وولايات في الأعوام المقبلة ، وإنما يعينهم أولا وقبل كل شيء نشر الثقافة الانجليزية ، لا سيما

وقد استطاعوا أن يستلينوا حكومة صدقي باشا فيظفروا بمنحة ظلوا يتطلعون اليها السنين الطوال

والمصريون ينسون سريعا ، وقد يكون فيهم من يذكر ماضيه المستر جورج لويد حين ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ، فقد ذهب ذلك الانجليزى المستعمر واستنهض الجالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها على قلتها ما يقارب المائة ألف جنيه في جلسة واحدة ليقوى كلية فيكتوريا ، وذهب يومئذ في صحبته وزير مصرى مسئول فخطب بالانجليزية — والعياذ بالله — ليعضد ذلك المشروع الخطير

والآن — بعد هذه الصدمة — لننظر ماسيكون في الغد ، ولسنافى حاجة إلى منجم ولاعراف ولابدية كبدية وزير المعارف. لنتنبأ بما يخبئه الغد ، فان هذا معروف موثوق به منذ هذه اللحظة وإلى القارىء البيان :

سيتوجه في الغد القريب جدا سفراء الدول الاجنبية ليطالبوا لمدارسهم نفس الحقوق التى أعطيت لكلية فيكتوريا ، وسيحرص وزير فرنسا بنوع خاص على كسب هذه الحقوق لأن الفرنسيين أكثر الأجانب مدارس ومعاهد في هذه البلاد ، ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين: نار الرفض ونار القبول، فان رفضت كان معنى ذلك أنها حكومة متجلتزة تخص الانجليز بالطيبات صدقا أو رياء وإن قبات كان معنى ذلك أنها تصوب السهم طائعة إلى الثقافة المصرية

فانظروا في هذا وأفتونا يا كتاب مصر ويا مفكرها ، أوفلي نظر
في هذا وزير المعارف ومساعدوه ووكيله وسكرتيه وجميع من
أقلت وزارة المعارف من مفتشين ومراقبين ، ثم ليدلونا على مستقبل
الثقافة المصرية الذي نخشى عليه ألن الأخطار

قد يقول فريق من خلق الله : وما الذي يمنعنا من الحرص على
ثقافتنا بإيثار المدارس المصرية على المدارس الأجنبية ؟

ونجيب بأن التجارب علمتنا أيضا أن المصري مغرم بالزهو
والخيلاء ، ومن أدلة ذلك ما صنعتها كلية العلوم ، فقد عبنا عليها إيثار
اللغة الانجليزية على اللغة العربية ، ثم تدبنا أن مدرسيها فرحوا بهذه
التهمة أشد الفرح ، وذهب وكيلها المصري المتعلم يلقي محاضراته
العامة بالانجليزية ، مع أن المحاضرات العامة لم تقررها الجامعة
المصرية إلا رغبة في تثقيف الجمهور الذي لا يتسع وقته لسماع
المحاضرات في الكلية ، فمن الذي أخبر وكيل كلية العلوم أن الجمهور
لا يفهم بغير الانجليزية !

اقرأوا هذا أيضا أيها الناس واشرحوا معناه ، أما أنا فأفهم أن
وكيل كلية العلوم يسره جدا أن يقال إنه يتكلم الانجليزية كأهلها
كما كتب المقطم ، وفي هذا الكفاية كل الكفاية ، وعلى القومية
العفاء !

بقي مخرج واحد من هذا المأزق ، وعلينا أن نفكر في مثل
هذا المخرج ، لأننا لا ننتظر من مثل صدقي باشا أن يسترد هبة

أسداها إلى كلية انجليزية ، ولا ننظر مطلقاً أن يتعذر على المدارس الأجنبية الوصول إلى مثل ما ظفرت به المدارس الانجليزية من مساوات شهاداتها بالشهادات المصرية : وذلك المخرج هو تقييد تلك المنحة بقيود تعصم الثقافة المصرية من الضياع ، فعلى الحكومة أن تشترط احترام اللغة العربية في تلك المدارس فيكون لها برنامج مماثل للبرامج المصرية ، وعليها أن تفرض أن يدرس التاريخ والجغرافيا وما يماثلهما من أنواع الثقافة العامة باللغة العربية ، فإن لم تفعل الحكومة ذلك — وأخشى أن تجبن — فستكون النتيجة أن تقبر الثقافة المصرية وأن يكون شبان المستقبل موزعين في أهوائهم ومشاربهم وطبائعهم بين متجلىز ومتفرنس إلى آخر ما سترميناه الأقدار من نكبات الانحلال

وأنا بعد هذا أهيب بالكتاب المصريين أن يعطوا هذه المسألة

حقها من العناية ، فليست فيها متشائماً ، وإنما أنكلم عن يقين

٩ شعبان سنة ١٣٥٠

إله الحب وإلهة الجمال

في أساطير الاولين

كانت أفروديت أو فينوس تعبد على أنها إلهة النور، وكانت أجمل إلهة في السموات، ولم يكن تقديسها يراعى فيه فضلها وحده على أهل السماء، وإنما كان يراعى معه ما تفيض به على الأرض من الخصب والنماء. أليس إشراق النور هو الذي تتفتح في صفائه الأزهار، وبفضله تتجدد حياة الحدايق والرياح والغابات في أيام الربيع؟ ومن أولى بالعبادة من إلهة النور الذي يفيض البشر والخير والايناس في أرجاء الوجود؟

وهذه الآلهة التي تظهر في فصل الربيع — وموقعه من السنة موقع الفجر من النهار — صارت مع الزمن إلهة الجمال في العالم كله والمسيطرة الخالدة التي تبعث الروح في جميع الأحياء... وإذا كان كل جميل يلهم القلب الحب فقد صارت تلك الآلهة ربة الجاذبية التي تحملنا على أن نحب كل ما هو جميل، لأنه بفضل نورها يخلق الجمال ويشيع الحسن في كل ما فيه حياة

مولد أفروديت

لقد ولدت أفروديت ذات البسمة الفاتنة من زبد الأمواج ،
ولدت بيضاء نقية كأنها فلق الصباح ، على بحر فضي ، وظهرت
لأول مرة - فيما يقال - على شاطئ قبرص المشرق الوهاج ،
بعد أن ظل النسيم الرطب يدفع الصدفة التي تحويها مدة طويلة فوق
الأمواج الصاخبة ، إلى أن وصلت إلى الشاطئ وفتحت وخرجت
من مهدها البحري المكنون ، وكانت كلها تقدمت فوق الرمل نبتت
الأزهار تحت قدميها الناعمتين ، وكانت حارسات السماء ذوات
الأشرطة الذهبية يتلقينها ويمسحن جسمها الذي ينضج بالماء الأجاج
ويضفرن شعرها الأصفر ويزينها بالملابس المعطرة ، وقد وضعن
على رأسها تاجا من الذهب ، وفي أذنيها أقراطا من معدن نفيس ،
وعقدن على جيدها وصدرها فرائد العقود ، ولما تمت زيتها أحضرت
حارسات السماء عربة تقودها حمامتان ، فركبت أفروديت وطار
لتعيش بين أهل الخلود ، فلما رآها الآلهة وقفوا جميعا إجلالا لجمالها
الفتان ، وحيوا فيها ملكة جديدة وأجلسوها على عرش رفيع ،
ومنذ ذلك الحين سادت أفروديت سعادة الأوليمب المعبودين
وكانت النظارة المشرقة التي تجول في جسمها الريان ، والسحر الفاتن
الذي يجري في عينيها النجلاوين ، والابتسام الحلو الذي يشرق من
ثغرها البديع وإشاراتها المنسجمة ، ومشيتها النيلة وزيتها الأخاذة ،

كان ذلك كله قد غمر سكان السماء بينابيع من البهجة والفرح لا تنضب ولا تغيض

تحاسد الآلهة

ولكن مع الأسف لم يخل عالم الآلهة مما يكدر عالم الناس من الحسد والبغضاء، فقد كان استواء تلك الآلهة على عرش من عروش السماء مما يزرع الحقد في نفوس الآلهة الآخرين، وكذلك ادعت هيرا وآتينا أنهما في جمال أفروديت، واستفاد إله الشقاق من تلك الغيرة التي دبت في صدور الجميلات من سكان السماء، فدخل خفية في أحد الأعياد إلى قدس الأوليمب، وكان الآلهة بين مأخوذ بالشراب ومفتون بالغناء، فانتهاز فرصة هذه النشوة ورمى وسط المائدة تفاحة جميلة كتبت عليها هذه الجملة: «هدية إلى أجمل إلهة»

فأخذتها هيرا، وصاحت آتينا وافروديت طالبتين تحكيم زوس وكانت مشكلة رقيقة تخلص منها سيد الآلهة وهو يقول:

ماذا ترين أيتها الآلهات الفاتنات! كنت أتمنى أن أفصل بنفسى فيما شجر بينكم من خلاف، ولكنى لا أستطيع ذلك لأنى أحبكم جميعا على السواء، فلم يبق إلا أن أشير عليكم بأن تنزلوا حالا إلى «الأيدا» وهناك تجدون الراعى الجميل «باريس» يرمى قطيعه الكبير. وقد اخترته حكما بينكم ورضيت قضاءه فيكم، وأنت يا هرمس: خذ هذه التفاحة وانزل إلى «الأيدا» مع هؤلاء

الآلهات الثلاث وقل للراعى الجميل

« يا باريس ! زوس يأمرك بأن تحكم أى هؤلاء الملكات أرشق
قداً ، وأرق خداً ، وافتن لحظاً ، وأحلى دلاً ، وأملح شكلاً ؟ وأعط
هذه التفاحة لمن تراها أقدر على سبي القلوب ، وأسر النفوس »

حكم باريس

فنزّل هرمس مصحوباً بأفروديت وهيرا وأتينا على قمم الجبل
المقدس الشجرى ، ووجدوا باريس يرعى القطيع وفى يده عصاه ،
فقال هرمس :

« سلام عليكم يا باريس ! خذ هذه التفاحة واعطها لأجمل هذه
الآلهات الثلاث ، بذلك يأمرك زوس »

فنظر باريس إليهن ، واختبر جمالهن واحدة واحدة ،
ولكنه وقف متردداً حيران بين هؤلاء الجميلات اللاتي يفضحن
النجوم فى السماء ، والازهار فى الرياض ، وبعد تأمل طويل أعطى
التفاحة للالهة أفروديت ، فرضى الثلاث بهذا الحكم وصعدن إلى
الأوليمب فى سكون ، وظلت أفروديت منذ ذلك الحين ملكة
الملاح بلا نزاع

ولم يكف أفروديت أن تخضع لجمالها الساحر كل سكان
الأوليمب ، بل أصبحت حاكمة مطلقة على قلوب جميع الناس ،

وشاء لها هواها وعبثها وعدوانها على الخلق أن تغريهم بالآمال التي
تلهب قلوبهم فتغرس فيهم الحب ، وتغمرهم كما تريد بالسعادة أو
بالشقاء ، فإن الحب لم يكن دائما متبادلا بين المحبين ، وإذا كان في
العشاق من يمرح في النعمة لأن أفروdit تكلؤه وترعاه ، ففيهم من
يقاسى ألوان الشدائد لأنها حكمت عليه بالعذاب . ولا توجد في
الواقع بأساء أقسى وأشد من أن يهوى الانسان من لا يهواه .
وقد قيل :

ما العيش إلا أن تحب وأن يحبك من تحبه

ومع هذا لم يقتصر سلطان افروdit على حكم قلوب الآلهة
والناس ، بل امتد سلطانها إلى الطبيعة بأسرها ، فكانت على البحر
سيدة مطلقة ، بها تسكن الأمواج الهائجة ، وتهدأ الرياح الهوجاء ،
وتداعب السماء الأمواج . وكانت للأرض مصدر خصب وحياة :
بها يحيا الزرع وتتجدد الفصول

وإذا كان فضل هذه الآلهة المعبودة لا يظهر أثره في البساتين
والأحراش إلا في الربيع فقد كان ذلك الفصل فصل الأزهار هو
موعد الاحتفال بفضلها على الطبيعة والآلهة والناس

أدونيس

وقد لوحظ أن أعياد الربيع كانت دائما قصيرة ، فإن الأزهار
تتفتح ثم تذبل وشيكا ، ولتفسير هذا النماء السريع الذي يختصره

الموت العاجل وضع اليونان أسطورة جميلة : فقد تصوروا أفروديت
أما للحياة النباتية وأعطوها ابنا هو أدونيس الذى يعد صورة للربيع
المشرق السريع الزوال

ففى يوم من الأيام الجميلة التى طالت فيها مداعبة الشمس للزهر
خرج أدونيس من لحاء الشجرة التى كانت تحتويه ، وقد كان نماءه
سريعا ، وكان عمره مع ذلك أقصر من عمر الورد ، فلم يبق جماله فى
زهرة المنفتحة إلا أياما قليلة ثم حصده الموت ، وكان ذلك فى نهاية
الصيف حين مالت النباتات التى أحرقتها الشمس على سوقها
وأصبحت هشيا تذروه الرياح

كيف مات أدونيس

كان أدونيس فى ذلك الحين يلاحق خنزيرا برياً فرجع إليه ذلك
الحيوان المتوحش وطعنه طعنة قاتلة ، فأسرت أفروديت إلى إغاثة
طفلها الجريح ، ولكنها الفرط الفزع نسيت أن تلبس حذاءها ، فداست
وهى تجرى على شجرة ورد دخلت شوكتها فى قدمها فجرى الدم ، ومنذ ذلك
الحين أصبحت تلك الشجرة تحمل وروداً حمراء ، وكانت ورودها بيضاء
ولم تكد أفروديت ذات الشعور الشقراء الذهبية تصل إلى ابنها حتى
وجدته قد هلك فذرفت عيناها دموعاً غزيرة نبتت منها شقائق النعمان
وقد كانت حياة أدونيس المضنية ونهايته العاجلة موضعاً لعبادة
حقيقية عند اليونان فى اليوم الذى مات فيه كان يبكى النساء لذكراه

الأيمة ، وكانت لمن في النوح عليه زفرات تفتت الأكباد ، وكن يحملن سريرا من الفضة مغطى بالحرير الأحمر ، ينام فيه جسم يمثل أدونيس وهو في طريقه إلى الفناء ، وحول هذه الجنازة ترى آلاف الهدايا ، والقوا كه المختلفة ، والمشاعل ، والأواني المعطرة ، والسلال الفضية تحمل النباتات التي أسرع في نمائها ثم أسرع في جفافها تمثيلا لذلك الفقيد الغالي العزيز الذي يسكن من أجله الدمع السخين وحول ذلك الجسد المعبود كان النساء يمسكن يوما وليلة يضربن صدورهن ، ويلطمن وجوههن ، ويشققن الجيوب في ذكرى معبودهن المفقود ، وفي فجر اليوم التالي يقوم هؤلاء النسوة وشعورهن مرسلة ، وصدورهن عارية وصرخاتهن تصم الآذان ، فيدفن هذا الجسد المعبود في أثاج الأمواج . وحين يحتوى البحر هذا الجسد ويأخذه في حراسته تطير صيحات الفرح : لأن أدونيس سيعود مع أمطار الفصل المقبل مبعوثا مع الحياة في الزهر والشجر والنبات

إيروس

لم يكن أدونيس هو الابن الوحيد لأفروديت ، تلك المملكة الجميلة التي تسيطر على مافي الحياة من بهيج وجميل ، بل كان لها ابن آخر ، حلو فتان له أجنحة ذهبية ، يسمى « إيروس » أو « الحب » وكان كأمه ينشر على الأرض الحياة والسرور والخصب ، وكان يذهب إلى جميع البقاع محمولا على النسيم العطر عند دخول الربيع فتورق في

طريقه الأشجار وتزهر الأغصان ، وكان إيروس كأمه أفروديت
يسيطر على قلوب الآلهة والناس فيخضع من يشاء لسحره الفاتن
وأمره المطاع ، حتى السباع كانت تخضع لمشيئته وطامنا رؤيت
عربته يقودها النمرور والأسود ، وبفضله عرف الناس رقة الصداقة
وحلاوة الحنان ، وعرفوا كذلك اللذات والآلام التي تصحب
الحب المتين

كان إيروس ينتقل من مكان إلى مكان مسلحا بالسهم وفي يده
مشعال وضاء ، وكان يلهو بالمزج بين الدموع والبسمات ، والجمع بين
السعادة والشقاء ، ومن أجل ذلك نرى المحبين يضجركن لحظة
ويكون ساعات ، كالذئ وقع للمسكينة بسيشيه التي ذافت أطيب
اللذات وأوجع الحسرات

بسيشيه

كان لأحد الملوك ثلاث بنات ، وكانت بسيشيه أجمل أولئك
الثلاث ، وكانت فاتنة يعبدها من يراها كأنها نفس أفروديت ، وقد
بعث جماها المرموق عقارب الحسد والضغن في إلهة الجمال ، فصممت
على الانتقام من بسيشيه ضررتها في عالم الحسن ، ودعت لذلك ابنها
إيروس وقالت له :

« إيروس ! يا بني ! هذا هو الوقت الذي تحتاج فيه أملك الروم
إلى ساعديك القويين لامضاء إرادتها ، إن ناسا في الأرض بلغت

بهم الوقاحة والسفاهة أن يساؤوا بين جمالى الخالد وبين جمال فتاة آدمية ، فانية ، تدعى بسيشيه ، فاذهب يا بنى واحكم على تلك الفتاة بالشقاء ، بان تجعلها مفتونة مدلهة بحب شاب بانس يضرب الناس بدمامته الأمثال ! »

عندئذ خرج إيروس من الأوليمب ونزل على الأرض ، ولكنه لم يكدد ينظر إلى جمال بسيشيه ونضارتها وحلاوتها حتى فتن بسحر تلك الانسنة التى لا تقل إشراقا ونضرة عن أمه أفروديت وبلغ به الوجد المفاجىء أن نقلها إلى قصر جميل في بقعة نائية ، وهناك فى ذلك المنزل المنعزل فوق ربوة عالية باحدى الغابات الهادئة ظل إيروس يزور محبوبته خفية فى هيبة وحذر لئلا يعكر عليه صفوه سفهاء الرقباء

وكان يجلب اليها كل ما تشتهيه من طيبات الأرزاق ، ولم تستطع بسيشيه أن ترى وجه محبوبها الجميل لأنه لم يكن يزورها إلا فى الظلام ، فكانت كلها المسته وأحست نضارة جسمه ووجهه تمت عليه أن يسمح لها برؤيته فى ضوء القمر أو ضوء المصباح فكان يجيب :

« إن سعادتك يا بسيشيه لا تدوم إلا إذا كتمت سر حبا فلا يكن من همك أن ترى وجهى أو تعرفى من أنا ، أحيينى فقط

ولا تكدرى صفو الحب بالبحث عن معرفة ما يجب جهله »

حسد الأختين

ولكن الغيرة التى ملكت الأختين حملتهما على التفكير فى قطع ما وصل الحب لأختهما من نعيم ، فقدمتا لزيارتها ذات يوم وأفهمتاها أن محبوبها ليس إلا جنيا دميم الوجه وأن القصر الذى تسكنه ليس إلا داراً من دور الشياطين ، ثم قالتا لها :

« تستطيعين أيتها الأخت العزيزة أن تتينى صدق ما نقول ، وسبيل ذلك أن تضعى مصباحاً صغيراً تحت السرير ، فإذا جاء محبوبك لزيارتك فانتظري حتى يغمره النوم ثم قومى برفق فارفعى المصباح وانظري فى وجهه لتعرفى أى جنى تعاشرين

وما كادت تسمع بسيشيه هذا الكلام حتى استبد بها الشغف شغف التطلع إلى معرفة ما يستر الظلام من حقيقة رفيقها المعشوق فأحضرت فى المساء نفسه مصباحاً صغيراً وأخفته تحت السرير وانتظرت حتى أخذ حبيبها النوم العميق ، ثم قامت فأدنت المصباح من وجهه ، وكانت تنتظر أن ترى جنياً دميم الحلقة كما وصف أختهاها الواشيتان ، ولكنها فوجئت برأس أشقر تزينه الشعور المعطرة وفم يزفر بأنفاس الرحيق ، وأعظاف من العاج يتصل بها ذراعان تزينهما استدارة ولين ، وباحداهما قوس ، أما أخراهما فقد وضعت تحت خده الأسيل

عندئذ هاج الحب في قلب بسيشيه هياجا عنيفا وهمت بتقيل
معشوقها الجميل ، ثم مالت عليه وفي يدها المصباح فوقعت قطرة من
الزيت المحرق على عطفه المكشوف ، فاستيقظ إيروس من الألم
وعرف أن محبوبته فضحت سره المكتوم ، فطار من لحظته ، وترك
بسيشيه نهبا للآسى والبكاء

مصير بسيشيه

بلغ الجزع من هذه المسكينة كل مبلغ ، فألقت بنفسها
في النهر لتستريح من كمد الفراق ، ولكن الأمواج ردتها حية إلى
الشاطئ ، فتجدد في قلبها الأمل وأخذت تبحث عن حبيبها الغضبان
في جميع البقاع ، وكانت كلما صادفت معبدا دخلته وتمرغت على أعتابه
وهي تتوسل إلى الآلهة أن يرحموا قلبها الخافق ودمعها المسكوب
ولكن الآلهة منحوها آذانا صماء ولم يقبل أحد منهم أن يدها على
مكانه حتى تذهب إليه ، لأنهم عدوها جانية على نفسها حين رأوها
تذيع من سر الحب ما لا يذاع ، وتسمع في محبوبها وشاية الواشين
وأخيرا خطر ببال المسكينة أن تلجأ إلى أبواب افروديت بعد
أن نال منها الشقاء ، وكانت ترجو أن ترثي إلهة الجمال لحالها فتسهل
عليها سبيل الوصول إلى ابنها إيروس

ولكن افروديت ذات الجداول الذهبية لم تكد ترى بسيشيه حتى
هزت رأسها ساخرة ، ثم انقضت عليها ففرقت ثيابها ولوت شعورها

وأدمت جسمها ووجها بالضرب الوجيع ، ثم قضت أن لا يكون لها من رفيق في حياتها غير البغيضين : الحزن والحيرة ، واتخذت منها أمة ذليلة ترهقها بأثقل الأحمال ، فصبرت المسكينة صبرا جميلا وظلت في بؤسها حافظة لعهد حبيبها المعبود

وبعد أزمان شفى إيروس من الجراح التي رمتها بها قطرات الزيت المحرق ، وفكر في محبوبته التي ظلت على ولائها له ، ولم ينسها غضبه وهجره فامر بينهما من عذب الوصال ، فتوجه إلى الأوليمب وألقى بنفسه على أقدام زوس وتوسل إليه أن يأمر بخلاص بسيشيه وأن يمنحها له زوجة وفية ، فقبل زوس رجاءه وأمر هرمس بادخال بسيشيه منزل الآلهة وضمها إلى صفوف الخالدين وماهى إلا أيام حتى زفت بسيشيه إلى إيروس ، ورقصت أفروديت نفسها في عرس الحبيين ، وكان ذلك أول دليل على أن العاقبة في الحب والمجد للصابرين

ظلم العواطف

قيل لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر في فقهك وورعك ؟ فقال: لا بد للمصدر أن ينفت . وكان عبيد الله من وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث . وهو أحد الفقهاء السبعة

من أهل المدينة . ومن شعره

شقت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور
تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

إن الناس يحلون الفقهاء عن قول الشعر ولا سيما النسيب ،
ويرون بعدهم عنه ، وبراءتهم منه ، من متممات فضلهم ، ومكملات
مجدهم . وكان ذلك ظلما للعواطف ، وقتلا للشعور ، فان لبعض
أولئك قلوبا نزاعة إلى الحسن ، ونفوسا عشاقة للجمال . ومنهم من
قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما جنحوا إلى السلوان

ولئن خرج عبيد الله على الجفاة من معاصرة ، فقال في الغزل
ما قال ، فاني لأحسبه كنتمنا كثيرا من شجونه ، وضمن على الشعر
بمكنون صدره ، مداراة للعامة من جبرته ، والسذج من عارفيه
فان الخوف من صغار العقول ، والهرب من ثرثرة السفلة ، لم يسلم
منه نابه ، في عصر من العصور أو قطر من الأقطار

إن الأبيات القلائل التي نقلها الرواة إلينا من شعر عبيد الله تحدث
عن صباية وتسفر عن غرام ، ولو أن الرجل أوتي من قوة الإرادة وشجاعة
أنفؤاد ما يشرح به هواه ويمثل به خواطره لكان له من المواقف
الحسان والمشاهد المبهجة ما يضمن له الخلود في الشعر الوجداني من
عالم الآداب

إن ظلم العواطف حرمانا كثيرا من نفثات الشعراء ، وجعلنا

تصيد طرائف الشعر الوجداني من هنا وهناك ، ثم لانجد ما ينقع
الغلة ، ويشفي النفس : لما في أكثره من التلون المذهب للعاطفة ،
المميت للشعور

ولو أن ذلك كان وقفا على الفقهاء لتجملهم بالزهد ، أو النساء
لتحليهن بالعفاف ، لهان الأمر وسهل ، ولكننا وجدنا في أشهر الشعراء
بالظرف وأعرفهم بالخلاعة من يمينون بالنهاة من أهلهم ، فيزلون عند
حكمهم ويصدعون بأمرهم فيتناسون الهوى ، ويصدفون عن الغرام
هذا عمر بن أبي ربيعة ، كان من أجراً الناس على إذاعة هواه
وأبعدهم صيتاً في الغواية ، وطاعة الشباب ، ثم ما برح أخوه الحارث
يعظه وينهاه ، حتى دان من ذلك أن أعطاه ألف دينار على أن لا يقول
شعراً فقال :

« أما مادمت بمكة فلا أقدر ولكني أخرج إلى اليمن »

فلما سار إلى هناك لم تدعه نفسه وقول الشعر ؟ فقال :

هيات من أمة الوهاب منزلنا	إذا حملنا بسيف البحر من عدن
واحتل أهلك أجياداً فليس لنا	إلا التذكر أو حظ من الحزن
لأداركم دارنا يا وهب إن نزحت	نواك عنا ولا أوطانكم وطني
يا وهب إن يك قد شط البعاديكم	وفرقت الشمل مناصرف ذا الزمن
فكم ولم من حديث قد خلوت به	في مسمع منكموا أو منظر حسن
بل ما نسيت بطن الخيف موقفها	وموقفي وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا يوم ذى خشب	والدمع منها على الخدين ذو سنن

بالله قولى له فى غير معتبة ماذا أردت بطول المكث فى يمن
 إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن
 ويذكرون أن أخاه لما سمع هذا الشعر يئس من صلاحه وقال :
 قد فتك أخى وغدر

والذى أراه أن عمر بن أبى ربيعة ، ما كان له أن يذهب إلى
 اليمن ، دفعا للوم أخيه فحسب ، فإن الرجل طالما نهى النهاية فلم ينته
 ولم يرجع ، وكان بينه وبين أخيه ما يشعر بها وانه بنصحته ، وسخريته
 من عدله ، بدليل ما يذكرون من أخذه ألف دينار من أخيه ، فى حين
 أنه كان من أكثر الناس مالا ووفرا ، وأعظمهم تها وكبرا ، ولكن
 الرجل كان يحاول أن يتناسى صباهته ، ويتغاضى عن هواه ، حتى كان
 من أمره أن حلف لا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة ، نهيها
 للنفس عن الهوى ، وكبحا لها عن الغواية ، وكان من المسرفين
 فر ابن أبى ربيعة إلى اليمن ليبعد عن ملعب صباه ، ومرتع شبابه
 فيودع بذلك الشعر ، ويترك النسيب : ثم غلب على أمره فقال نونيته
 السالفة ، طوعا لأمر الفؤاد

كان ابن أبى ربيعة من أصبح الناس وجهها ، وكان عشقه شبيها
 بعشق الملوك : لتهافت الغواني عليه ، والتفاف النساء حوله ، فكان شعره
 لذلك ضائعا بين الأوصاف الظاهرة ، والمحاسن البادية ، فلا ترى له
 حسرة على فائت ولا لهفة على مأمول ، فلما صوح شبابه ، وحن
 منه التذكر ، نضب معين شعره ، ونهجت صباهته ، برأ بذلك القسم

ونزولا عند حكم المشيب ، فكان نصيبه من الشعر الوجداني ضئيلا ،
لما ظلم عاطفته ، وعق وجدانه ، وكان من القاسطين

أنا لا أبخس ابن أبي ربيعة حظه من الشعر الوجداني ولا أبعد
أن يكون في ديوانه من هذا النوع شيء كثير ، ولكنني أقول إن
الرجل الذي يبهز الناس شعره في مجالس الأنس ، ويروقه حديثه عن
اللهو واللعب ، لجدير أن يقرح أجفانهم ، ويفتت أكبادهم ، لو بكي
عهوده السوالف ومعاهده المقفرات

ولكن أبي الجدة العاثر إلا أن توضع هذه الأغلال في أعناق
الشعراء فيمسون كالبلابل الموثقة الحبيسة : لا تستطيع التغريد ، ولا
تملك الترجيع

وما عسى أن يكون حزن بشار وبته ، وقد نهاه المهدي عن
التشيب ، وحال بينه وبين ما يشتهي من الغزل ، ومداعبة النساء .
وإني ذا كر لك مثالا مختارا من شعره فيما يتعلق بالعواطف ،
ويختص بالوجدان ، حتى تعرف أي خطب ألم بالشعر الوجداني ،
فأصبح ضئيلا في شعر هذا الرجل الكبير ، قال :

أيها الساقيان صبا شرابي	واسقياني من ريق بيضاءرود
إن دأى الظلما وإن شفاي	شربة من رضاب ثغر برود
ولها مبسم كغفر الآقاحي	وحديث كالوشى وشى البرود
نزات في السواد من حبة القلا	ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليال	والليالى يبلين كل جديد

عندها الصبر عن لقاء وعندى زفرات يأكلن قلب الحديد
 لا أبالي من ضن غنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود
 فانك لتبصر من خلال هذا الشعر رجلا صادق الحب ، متين
 الصبابة ، ألح عليه ساقياه بالراح ، فتعفف عنها ، لازهداً فيها ، ولا
 نفوراً منها ، ولكن ذكرى حارة ، ولوعات دخيلة ، هاجت بصدرة
 واثارت بلبه ، إذ ذكر صهباء الثغر بمن يهوى ، وخمر الريق بمن يحب
 شغل الشاعر عن الراح ، بما ذكر من محاسن محبوبه ، ولطائف
 معشوقه ، فأخذ يذكر ما فعل الحب بقلبه ، ونال الهم من نفسه
 فأسى عليكم إذا حثت مشعشة فينا الشمول وغنانا مغنينا
 لا أكؤس الراح تبدى من شمائنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
 كان بشار من أظرف الناس غزلا ، وأبدعهم نسيبا ، ولكن
 قضى الله أن يحول المهدي بينه وبين التشبيب ، فيضيع بذلك الشعر
 الوجداني من هذا النوع ، فيما عسى أن يقول فى ذكرى لياليه الخوالى
 وعهوده السوالف ! وقد ختمت زفراته المحرقة ، وعبراته المغرقة
 بكلمته الآتية :

يا منظرأ حسنا رأيته من وجه جارية فديته
 لمعت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
 والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويته
 أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما اتقيته
 إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيتـه

ويشوقني بيت الحبيب ب إذا غدوت وأين بيته
 قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته
 ونهاني الملك الهما م عن النساء فما عصيته
 بل قد وفيت ولم أضع عهدا ولا وأيا وأيته

ثم انقضت حياة بشار الوجدانية، وما عدت تسمع له غير أبيات
 فاترة في الأسف على ما حيل بينه وبين هواه، فقال الياأس من قلبه
 والقنوط من ضميره، وعاد من الهالكين.

ولقد نال أبا نواس إمام الشعراء في وصف الخمر، ما نال بشارا
 إمامهم في وصف النساء، فقد نهاه الأمين عن شربها وحبسه ابن أبي
 الفضل من أجلها، ثم كلم فيه: فأخرجه على أن لا يشرب خمرا، ولا
 يقول فيها شعرا، فطالت حسراته، وكثرت زفراته، ثم قال:

أيها الرائي باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
 نالني باللام فيها إمام لا أرى لي خلافة مستقيما
 فاصرفها إلى سواي فاني لست إلا على الحديث نديما
 جل حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشم النسيما
 فكأنني وما أزين منها قعدى يزين التحكيما

كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق أن لا يقيما
 وتعرف أن أبا نواس إن نهى عن الخمر فقد لا ينتهي، ولكنه
 لا بد من قلع عن وصفها، طاعة للامام، وفي ذلك يقول:

عين الخليفة بي موثة عقد الحذار بطرفها طرفي

صحت علانيتي له وأرى دين الضمير له على حرف
ولئن وعدتك تركها عدة إني عليك لخائف خلفي
نهي أبو نواس عن الخمر فشرها سرا ، ولكنه جامل الامام
بترك نعتها ، والتحدث عن وصفها ، فاصاب الأدب ما أصابه ،
وغشى الشعر ما غشيه ، فان أبا نواس فيما أرى أول الناس وآخرهم
في وصف الراح والسقا

ولو لم يقف في سبيله الأمين ، لأبان لنا من مذاهب القول
وطرق البيان ما كنا في حاجة إلى بعضه : ولكن الزمان للادب
ظلم قهار

ليس وصف الخمر والندامى ، والكؤوس والسقا ، ضربا من
الشعر الوجداني : فانها أوصاف محسة ، ترجع في جهاتها إلى ما ترى
العين وبذوق اللسان ، ولكن طبع أبي نواس ومهارته ، جعلها
لتلك المعاني الخمرية صبغة خاصة تشبه أن تكون من عمل القلب ،
وصنع الضمير

قل شعر عبيد الله لما تخوف الجمهور ، ونضب شعر ابن أبي ربيعة
لماناه أخوه ، وذهبت لطائف بشار في الغزل لما منعه المهدي ، وحر منا
بدائع أبي نواس في الخمر لما زجره الأمين
فكان ذلك مما أوجب فقر الآداب العربية ، وجعل حظ الشعر
غاية في الضؤل ونهاية في الخمود

فياليت شعري أشمل الحرية الأدب وتنظم الشعر ، أم يعيش

الشعراء أسرى الأوامر العالية ، والزواج الطاغية ، أبد الأبدین ،
ودهر الداهرين .

مارس سنة ١٩١٨

الامل الضائع

تأيمت حتى لامنى كل صاحب رجاء سليماً أن تقيم كما إمت
لئن بعث حظى منك يوماً بغيره لبئس إذأ يوم التغابن ما بعث
كنت أصبر على بأساء الحياة ، وأحتمل ما فيها من هم وغم ، لو
أن عندى بقية من الأمل أرفه بها أحزاني ، وأدفع بها آلامى ، ولكن
حال القنوط دون الرجاء ، وأتى اليأس دون الطمع ، فلم يبق غير
الجزع من مسعد ، ولا سوى النوح من شفاء !!

فيا جيرة ما كان أهناً وردهم ، وأطيب عيشهم ، ويا أحباباً ذقت
الفرح بقرهم ، وعرفت الهم لبعدهم ، ويا من أفناني فراقهم وكان
أحيانى لقاءهم ، بربكم ما الذى لقيتم بعدى ، فقد لقيت بعدكم ذلاً وهواناً
وظلماً وعدواناً ، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم ، ونعم بحسنكم ،
فأصفاكم من الحب أجمله ، ومن الأنس أكمله ، فقد صحبت بعدكم من
جحد نعمتى ، وأنكر خلتى ، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب ،
ومن أوليته القرب فأولاني القطيعة !

فياليت شعري من ألوم؟ ألوم نفسي على أن لم أعق في بركم
 أهلى وإخوانى : فأسير حيث سرتهم ، وأقيم حيث أقمتهم
 تفرق أهلى من مقيم وظاعن فياليت شعري أى أهلى أتبع
 أقام الذين لأبألى فراقهم — وشط الذين بينهم — أتوقع
 أم ألومكم على أن تركتمونى وحيدا وآثرتم وطنكم وأهالكم ، ولم
 تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه ، وأسير همه ؟ أم ألوم قوم جعلتهم
 منكم بدلا فكانوا شر بدل ، واتخذتهم من بعدكم ذخرا فكانوا كاهلباء
 ورجوتهم حصنا أتقى به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ، فاذا هم أذل
 من قراد بمنسهم ، وإذا المتفني ظلمهم ، والراجى برهم ، يطمع فى غير
 مطمع ، ويلجأ إلى شر وزر !

أم ألوم دهرًا اضطرركم إلى الرحلة فرحلتهم ، وحكم على بالمقام
 فأقت ، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار ، وشط المزار ، ماجعل الأمل
 فى التلاقى خائبًا ، ورجاء التدانى كاذبًا

وقلنا أبقى على ما أرى يوشك أن ينعانى الناعى
 ما أقتل اليأس لأهل الهوى لاسيما من بعد إطماع
 ما هذا الذى صنعتم ؟ أخضعتم لليأس ، وأذعتم للقنوط ، ولم
 ترهبوا العتاب ، إذ لم تأملوا اللقاء ، فزفقتم تلك الشمس إلى غيرى ،
 وآثرتم بها سواى .

ياعز إن ضاعت عهدى عندكم فانا الذى استودعت غير أمين
 أو عدت مغبونا فما أنا فى الهوى لكمو بأول عاشق مغبون

غلب اليأس علىكم فمللتم — ولا وفاء للمول — فكان منكم ما
أقضى المضجع ، وأورث الجفن السهاد ؛ فهل تعلمون ما صنع اليأس
بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء !
هي الغاية القصوى فان فات نيلها فكل منى الدنيا على حرام
نوفمبر سنة ١٩١٧

أحاديث . . .

باريس في ١٥ يناير سنة ١٩٣١

الوطن الذي يحفظ الجميل

مات المارشال جوفر في باريس فخفقت لموته قلوب الفرنسيين
جميعا ، وأعلن الحداد العام على الرجل الذي كسب موقعة المارن ،
وأخذت الجرائد والمجلات تنشر ما عرف وما لم يعرف من أخباره
وصوره وأعماله منذ كان يافعا إلى ان اختطفه الموت
وقد أثار هذا الحادث في نفسى أشجانا محرقة : فقد التفت
الذهن من فرنسا التي تحفظ الجميل إلى مصر التي تنكر الجميل
وانى لأرجو ان يحتمل القراء وقع هذه المؤاخذة ، فانى لا
ارضى أن أتملق عواطفهم وأهوائهم ، وأظهرهم بمظهر الأوفياء
لوطنهم وقومهم ، على حين يرتطمون في أوحال العقوق
كل شيء يتقدم في مصر إلا عاطفة الواجب نحو الجنود الذين

خدموا الوطن في امانة وإخلاص

والذى يعيش في باريس يأخذه العجب مما انتثر في هذه المدينة من مئات التماثيل ، ويكفى ان يتجول الرجل من حى إلى حى على قدميه ليعرف تاريخ فرنسا العلمى والأدبى والسياسى عن طريق التماثيل

ولكن لا يحسب القراء ان التماثيل هنا تقام لمن هزوا فرنسا وأشعروها بوجودهم ، وفرضوا عليها الوفاء لهم . . . كلا ، ففي أكثر الأحيان تقام التماثيل لرجال لم يكن يخطر ببالهم أن سيكون لهم ذكر مأثور بعد الممات ، وإنما ينتبه الشعب الى مزايا رجاله ، وخصائصهم ، وتفوقهم فيما انقطعوا له من علم أو أدب أو طب أو سياسة أو قانون ، وكذلك تنظر فترى تمثالا يقام لرجل نسيه الأهل والأصدقاء والأقربون ، وليس له شيعة ولا حزب ولا أنصار ، وكل ما في الأمر أن بعض المنصفين تنبه إليه ودعا الحكومة إلى إنقاذ ذكره من جور الخمول

والذين يستحقون الذكر في فرنسا لا يمجدون فقط في بقعة واحدة ، وإنما تنتشر أسماءهم في جميع المقاطعات والأقاليم ، فاسم فيكتور هوغو مثلا يطلق على عدد كثير من الشوارع والميادين في مختلف القرى والخواضر الفرنسية ، وكذلك اسم جان جاك روسو وفولتير وموليير ومن إليهم من رجال العلم والأدب والفن والسياسة والتشريع

هذا في فرنسا ، أما في مصر ؟

أنا لا أذكر أنه أقيمت في مصر تماثيل شعبية ، فان التماثيل القليلة يرجع السر في وجودها إلى بعض الرغبات العالية ، أما الشعب نفسه فيحتاج إلى من يهذب ذوقه ويروضه على تقديس الأوفياء من زعمائه ومعلميه ، وحسب القارىء ان يذكر أنه كان من الممكن أن تتلاشى فكرة تمثال زغلول ، ولولا قوة الوفد لوضع ألف غطاء على تمثال سعد وضريحه ، وكان من الجائز أن نشهد هذه المهرلة ونحن أحياء .

فاذا خيلنا سعد باشا جانباً ، ورجعنا إلى مصطفى كامل تبينا الحقيقة ، فان تدهور الحزب الوطنى كان كافياً لأن ينسى معه اسم مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان على الشعب أن يفهم أن زعماء الحزب الوطنى الأولين غير مسئولين عن « البرودة » التى يخب فيها أشياع الحزب الوطنى فى الوقت الحاضر ، وقد أذكر أن الوفد المصرى تقدم فى أواخر سنة ١٩١٩ إلى الاحتفال بتأبين محمد فريد ، فدل بذلك على تقديره لعظمة الرجل ، مع أن الخصومة بين الوفد والحزب الوطنى كانت إذ ذاك أحر ما يكون

هذا حظ رجال السياسة والوطنية فى مصر ، مع ما لهم من الأثر الفعال فى طبع أسمائهم فى الرؤوس
أما رجال العلم والأدب والتشريع الذين يعملون فى تواضع وهدوء فان نسيانهم حتم لا ريب فيه ، فكم فكر الناس فى إحياء ذكرى

اسماعيل صبرى باشا ثم سكتوا ، وكم صاح الصائحون باحياء ذلرى
 الشيخ محمد عبده ثم هجعوا
 ومع هذا العقوق لايزال فى مصر ناس يشقون لتسعد أممتهم
 ويموتون لتعيش . وبفضل هؤلاء الضحايا ، ضحايا نكران الجميل ،
 يحيا الكاندون الجاحدون !

أسماء عربية

أخذ الشرقيون منذ أكثر من عشرين عاما يعتزون بقوميتهم ،
 والقومية الصريحة لشعوب الشرق الأدنى هى القومية العربية ، وقد
 أخذ فريق من المصلحين يعمل لنشر اللغة العربية بحيث تصبح لغة
 الشرق فنشأ عن ذلك أن انصرف أكثر الشرقيين عن الأسماء
 الأوروبية وأصبح من النادر أن يسمى الناس أطفالهم بمثل ادوار
 أو جورج ، أو جان ، وأشهر الداعين إلى هذه السنة الحسنة من
 إخواننا الأقباط رجل طيب القلب بعيد النظر يسمى (وهبى بك)
 وكان ناظراً لمدرسة الأقباط ، فاليه فيما علمت يرجع الفضل فى
 شيوع الأسماء العربية بين الأقباط .

وأظهر الشواهد فى هذا الموضوع ما كان من الأستاذ الخطيب
 مكرم عبيد ، فقد أبعد عن نفسه اسم (ويليم) ليجمع بين الخصائص
 المصرية والعربية ، وليبعد عن نفسه وشائج السمات الانجليزية ،

والأستاذ مكرم خطيب شعبي محبوب ، ولباقته في الخطابة سيكون لها آثار حميدة في شيوع اللغة الفصحى بين إخواننا الأقباط هذا ، ولنا صديق في باريس من طلبة الدكتوراه اسمه ادرار فارس ، وهو شاب أديب نشر له المقتطف عدة قصص جيدة ، وقد رأيت أن أقدم بعض رسائله إلى المساء على شريطة أن يغير اسمه ، فارتاح للفكرة ، ولكنه قضى عدة أسابيع يتخير الأسماء من عهد أصحاب المعلقات إلى اليوم ، وكان أحب الأسماء إليه مروان وحسان ثم اختار أخيرا اسم « بشر » فهو الآن بشر فارس ، رضى الله عنه وأرضاه !

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر أن المأسوف عليه الدكتور يعقوب صروف كان يأسف على أنه لم يكن مسلما ، وكان يعتقد أن الباحث المسلم أقدر على التغلغل إلى أعماق النفوس الشرقية ، وفي يقيني أنه أصبح من المحتم على أهل الشرق أن يتسامحوا مع الاسلام في سبيل الوحدة الشرقية ، فان الاسلام دين هداية وسماحة وواقين ، ولا ضير على أهل الشرق من غير المسلمين أن يسايروا الواقع ، ويظمثوا إلى المدنية الاسلامية التي تؤلف بين قلوبهم من حيث لا يشعرون

أسماء مصرية

المسيو ميشو أستاذ الأدب الفرنسى بالسوربون وعميد كلية

الآداب بالجامعة المصرية سابقا رجل من أكرم الناس نفسا وأنقاهم سريرة ، ذهبت لتحيته في عيد الميلاد ، وهو يسكن ضاحية قريبة من باريس تسمى (سو) فلما وصلت إلى الشارع الذي يقيم فيه عذرت كل من يعشق مصر من الأساتذة الأجانب ، فإن أكثرهم يقيمون في مصر الجديدة ، ومصر الجديدة ضاحية قلما يوجد لها نظير في الضواحي الفرنسية ، فلما دخلت المنزل بهرنى ما فيه من الزخرف والزينة ، وجاء المسيو ميشو فحيانى ودعاني إلى زيارة حديقته ، ولكننا لم نكد نضع أقدامنا في الحديقة حتى هرع الكلاب لاستقبالنا في حفاوة بالغة ، وهجم أحدها يريد معانقتى ، فراجعت وقلت « امش يا كلب يا ابن الكلب ! » فضحك وقال : ما خطبك ؟ قلت : إنك لتعلم أنتى أزهرى قديم يكره النجاسة ! فقال : إنها كلاب لطيفة ، وقد سميتها بأسماء مصرية ، فالأكبر اسمه (الأقصر) والأوسط اسمه (اسمع) والأصغر اسمه (دغرى) فقلت فى نفسى عجبنا ! إننا نسمى أبناءنا بأسمائهم ، وهم يسمون كلابهم بأسمائنا ! وحمدت الله على أنه لم يخطر ببال المسيو ميشو أن يسمى كلابه بأسماء من كان يراهم كل يوم فى الجامعة المصرية مثل (زكى) و (لطفى) و (طه) فانه لو فعل لكانت ذكرى غير طيبة لأصحابها زكى مبارك و لطفى السيد و طه حسين

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من « أسمائنا » ما استحلت

الاستعمار على كف عفريت

لى صديق فرنسى مشغول الفكر بمستقبل المستعمرات الفرنسية، فاذا تحدثنا انطلق يشكو ما يلقى الفرنسيون فى مستعمراتهم من القلاقل والاضطرابات، وأظرف ما فيه شماته بالانجليز، فهو يطرب لأخبار الهند ومصر بنوع خاص، ويقول: إن فى مصر والهند دلائل قوة ونهوض، ويسرنى أن أجد أصدقاءنا المصريين وقد اكتملت قوتهم، واكتملت تجاربهم، بحيث صار من المستحيل أن تفنى قوميتهم أو ان يطمئنوا إلى خداع السياسة الانجليزية، وإن الهند لتضرب المثل لمن يريد أن يفهم أن القوة الروحية لا تقل فى خطرها وجلالها عن القوة المادية، قوة المال والسلاح.

فاذا انتهى الصديق من الاشارة بفضل مصر والهند عاد فذكر ان سكان الهند الصينية ناس خبيثاء ملاءين! فاذا قلت: ولم ذلك؟ أجاب: إنهم يحملون دائما بالثورة، ولا يتركوننا فى أمان، ولعلك تذكر ما كان من الطلبة الأناميين فى صيف سنة ١٩٢٨ حين ذهب رئيس الجمهورية لافتتاح دارهم فى المدينة الجامعية، فقد كانوا يوزعون المنشورات الثورية علنا فى حفلة الافتتاح، مع اننا شجعناهم على التعلم، وفتحنا لهم أبواب الرقى، وأنقذناهم من الجهل، وعلمناهم كيف تكون الحرية وكيف يكون الاستقلال

قلت: ونتيجة ذلك؟ فأجاب: الخلاصة أنه من الحق أن يفكر

المستعمرون في تهذيب الشعوب الشرقية ، فقد ظهر أن العلم يفتح
عيون أولئك الناس ويبعثهم على الثورة والتمرد والعصيان
وهنا ضاق صدرى فقلت : لقد آن لكم يا صديقي أن تفهموا
أنه قد انقضى عهد الطمع في استعباد الشعوب ، والشرق الذي ترمونه
بالوقاحة والخبث لخروجه عليكم يرميكم هو أيضا بالغفلة والجهل
حين تطلبون ما لا يكون وتطمعون في المستحيل . وعمما قريب
لتصبحن نادمين !

العرب واليونان

نشرت الشورى الغراء للأمير شكيب ارسلان كلمة في خواطره
عن العرب واليونان جاء فيها أن ابنه سأله : لماذا يا ابت يمجّد
الأوريون ذكريات اليونان ، ولا يمجّدون ذكريات العرب ؟ وقد
أجاب الأمير شكيب بما معناه ان تحامل الغربيين على العرب لم يخف
على احد ، حتى الأطفال ! وفي رأي ان إغفال الأوروبيين لذكريات
العرب يرجع لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي :

أولا — العرب لا يزالون أقوياء بخشى شرهم ، وذكرياتهم
الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام ، وكل إحياء لذكريات
العرب خليف بأن يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الإسلامية
وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي ، فليس من
الحزم أن يشجعوا ذكريات العرب والاسلام لهذا السبب الخطير .

ولا كذلك اليونان ، فانهم أمة صغيرة قليلة الحول والطول ، وليس في مقدورها أن تضايق أوروبا في حرب أو في سلم ، فهم ينشرون ذكرياتها في طمأنينة وأمان

ثانياً — أهم آثار العرب ترجع في صميمها إلى التشريع ، وهو من المعاني الجافة التي لا يقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين ، ولا كذلك آثار اليونان فان معظمها يرجع في جوهره إلى الأدب الصريح الذي يهيج الأهواء ، ويشير الشهوات ، وتلك شؤون تجد نصيبها في كل قلب ، ويسرى روحها في كل نفس ، حتى يمكن أن يقال إن جميع الشهوات واللذات الحسية أخذها الأوريون عن اليونان ، ولهذا الفرق بين آثار العرب وآثار الاغريق أغوار بعيدة يعرفها من يقدر ظمأ السواد إلى اللهو الجامح ونفرتة من الجد الرصين

ثالثاً — اشترك اليونان بأنفسهم في نشر آدابهم بين اهل الغرب وقلما فعل أنصار الأدب العربي شيئاً من ذلك ، وفي يقيني أنه لو ترجم كتاب العقد الفريد مثلاً إلى اللغات الأوربية لكشف للعالم الغربي آفاقاً من حرية الفكر وسلامة الذوق ، وخلق للأدب العربي آلافاً من الأنصار والأشباع ، فإلينا إذن يرجع اللوم في طمس آثار أسلافنا الماجدين

ساعة حب

يَا مَلِيكَ الْحُسْنِ عَزَّتْ دَوْلَتُكَ وَرَعَتْ آلَهُهُ الْحُبُّ صَبَاكَ
شِرْعَةُ الْأَسْعَادِ فِينَا شِرْعَتُكَ وَهَدَى الْأَشْفَاقِ وَالْعَطْفِ هُدَاكَ

* *

أَنْتَ أَنْقَذْتَ فُؤَادِي مِنْ جَوَاهِ وَسَقَيْتَ الرُّوحَ أَكْوَابَ الصَّفَاءِ
أَنْ أَنْ يَنْسَى فُؤَادِي مَا شَجَّاهُ نَسَخَ الْأَقْبَالُ أَيَّامَ الشَّقَاءِ

* *

سَاعَةٌ مَرَّتْ وَفِي الْقَلْبِ هَوَاكَ سَاحَرَ النَّعْمَةِ خَفَّاقَ الْجَنَاحِ
يَرْشُفُ اللَّثْمَةَ مِنْ كَأْسِ لَمَّاكَ فِي ظِلَالِ الْأَنْسِ وَالصَّفْوِ الْمُتَاحِ

* *

سَكَبْتَ نَجْوَاكَ فِي الرُّوحِ الْأَمَانِ وَأَرَانِي الْوَصْلُ أَسْرَارَ جَمَالِكَ
فَتَمَثَّلْتَ فَرَادِيسَ الْجَنَانِ وَرَأَيْتُ الْخُلْدَ مَمْضُورَ وَصَالِكَ

* *

وَقَفَ النَّجْمُ ^{مُضَى} (وَالْقَى بِالْهَاءِ) لِيُعِدَّ اللَّحْمَ مِنْ قَلْبِي وَقَلْبِكَ
وَيُخِجَ هَذَا النَّجْمُ مِمَّا هَالَهُ فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ مِنْ جَبِي وَحُبِّكَ

* *

غَارَتِ الْأَنْجُمُ مِنْ قَلْبِي الطَّرُوبُ، مَا يَقُولُ النَّاسُ لَوْ شَأَمُوا غَرَامِي؟
 أَنَا بِالْأَفْنَانِ فَتَّاكَ لُغُوبُ يَزِدُّهُنِي الْغَمُّ فِي تِيهِ هِيَامِي

* *

شُبَّهَتْ فِي قَلْبِكَ الْبِكْرُ يُلُوحُ طَيْفُهَا الْمُرتَابُ فِي إِنْسَانِ عَيْنِكَ
 أَنَا يَا مَوْلَايَ لَوْ تَعَلَّمْتُ رُوحَ يَهْصِرُ الْمُطْلُولُ مِنْ مَائِدِ غَضَنِكَ

* *

تَنْظُرُ السَّاعَةَ مِنْ حِينَ لَحِينٍ لَيْتَ شَعْرِي مَا الَّذِي يَسْتَعْجِلُكَ
 إِنْ هَذَا الْوَصْلَ أَحْلَامُ سَنِينَ فَاتَّقِ الْحُبَّ وَدَعْ مَا يَشْغَلُكَ

عام

مارس سنة ١٩٣٤

انظر الساعة ميعاد الهوى رِقْبَةُ الصَّنْفَةِ فِي حُبِّ الْمُؤَاهِرِ
 اترى افرغ قلبي من سوى ام ترى لم تغرخ القلب لآخر

الدكتور طه حسين^(١)

بين البغي والعقوق

—:○:—

١ — قصة الفأر الجبان في أساطير الأولين

٢ — شخصية زكي مبارك وشخصية طه حسين

٣ — وزير المعارف الجديد

قصة الفأر الجبان

في أساطير الأولين أن شيخا من السحرة كان في بيته فأر جبان لا يسمع مواء القط إلا اضطرب وخاف ، فأشفق الساحر عليه وحوله إلى قط ، فصاريخاف من الكلب ، فحوله إلى كلب فصاريخاف من النمر ، فحوله إلى نمر فصاريخاف من الفيل ، فغضب الساحر وقال : لا فائدة من ترقيتك إلى حيوان مستأسد مادمت تحمل قلب

الفأر الجبان

(١) رسالة من كتاب «أكواب الشهد والعلم» الذي سنصدره في العام المقبل ، وإنما تعجلنا نشر هذه الرسالة في «البداية» لأن الجمهور تشوف إليها كثيرا ، ولأنها كانت ذات تأثير شديد في جميع الأندية الأدبية ، وبفضلها انكشف طه حسين وعرف الناس أنه كالطبل الأجوف وأنه مثال الانحطاط بين أهل هذا الجيل

وفى أخبار العصر الحديث أن رجلا اسمه زكى مبارك كان
يهجم على شخص اسمه طه حسين ، وكان طه حسين يسكت فلا
يجيب ، فكان الناس يظنون أن طه حسين يترفع عن ملاحاة زكى
مبارك ، ثم مضت أيام وأصبح زكى مبارك موظفا فى الحكومة
المصرية ، ورأى طه حسين أن الوظيفة تحرم على صاحبها ألوانا من
الخصومات ، فانطلق كالسهم يأكل لحم زكى مبارك فى غير تعفف
ولا إشفاق ، وكذلك عرف الناس أن طه حسين لم يكن يترفع عن
ملاحاة زكى مبارك ، وإنما كان يخاف ، فلما رأى أن زكى مبارك
أصبح فى قيود الوظيفة أمن واطمان ، واندفع يناوشه ويلاحيه
بلسان شجاع وقلب جبان

يادكتور طه ، سلام عليك !

لقد كان الناس يحسبونك جباناً حين كنت أستغضبك فلا
تغضب ، وأطعنك فلا تهتاج ، فما بالك اليوم تشجعت وشغلت
نفسك بمحاربتى فى صحيفتك السوداء ؟ أتحسب أن الوظيفة تحولنى
إلى رجل جبان كما فعلت بك فى الأيام السوآلف ؟ معاذ الله أن
يكون ذلك ، وسترى كيف أجعل لحمى حراما عليك ، وكيف أخرسك
فلا تنطق ولا تبين ، لقد كانت بينى وبينك عهد رعتها بأدبى حق
الرعاية ، وهأنذا أراك تحللت من جميع ما كان بينى وبينك من عهد
فاذهب فقد ألقيت جلك على غاربك ، ولن أرفع لك بعد اليوم عهدا
ولن أدعك تنهش لحمى ، وهل من البر أن نصفخ عن الغادرين ؟

يادكتور طه !

كيف نسيت فضلى عليك ، يوم نبذك الناس نبذ النواة ، ولم يكن لك نصير سوى ؟ أتذكر يوم كان أصحابك يفرون منك كما يفِر السليم من الأجر ؟ أتذكر كيف كنت وحدى صديقك الذى لا يغدر ولا يخون ، وكان إخوتك وأصدقائك بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص ؟

يادكتور طه !

ماذا تملك من السلطان حتى تهدد وتوعد ؟ حدثنى ماذا تملك فقد ضقت ذرعا بوعيدك ؟ هل تملك غير الدسائس التى تسطرها ضدى فى صحيفتك السوداء ؟

إن هذه الدسائس لن تفضح أحدا غيرك ، لأنها أظهرتك على حقيقتك ، ويذنت للناس أنك بعيد كل البعد عن أخلاق الأشراف كل ما تملك هو الانتساب إلى العلم والعلماء ، ولست من ذلك فى كثير ولا قليل ، ويجب أن تعلم أنى أزاحمك برأس أرجح من رأسك ، ومنكب أضخم من منكبك ، وساعد أقوى من ساعدك ، وستندم يوم لا ينفع الندم ، فاعرف قدرك ، ولا تطمع فى أن ألائيك ، فانى أو من بالله وحده وهو نعم المولى ونعم النصير ، أما أنت فلا تعرف أنصارك إلا فيمن يزحفون فوق الأرض . تذكر ربك مرة واحدة ، يا غافل ، فسينصرنى الله عليك ، ولو خدمت ألف حزب وسيطرت على ألف جريدة ، والمستنصر بغير الله مخذول وإن أعانه الثقلان !



شخصية وشخصية

يادكتور طه !

أنت تعجب من رجوعي إلى الجامعة المصرية ، فلتعلم أن حجتك في هذا العجب ساقطة أشنع السقوط ، لأنني لم أجيء إلى الجامعة من عرض الطريق ، فقد زكيتني أنت للتدريس في الجامعة منذ تسع سنين ، واشتغلت بالتدريس في الجامعة ثلاثة أعوام بجانبك ، ولم تؤاخذني بهفوة واحدة ، وكتبت عني تقريراً كان يومئذ يمثل نزاهتك فقلت إني أؤدي عملي تأدية موفقة وأنت راض عني وعن عملي كل الرضا ، وأنت تذكر يادكتور طه أن إرادة فوق إرادتك أخرجتني من الجامعة ، وتذكر أنك مثلت دور الرجل الكريم فجزعت لخروجي من الجامعة أشد الجزع ، ورشحتني للرجوع إليها بعد ذلك مرتين ، ومن حسن الحظ أن ذلك كله مسجل في أوراق رسمية ستشهد عليك إن أنكرت

فيا أيها الغادر بأخيه كيف تنسى كل ذلك ليصح لك الزعم بأن رجوعي إلى الجامعة لم يكن إلا مكرمة خالصة من معالي الأستاذ حلمي باشا عيسى ، مع أن حلمي باشا لم يصنع أكثر من تحقيق رغبة صالحة أعلنتها أنت مرتين !

ومع ذلك ، فبأى حق تكون أنت أولى منى بمناصب الجامعة المصرية ؟

إليك الفروق الواضحة بين شخصية زكى مبارك ، وشخصية طه حسين :

لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك في باريس ، وذهبت أنا فأتممت دراستي في باريس ، فهل تعلم ما الفرق بينى وبينك ؟
اسمع أيها الصديق القديم البالى :

ذهبت أنت على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله فانفقت ما ادخرت من عرق الجبين

واتصلت أنت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك آراؤه فرضا ، ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ ، واتصلت أنا بالمسيو مرسيه ، ففرضت عليه آرائى فرضا ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فأذانى إيذاء أشديدا ، ولكن قناتى ظلت صلبة واستطعت أن أقوض كبرياه فى عقر بيته وفوق كرسي السوربون ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة ، فقد وقف المسيو ماسينيون يوم أديت امتحان الدكتوراه ، وقال : « إنتى حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا . وحين أقرأ أبحاث زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة »

فان كنت فى ريب من ذلك فاسأل من حضروا امتحاني فى السوربون ، وكانوا مئات ، وفيهم مدير البعثة المصرية فى باريس ،

ولك أن تسأل المسيو ديمومبين ليخبرك أن المسيو مرسيه صارحه بهذه العبارة « إنى لا أستطيع أن أمنح زكى مبارك ما يصبو اليه : فاني أقرأ في وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف وأخشى أن يحى غداً ومعه سفير مصر ليطالب بكرسى من كراسى السوربون »

وأنت يادكتور طه تعلم من هو زكى مبارك ، وتعلم أنه لا يخاف الا الله المتفرد بالعظمة والجبروت ، وقد عرفت منى ماسرك وساءك والدنيا أفراح وأحزان

ثم ماذا ؟ اسمع أيها الصديق :

لقد اشتغلت أنا بالصحافة ، واشتغلت أنت بالصحافة ، واليك الفرق بين الشخصيتين :

كنت أنا رئيساً لتحرير جريدة الافكار ، وكانت تدافع عن مبادئ الحزب الوطنى ، وكان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفانى ، فكنا نختلف ونختصم فى كل صباح ، لاني كنت أبى أن أكتب غير ما أراه فى التقلبات السياسية ، وكان يتفق أن أخرج من الجريدة قبل أن أتم مقالى ، فيخرج الصوفانى بك يبحث عنى ويتراضانى

وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية ، فهل تدري ماذا تصنع ؟ تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطرأ قبل أن تتصل تليفونيا بهذا أو بذاك لتلقى الوحى ، ثم تكتب ما يلقي عليك وكأنك البيغاء ؟!

وأنت مع هذا تزعم أنك رجل ذو شخصية وأن من واجب الناس أن يستمعوا قولك

ثم ماذا ؟ اسمع أيها الصديق :

اشتغلت أنت بالتأليف واشتغلت أنا بالتأليف ، واليك الفرق بين الشخصيتين : مضيت أنت فانتبهت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين ، وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العمومية .. وأنت تعلم أن ليس لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث ، وقد تحديتك فى كتاب النثر الفنى ، فسكت وتخاذلت لأنك تعلم أن بيتك أوهى من بيت العنكبوت

واشتغلت أنا بالتأليف فكانت آرائى كلها مبتكرة ، ولم يستطع أحد أن يتهمنى بالسرقة من فلان أو فلان ، كما اتهموك بالسرقة من جميع الناس

ومؤلفاتك تموت يوم تولد ، ولك أن تسأل لجنة التأليف لتخبرك أن كتاب الأدب الجاهل لم يبع منه شئ بعد النسخ التى فرضتها أنت على طلبة كلية الآداب

أما مؤلفاتى فهى فى جميع الأيدى ، وتعاد طبعاتها وتطلب فى جميع الأوقات .

ثم ماذا ؟

كنت أنا فى الجامعة وخرجت ، وكنت أنت فى الجامعة وخرجت فهل تدري ما كان منى وما كان منك ؟

خرجت أنا من الجامعة فلم أعتمد على غير الله ، وأنت تذكر يادكتور طه أن الأستاذ سليم حسن سألنى بحضرتك عما عملت ،

فأجبت انت ، وكنت يومئذ رجلا شريفا :
 « لقد عمل زكى مبارك ما يعمل الرجل : رأي آتجنى ، ورأى
 لطفى بك يتدل ، فتركنا ومضى يجاهد جهاد الرجال »
 خرجت انا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية ،
 وجمعت من المال الحلال ما أتممت به دراستى فى باريس ، وطبعت
 عددا عظيما من المؤلفات ، وكتبت فى الأدب والاجتماع صفحات
 تعد بالالوف ، والحمد لله رب العالمين

وخرجت أنت من الجامعة فانزويت فى بيتك وأخذت تبحث عن
 سيد ، وطالت حيرتك فى تخير سيدك الجديد ، فكنت تراه تارة
 من هؤلاء ، وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيرا أن مائدة الوفد أشهى
 من غيرها وأمتع ، فذهبت وقدمت اليها نفسك ، وهددت الدكتور
 هيكىل بكشف أسرار الدستوريين

أفرايت الفرق بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين
 ثم ماذا ؟

كانت لى آراء جريئة ، وكانت لك آراء جريئة
 أما أنا فكنت لا أذيع رأى إلا حين أعتقد صحته ، وما كان يهمنى
 مطلقا أن أعادى الجمهور بلا موجب ، أما انت فكنت لوحة اعلانات
 لا تذيع رأى الا لتغيظ الجمهور ولتصبح حديث الناس فى الأندية
 والمجتمعات

لقد أخرجت كتاب الشعر الجاهلى فى سنة ١٩٢٦ وكتبت فى

مقدمته فقرات تتحدى فيها رأى العام وتعلنه بالحرب الشعواء ، ثم اتفق أن ذهبت لحضور المؤتمر التاريخي في الشام ، ورجوتني أن أحفظ لك ما يكتب ضد الكتاب ، فلما عدت سألتني فأخبرتني أن الكتاب قوبل بالاعراض ، فأظلم وجهك لحظة ، واصفر لحظات ، لأن أملك خاب في تهيج الجمهور ، ثم سعت سعيك في لفت الأنظار الى كتابك . أفنذكر كيف كانت العاقبة ايها الرجل الشجاع ؟ كانت العاقبة أن دعاك مدير الجامعة وامرك بالاستغفار فخضعت وأذعنت ، ونشر قلم المطبوعات على الصحف المصرية هذه التوبة النصوح :

« أشهد أنى أومن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر »
« طه حسين »

وكان حادثاً مضحكاً أخزيت به العلم وأذيت كرامة العلماء أنت تؤمن بالله وكتبه يادكتور طه وانت تكذب التوراة والقرآن اعتماداً على رأى خاطئ . سرقة من احد المبشرين ؟ يحزننى والله أن أذكرك بهذا يادكتور طه ، فانا اعرف كيف تؤملك هذه الذكرى ، ولكن ماذا أصنع ، وقد نقضت العهد ، وهدمت ما بيناه من صروح المودة فى عشر سنين ؟

وليتك وقفت عند هذا الاستغفار العجيب بل ورطت مدير الجامعة حين اكدت أنك لم تلق تلك الآراء الخاطئة على الطلبة فذهب

يحكى ذلك فى مجلس النواب ، وقام القائلون فعارضوه ، ونقلوا
عن كتابك هذه العبارة :

« ألقىت هذا البحث على طلبة الجامعة وليس سرا ما أذعته على
أكثر من مائتين »

أبعد هذا تحدث نفسك بمناوشتى وملاحاتى ، وأنا أملك من
أسرار حاضرك وماضيك ما يصعب عليك الفرار منه ، ولو اعتصمت
بشواهق الجبال ؟
ثم ماذا ؟

عدت أنا الى الجامعة فى عهد الوزارة السابقة ، فهل يستطيع أحد
أن يثبت أنى توددت مرة واحدة الى وزير المعارف السابق ؟
وأقسم ما عرفت يوما منزل حلمى باشا لافى القاهرة ولا فى الريف
مع أن أهله من جيران سنتريس ، ولا رأيت الى اليوم وجه
عبد الفتاح يحيى باشا ، ولا كتبت سطرًا واحدًا فى جريدة الشعب
أو جريدة الاتحاد

فهل تعرف أنت شيئًا من هذه الكرامة يادكتور طه ، وأنت
لم تترك حزبًا الا خدمته ، ولا جريدة حكومية الا توددت اليها
بعدد عديد من الرسائل الطوال ؟ !

لقد آن أن تعرف ان هناك فرقًا عظيمًا بين شخصية زى مبارك
وشخصية طه حسين ، وأن لك أن تنزجر وتخشى عواقب
التعرض لعداوات الرجال

أكتب هذا وأنا أعلم أن ستتكلمش ، لأن مثلك لا يطغى
إلا حين يأمن ، فاذا خوفناه خاف !



وزير المعارف الجديد

وقد ترامت إلينا الأخبار بان الدكتور طه يعتز اليوم بصداقة
وزير المعارف الجديد وأنا أعرف أن الاستاذ نجيب الهلالي يعطف
على الدكتور طه كل العطف ، لأن له أوطاراً لا تقضى إلا باصطناع
ذلك الفأر الجبان ، ويسرنى والله أن يتقدم فيؤيد عطفه عليه
بوظيفة تريخ منه الصحافة ، وتريخه من الصحافة ، فقد كاد يفسد
الجو الصحفي إفساداً لا إصلاح بعده ، ولم يستطع مطلقاً أن يربح من
الصحافة ما يغنيه عن شكوى الزمان

ولكن طاش سهمك يا دكتور طه إن كنت تحسب ان نجيب
الهلالي بك لن يكون له هم ولا وسواس إلا أن يتسقط مواقع هواك
او يتلمس مساقط رضاك ، إن الوزراء لهم هموم أعلى وأشرف من
شفاء أحقاد الموتورين ، وسترى أن نجيب الهلالي أعز على نفسه
وعلى حاضره وماضيه من أن يقيم وزناً لوشايات العابثين ، ودسائس
الحاقدين ، إن كان فيه شيء من نخوة الرجال

ليس بيني وبين وزير المعارف الجديد صداقة ولا عداوة ، ولو
كنت من أعدائه لما خشيت شره ، فلسنا في القرون الوسطى يا دكتور

طه حتى نخاف الوزراء، فكفكف من أوها مك وتذكر أن إنصافك
ليس معناه أن يظلم غيرك لتكون وحدك فارس الميدان
ما الذى تصبو اليه يادكتور طه ؟ أتريد أن تعود الى الجامعة ؟
أهلا وسهلا !

ولكن تذكر انك كنت السبب فى تأخر التعليم فى كلية الآداب
وأنصح لك إن رجعت اليها الوزير الجديد أن تفهم أنه لا يجوز
لأستاذ أن يواجه الطلبة إلا بعد أن يعرف موضوع الدرس
فانت تعرف ماضيك فى التعليم وتعرف جيدا أنك لم تكن بالأستاذ
الذى ينفع الطلاب

فان أنكرت هذا الذى أدمغك به ، أو حاولت تجريحى فى
صحيفتك السوداء ، فساكون فى حل من سرد ماأعرف من أساليبك
فى الدروس والامتحانات ، وفى بعض ذلك ما يخرسك ، وسيكون
ذلك فى رسائل علنية ، لأنى أكره الدسائس ، ولا أحب العمل الا
فى ضوء النهار ... افهمت أيها الأحق الجهول ؟!

يادكتور طه !

أنت اليوم تبحث عن يردك الى عملك ، فلا يكن سبيلك الى ذلك
أن تسعى لايذاء غيرك ، فقد يغضب الله عليك فلا تظفر بقديم ولا جديد
والبغى يصرع أهله والبغى مرتعه وخيم

وسيرى الناس أن العاقبة لمن يعملون فى صدق واخلاص ، والله

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٤

العزة ولرسوله وللمؤمنين

الآلم والحياة

قرأت في «البلاغ» فقرة مترجمة جاء فيها أن شارلى شابلن قال :
« إن بعض الناس يدهشون لاصرارى على الظهور فى رواياتى
بمظهر الشريد البائس المتألم ، ولكن أليس فى الآلم كل معنى
الجمال ؟ »

فذكرت انى قرأت لآنا تول فرانس منذ أعوام كلمة نفيسة عن
الآلم وفضله على الحياة ، فعدت إليه فرأيتة يقول ما ترجمته بتصريف
يسير :

« بين الوهم الدائم الذى يحيط بنا يبدو شىء واحد محقق : ذلك
هو الآلم ، وهو حجر الزاوية فى الحياة ، وفوقه قام بناء الانسانية ،
وكل شىء ما عداه وهم ، وهو وحده اليقين . . . إتنا نعرف أتنا تتألم
ولا نعرف شيئاً غير ذلك ، وهنالك القاعدة التى بنى عليها الانسان كل
شىء . نعم فوق صخور الآلم أقام الانسان صرح الحب والشجاعة
والبطولة والرحمة والفضائل والقوانين ، ولو انعدم الآلم لاسودت
تلك الجوانب الجميلة من الحياة وسقطت فى هاوية الفناء ، وعند
الانسانية شعور مظلم بضرورة الآلم ، ومن أجل ذلك وضعت
الحزن بين فضائل الأخيار والقديسين . . فما أسعد الذين يتألمون
وما أشقى السعداء ! وقد عاش الانجيل ألفى سنة فى العالم لأنه زفر

بصرخة الألم وأشاد بأحزان البائسين «
وقبل شارلى شابلن وأنا تول فرانس كان ألفريد دى ميسيه
يقول :

« الألم هو الذى يصيرنا عظماء »

فهل فى ذلك شىء من الحق ؟

الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة ، على شرط
أن لا يكون نوعا من القلق العليل ، فهناك ناس يستريحون إلى
الحزن المبهم ويرون فيه لونا من السلوة والعزاء ، ومثل هذا الألم
لا يصل بالمتألمين إلى ربح جزيل .

الألم النافع هو ألم الرجال . والرجل قد يتألم ولكنه لا يصرخ
وكم فى العالم من رجال محزونين ولكنهم لا يفارقون الابتسام
وهؤلاء يدركون معاني الحياة ويعرفون طعم السراء والضراء ،
وتكويهم المحن والخطوب ، ولكنهم يستكبرون على الجزع
والشكاية ، ويرون الناس أصغر وأهون من أن ينتظر منهم الكريم
كلمة رثاء .

الألم المشروع هو الألم فى الحب : لأنه نوع من العطف
والحنان ، وهو كذلك نوع من الاشفاق على الجمال ، والجمال أشقى
الموجودات فى العالم مهما استطال أهله ونشروا ألوية العتو والكبرياء
فالعاشق يحزن ويتألم ، ولكنه فى ألمه وحزنه قوى متين
أما الألم فى سبيل المجد فرذيلة ، وليس للرجل أن يتألم حين

يفوته الحظ اللائق به ، ولكن عليه أن يحقد ؛ وهذا هو المواطن
الذى أرى الحقد فيه فضيلة ، وحاشا للقارىء أن يظن أنى أدعو إلى
الحقد السافل الذى يتسلح به الجبناء والأوغاد، إنما أدعو إلى الحقد
الشريف الذى يفرض على أصحابه أن يستعدوا الكبت خصومهم فى
ميادين الجد والنضال والكفاح . وهل هناك حظ أطيب وأشرف
من أن تشعر خصمك بأنك أقوى منه نفسا وأشد مراسا وأصلب
عودا؟ إن ذلك هو الفوز الممين .

١٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

دواعى الشعر (١)

- ١ -

أيها السادة

إن القمر الزاهر الذى يغازل الشعراء كما يغازلونه ، والبحر
الزاهر الذى يعجب الأدباء بأموأجه المتلاطمة ، كما يعجب بأفكارهم

(١) مطلع هذا البحث كان فى الأصل خطبة أقيمت فى فندق شبرد
سنة ١٩١٨ فى حفلة أقامها طلبة الجامعة المصرية لتكريم أستاذ اللغة الانجليزية
ثم رأى الكاتب ان يتابعه فى جريدة الأفكار فى صيف سنة ١٩١٩ وكانت الثورة
مشبوبة ، فاشترك السيد حسن القاياتى فى المناقشة وغضب الشاعر احمد نسيم
فارسل إلى الكاتب قصيدة هجاء بامضاء (الاخطل) وهذه الرسائل فى جملتها
تصور ماكان عليه الشعراء فى أيام الثورة المصرية من النهيب والانزواء

المعجزة، والروض الضاحك الذى يبسم الكتاب لأزهاره الشائقة
كما يبسم لكلماتهم المتناسقة، تلك الظواهر الطبيعية التى تبعث على
الشعر، وتدعو إليه، هى فى كل قطر، وفى عيني كل كاتب،
وفؤاد كل شاعر: وذلك ما أوجد التشابه فى خيالات الشعراء،
وأفكار الكتاب، وجعل الفرق غير بعيد بين قديم الشعر وحديثه،
وطارف النثر وتليده، فاذا قال قائل: إن العقل البشرى سائر نحو
الارتقاء فى كل سبيل إلا من حيث الخيال الشعري، فاعلم أن ذلك
ليس لعجز فى القوى البشرية، أو تقصير من الشعراء أنفسهم، إنما
كان ذلك لأن دواعي الشعر خلقت مع الإنسان يوم خلقه، بل قبل
أن يخلق بأجيال، فلا بدع إذاً أن يظل امرؤ القيس شاعر العرب
وهوميروس شاعر اليونان، وإن طال العهد وبعد الأمد، ولا
كذلك ما عدا الشعر من الفنون والصناعات. فان موجباتها خلقت
مع الحوادث شيئاً فشيئاً، ولا تزال؛ فليس عجيباً بعدئذ أن يقف
الشعر أو يسير سيرا هادئاً فى حين أن باقى الفنون تسابق الظل،
وتجارى الريح فى السير نحو الكمال.

تلك أيها السادة: علالة المتعلل وحجة الضعيف المغلوب،
وكيف تكون دواعي الشعر بالأمس هى نفسها دواعيه اليوم؟ نعم
إن السماء ما زالت كهيتها يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن
البحار ما زالت زاخرة عمجاجة على نحو من العظمة والجلال يتشابه
أوله مع آخره، وإن الرياض ما زالت تلبس فى الحاضر أثوابها فى

الماضى ، ولكن هل ينبغي أن يكون شاعر اليوم كشاعر الأمس ؟
 كلا والله فان الناس من قبل كانوا ينظرون إلى السماء من بعد ؛
 فأصبحوا يتبينون خفاياها بالمرصد ، وكانوا يعجبون بالبحر وهم
 وقوف على شاطئه ، فأصبحوا اليوم يخوضون أحشاءه ويسبرون
 أغواره ، وكانوا ينعمون بالرياض وهى حسناء مهلهلة الثياب
 فأصبحوا يلهون بها عذراء غضة

« تأود تحت الحلى فى الحلل الخضر »

فهل يليق بشاعر بعد ذلك أن يقنع بما يمد به خاطره من المعانى
 القديمة ، والخواطر العتيقة ؟ هذا والله ضعف وانحطاط
 فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مضى

فذلك عصر قد تقضى ، وذا عصر

وما أشبه حالنا مع من تقدمنا من الشعراء إلا بشاعر عاشق رأى
 فى النوم طيف حبيبته فأصبح وقد ملأ الدنيا غزلا ونسيبا ، فلما أتيح
 له أن يراه رأى العين أفحم ، وكذلك رأى أسلافنا ظواهر الطبيعة
 فقالوا وأبدعوا ، ووقفنا نحن على حقيقة الكون وأسرار الوجود
 ولكن لم نشعر كأن لم نشعر !

وقد وجدت مكان القول ذاسعة فان وجدت لسانا قائلا فقل

إلا أنه اذا كانت تلك الظواهر الطبيعية هى ينبوع الأول الذى
 تتفجر منه الخيالات الشعرية والمعانى الأدبية ، فان الشاعرية لتزداد
 بالنظر فيما ترك الشعراء والكتاب من بديع الشعر ، وطريف النثر

فان فيما ترك أولئك الكرام الكاتبون لجنت وأنها را، وشموسا وأقمارا
توحى الى المرء من ساحر الخيال ، وفاتن القول ، ماتعجز عن مثله
الأنهار الجارية ، والرياض الحالية، والسما الصافية، وإذا عرفنا حاجتنا
الى النظر فيما ترك الشعراء والكتاب فلا بد أن نعرف أيضا أن
ذلك لا يختص بأمة دون أمة ، أو إقليم دون إقليم .

وإن الذى يريد أن يتكمل فى الشعر والأدب يجب أن ينظر
فيما ترك الأدباء فى مشارق الأرض ومغاربها ، من الآثار الأدبية
والطرائق العلمية . إذ كما لا يمكن للرجل الواحد أن يخترع علما ثم
يكون أول الناس وآخرهم فيه ، فكذلك لا يمكن لأمة واحدة أن تقوم
بحاجة البشر فى فن من الفنون ولا سيما فى الآداب التى هى خلاصة
الأفكار ونتيجة الخواطر . لذلك رأى رجال الجامعة المصرية ، وهم
من نعرف فى بعد النظر ، وأصالة الرأى ، أن تدرس آداب اللغة
الانجليزية والفرنسوية ، بجانب آداب اللغة العربية . فكان ذلك
فضلا الى فضل ، وأدبا الى أدب . وإذا لاحظنا أن أدباء الانجلىز
من أحرص الناس على العلم والأدب وأعلمهم بلغات الأمم وآدابهم
وأشدهم عناية بتقيد الأوابد ، وضم الشوارد ، وأكثرهم ضربا فى
الأرض ، وسيرا فى الأقطار ، وأكثرهم تعرفا لأحوال الناس على
اختلاف طبقاتهم وتباين أشكالهم ، إذا لاحظنا كل ذلك عرفنا أن
آداب اللغة الانجليزية انما هى خلاصة آداب الأمم ، إذ كانت نتيجة
التجارب العديدة ، والمشاهدات المختلفة ، فى أكثر بقاع الأرض

وأغلب أنحاء المعمورة . وكذلك يكون العارف بآداب هذه اللغة عارفا بآداب أمم عدة لا أمة واحدة . وإذا لاحظنا أيضا أن آداب اللغة العربية إنما هي آداب أمم مختلفة جمعها الدين وألف بينها الاسلام كما أن آداب اللغة الانجليزية آداب أمم شتى؛ عرفنا أن العارف بآداب اللغتين العربية والانجليزية من أغزر الناس مادة في الأدب وأرسخهم قدما في عالم الشعر . فنهينا لآخواننا الذين تمكنوا من آداب لغتهم العربية ثم تكلموا بآداب اللغة الانجليزية ؛ فشرّبوا من الكأسين ، وتحلوا بالفضيلتين ، والسلام

— ٢ —

ألقيت خطبة في فندق شبرد تكريما للمستر ورتهام أستاذ آداب اللغة الانجليزية ، في الجامعة المصرية ، رددت فيها على القائلين بوقوف الحركة الشعرية ، لوجود الدواعي متماثلة متشابهة في كل العصور ، ووازنت بين دواعي الشعر بالأمس ودواعيه اليوم ، وأنحيت باللائمة على الشعراء الجامدين ، الذين لا يزالون يترسمون خطوات من سبق وهم عن الجديد معرضون

غير اني نظرت الى تلك الدواعي من الوجهة الطريفة ، فجعلتها في الرياض الزاهرة ، والبحار الزاخرة ، وفي البسود الطوالع ، والشموس السواطع ، وأضفت الى ذلك ما يكتسبه الفكر من النظر في الآداب الأجنبية التي قد تزيد أدبنا وضوحا وبيانا ، إذا عرفنا أن

الناس من نفس واحدة ، وأنهم يسعون إلى غرض واحد : وهو فهم حقيقة الكون والثناء على الله

واليوم أقول : إن تلك الدواعي السالفة إنما هي لقوم بلغوا من الحضارة والرقى ما يسمح لهم بالتفكير في الجمال ، والتفنن في وصف غرائبه ، من الغطاء النوافر ، والحسان الأوانس ، ورأوا من قومهم نفوسا عاشقة لطرائف الحسن ، وقلوبا تائقة لبدائع الشعر ، فقالوا في وصف الرياض والأزهار والبحار والأنهار ، والقصور المشيدة ، والصروح الممردة ، وخاطبوا النفوس الناعمة ، والقلوب الوادعة ، وانتقلوا من عالم الحس إلى عالم الخيال ، فوصفوا أحلامهم اللذيذة وآمالهم الحلوة ، إلى غير ذلك مما يجد في قلوب أهل السعة و نفوس أهل الرغد ، ميدانا يمرح فيه ، وروضا يأنس به ، وكذلك نفوس الشعراء ، في أيام الرخاء

أما دواعي الشعر في هذا البلد ، وفي هذه الأيام ، فهي غير أسبابه تلك ، لما ترى من الفرق الظاهر بين عامتنا وخاصتنا ، وقلبا يتغنى الخاصة بالشعر ، إن لم تصغ العامة إليهم ، ويفتحوا لهم آذانهم وقلوبهم

وهل يطرب الناس للشعر وهو يصف ما لا يحسون به ، ويتحدث عما لم يستطيعوا إليه السبيل !!

ولقد كان عجباً عند الشاعر حافظ إبراهيم أن يجيد العرب وصف الناقة وهي تلك المركب الصعب ، ولا يجيد نحن وصف ذلك المركب

الذلول (الأوتوميل) ولو لحظ أن الشاعر العربي ما أطنب في وصف الناقة إلا لأنها كل شيء عنده ، ولأن أهله ورفاقه يعرفون من صفتها ما يعرف لعلم أن السر في عجزنا عن وصف الأتوميل ، ليس هو ضيق اللغة كما زعم ، بل لأننا ننظر إلى هذه المخترعات في الأرض كأننا ننظر إلى الشمس في السماء .

مالنا ووصف هذه البدائع الفتانة والنفائس الخلابه ، ونحن لا نتعم بها ، ولا شيء فيها من صنع أيدينا ؟ إذن فلنترك وصفها وتقريرها لشعراء الغرب أولئك الذين يجدون من السرور بركوبها ما كان يجده العربي وقد علا ظهر البعير البازل ، أو تسنم الناقة الهوجاء . وقد كان أستاذنا الشيخ محمد المهدي يقول وهو يتحدث عما أبدع الشعراء في وصف الشمعة : لا أدري ما كانت تكون حالهم لو شاهدوا غرائب هذه الأيام ؟ إني لا أشك في أنهم كانوا يجيدون . وليسمح لي أستاذي أن أقول : إنهم لو عاشوا إلى عصرنا لعجزوا وعجزنا فان الأمر كما قيل :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ، ولكن الرماح اجرت
وكما قال ابن الزيات :

لك أن تبدى لنا حسنا ولنا أن نعمل الحدقا
فان قومنا لم يفكروا في مجارة الأمم المولعة بأعاجيب الصناعة
حتى نجاريهم في أفانين البلاغة
وإننا لجديرون بأن ننشط إلى الاقتان والابتداع ، إن نشطوا إلى

الابتكار والاختراع ، وإلا فليوموا أنفسهم إن كانوا منصفين

— ٣ —

قل لى بربك ، ما أنت صانع لو زرت الأهرام ، وكنت بمن رزقوا
الشعر الفصيح ، والخيال البديع : أتغرب فى وصفها بالوسامة الشاملة
والقسامة الكاملة ، وتتغنى بارتفاعها الباهر ، وانساعها النادر ، فتسلك
سبيل الفاهمين من أهل مصر القديمة ، والغافلين من أهل مصر الحديثة
أم أنت سالك غير تلك السبيل ، وخائض فى غير ذاك الحديث
مازلت أسمع الشعراء من حولى يتغنون بالحضارة القديمة ،
ويشيدون بذكر الفراعنة ، ويلهجون بمجد العرب ، كأن مصر
مازلت سيدة العالم وكأن رجالها مازالوا خير الرجال ، وكأن العرب
مازالوا سادة المشرقين وقادة المغربين ! قاتلكم الله ! تضحكون فى
موضع البكاء ، وتفرحون فى موقف الحزن ، ولو كانت لكم ضمائر
شاعرة ، وبصائر ناظرة ، لبكيتم مع الباكين ، ونحتم مع النائحين ، فقد
ذلت هذه الآثار بذلكم ، وضعفت بضعفكم ؛ وأضحى هرم خوفو
كأن الصبا توفى نذورا إذا انبرت

تراوحه أذيالها وتباكركه

لقد كثر شعراء مصر ، وتوفروا على معنى واحد ، كما تسكث
الأشجار فى بقعة واحدة ، فىأكل بعضها بعضا ثم لا تزهر ولا تثمر !
وقصارى أحدهم أن يفتخر بأنه مصرى أو عربى ، يريد أنه من

بقايا الفراعنة ، أو من سلالة الأقباط
أهؤلاء الجبناء ، الذين يخافون ظلهم ، ويهابون طيفهم ، من
ذرية أولئك الذين أخضعوا الأرض وهموا بمحاولة السماء ، فخابوا
الناس تارة ونازعوا الآلهة تارة أخرى ؟

أهؤلاء من سلالة ذلك الذي قال : يا هامان ! ابن لي صرحا ،
لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى
تعالى الله في سمائه ! وكفر فرعون وهامان ! ولكن أليس من
العجب أن ينتسب هؤلاء الأصاغر إلى أولئك الأكابر ، وهم أذل من
قراد بمنس ، وأضيع من الأيتام على مائدة اللثام

ولقد يذكرون ان المأمون قال لوزرائه يوم زار اهرام مصر :
إنها مبان جليلة ، ومنازل شامخة ، ولكنها لا تستحق أن يحاول
صاحبها السماء لينازع الاله . فقال له بعضهم : يا امير المؤمنين إن الله
يقول : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)
فاذا كانت هذه بقايا ما دمر ، فكيف كانت تلك العروش ؟

فهت المأمون وسكت
يقولون إن الولد سر أبيه . فما بال أبناء النيل في ذلة ، واحفاد
العرب في ضعة ؟

ايستطيع احد من شعرائنا الآن ان يقول كما قال قيس
ابن الخطيم :

وكنتم امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها

فانى فى الحرب الضروس موكل باقدام نفس ما أريد بقاءها
متى يأت هذا الموت لاتلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها
إذن فكيف يجرؤ هؤلاء أن ينتسبوا إلى العرب ، أو ينتموا
إلى الفراغة ؛ وهم ما يحسنون غير التهنئة بمولود ، أو التعزية بمفقود ،
كأنهم ما خلقوا إلا ليكوا مع الباكين ، أو يضحكوا مع
الضحاكين ؟ ؟

اين شعراء الوطنية ؟ اين عشاق الحرية ، !
فهذا أو ان الشعر سلت سهامه معايلها والمرهفات السلاجم
لقد مات منهم من مات ، واغترب من اغترب ، وبقى جماعة
يقلون عند الفزع ، ويكثرون عند الطمع
رضوا بصفات ما عدموه جهلا وحسن القول من حسن الفعال

— ٤ —

يكتب صاحب العزة على بك فهمى كامل مقالات شائقة تحت
عنوان « لو كنا مستقلين » جاء فى اولها قوله : « لو كنا مستقلين
لعم العلم الديار ، وراجت الصناعة فى كل الأمصار ، وحل اليسر محل
البوار ، واصبح المصرى فى كل مكان يشار إليه باطراف البنان »
وانا اضيف إلى كلماته الجملة الآتية : لو كنا مستقلين لكثرت
شعراء الحماسة ، وقل شعراء الخلاعة ، ولعادت للشعر مواقفه
المشهودة ، ومشاهدته المعروفة ، يوم كان بيت يبعث الحرب ،

وقصيدة ترجع السلام !

ويقول الكاتب مصطفى المنفلوطى فى مقدمة مختاراته :
(وأحسب ان ما يتعلق من الشعر بالحماسة ووصف الحروب
واسلحتها ودمائها وغبارها واشلائها هو آخر ما يحتاج إليه المتأدب
فى هذا العصر)

ومعنى ذلك ان عصر البطولة قد مات ؛ وزمن الرجولة قد باد ،
ولم يبق إلا أن يلبس الشعراء اثواب الندماء ، فيقضون الليل فى
نحر ، والنهار فى خمار

ولست ألوم المنفلوطى على أن جعل مختاراته خلوا من الحماسة
ولا أعذل الشعراء على ما فرطوا فى جنب البطولة فان ذلك نتيجة
الاستعباد ؛ وعاقبة الاسترقاق

وكيف يتوفر على الشعر الحماسى شعب يرى أنه غير مكلف بالدفع
عن بلاده ، والذود عن حياضه ، ام كيف يتمدح بالشجاعة من
يوصف بالطيش إن أقدم ، وبالحزم إن أحجم ؟

ولقد كثرت احاديث الناس عن فتوى الشيخ بخيت ضد
البلشفية ، وفانهم ان هذا أثر من آثار التبطل الذى جنته علينا الذلة ،
ورمانا به الهوان

والذى يتأمل ما كان من فتوى الشيخ يعلم أنه تأثر بالحكمة القائلة
إن العاقل لا يرضى لنفسه إلا ان يكون مع الملوك مسكرا او مع

الزهاد متنسكا ، وأنه رضى لنفسه حظ ديوجين السكبي
ولقد ساءه أن ينفرد الحلفاء بمحاربة البلشفية ، وأن لا يكون
لمصر حظ في دفع هذا البلاء ، فرمى بفتواه في صدر هذا المذهب
الجديد ليعود وهو صريع

والذى نعرفه من قوة فتاوى الأستاذ ومن حججه الدامغة أن
تلك الفتوى كانت جديرة بمحو البلشفية ، لو انها صادفت قلوبا
كقلوب المصريين الذين يبجلون الشيخ ويعظمونه ، ولكنها نشرت
بين قوم ينكرون مصر وعلما مصر ، ويعدونهم من سقط المتاع
وإني لأخشى أن يصبح علماؤنا وما يعرفون غير السبحة
والسواك

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن إساءة اهل سوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لحشيتهم سواهم من جميع الناس إنسانا
كما أخشى ان يصبح شعراؤنا وما يحسنون غير الهزل ، ولا
يجيدون سوى المجون

في مصر اليوم جماعة من الشعراء ، تغنوا كثيرا في الليالي الخوالى
يوم كان الناس يسمرون في المنازل ، ويسهرون في البيوت ، وكان
الرجل يعرف بالشعر ، ويوصف بالأدب ، لبيت يقوله في تحية رب
القصر ، او تكريم السامرين ، وربما وصف بالعقربة لطرفة ينسبها

إلى دعبل ، او حديث ينقله عن أبي نواس
 ثم قضى الله ان يرسل إلى بعض القلوب رسول الوطنية فانتقل
 الشعر من الخصوصيات إلى العموميات ، إلا ان الشعراء كانوا مع ذلك
 مقيدون بقيود من الرياء ، فكان حافظ إبراهيم لا يطرب للشعر ،
 ولا يخفله ، إلا بحضرة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان احمد
 نسيم يمزج وطنياته بمدح محمد إبراهيم هلال ، وكان شوقي يشوبها
 بمدح صاحب السمو أمير البلاد ، وكنت لاتسمع للشعراء شيئاً
 غير ما يدعون اليه يوم الاحتفال بفتح مدرسة ، او تشييد معهد ،
 (او فتح باركاً فعل فلان) إلى غير ذلك مما يساق اليه الشعراء سوقاً
 بدافع الشهرة ، او دافع المال

وكانت الأحزاب قد كثرت في مصر : فكان لكل حزب شاعر
 ولكل شاعر اشباع ، فتناشرت الآراء ، وتناكرت الأهواء ، إذ كان
 الشعراء يستمدون وحيهم من سادتهم وكبرائهم ، وكان سادتهم
 منشقين مختلفين ، فكانوا يضلونهم سواء السبيل

ثم شب جماعة آخرون لم يقدر لهم ان ينتموا إلى بعض الأحزاب
 فرضوا بالخنول ، واكتفوا من الشعر بأبيات يقولونها في الوصف ،
 او تنفيح يمجيدونها في النسيب ، وربما التفقوا إلى ما ينعم به إخوانهم
 من السعة في العيش ، والبسطة في الجاه ، فأخذوا في شكوى الدهر
 وتأنيب الزمن ووصفوا الأدب بأنه رفيق الفقر وحليف المسكنة ،
 وكان بجانب هؤلاء جميعاً جماعة من النقاد ينقدون اللفظ والمعنى

ويعرضون عن النحلة والمذهب ، فكنت تقرأ ما يكتبه الشيخ
 طه حسين في نقد حافظ : قترأه جملة من المذاهب النحوية ، والمباحث
 اللغوية ، وربما رأيت طائفة من ألفاظ السباب في خلال تلك السطور
 وضعها الكاتب حلية لبحثه ، وزينة لنقده ، وكان الويل كل الويل
 لمن يغفل عن ترضية أولئك الناقدين فيمسي وهو مقذوف
 وكذلك كان الشعراء يأخذون طرائق التفكير عن الأحزاب
 ومسالك التعبير عن النقد ، ولم يكونوا في انفسهم شيئاً مذكوراً
 ثم كان ما كان من الحوادث التي شتت شمل الجميع . خفت كثير
 من أصوات اهل النقد والسياسة ، وعاد الشعراء إلى السكون
 ألا إننا في حاجة إلى شعراء ينظرون بعيونهم ، ويسمعون
 بأذانهم ، ويفقهون بقلوبهم ، فهل نحن واجدون ؟

— ٦ —

قرأنا (دواء الشعر) فاذا بصاحبها الأستاذ زكي مبارك قد نال
 من شعراء العصر شديداً ، وطأطأ من كرامتهم ما شاء ، حتى كاد
 يبتعث الحفاظ ويوغر القلوب . فقد جاء فيها عن الشعراء حيث
 يهتف بهم قوله : « قاتلكم الله ! تضحكون في موضع البكاء ، وتفرحون
 في موقف الحزن ، ولو كانت لكم ضمائر شاعرة ، وبصائر ناظرة ،
 لبيكن مع الباكين ، ونحتم مع النائحين ، فقد ذلت هذه الآثار بذلكم
 وضعفت بضعفكم »

وجاء في موضع ثان منها قوله: «لقد كثر شعراء مصر،
وتوفروا على معنى واحد؛ كما تكثر الأشجار في بقعة واحدة فيأكل
بعضها بعضا، ثم لا تزهر ولا تثمر» وقال في غير هذين الموضوعين
«أهؤلاء الجبناء» وجاء في محل ثان قوله «لقد مات منهم من مات،
واغترب من اغترب، وبقي جماعة يقلون عند الفزع ويكثرون
عند الطمع»

لشد مانال الأستاذ من الشعراء، وغلا في الازدراء بهم، على أن
هذا ليس من النقد في شيء.

إنا لنطالب الأستاذ جد المطالبة، ونأخذه أخذا شديدا، بأن
يخرج بالمعذرة من تلك البادرة، وذلك أكبر الظن بأدبه؛ والعهد
به، والسلام

حسن القاياتي

— ٧ —

قرأت ما كتبه الأستاذ السيد حسن القاياتي عن (دواعي
الشعر) فحمدت له غيرته على إخوانه الشعراء، ورفقائه الأدباء،
وسرني أن كان أول الذائدين عن حياضهم، والرافعين للوائهم،
فكان كما قال الشاعر:

لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس؛ خالهم إياه يعنوننا
ثم عجبت، وحق لي أن أعجب، من رغبته في أن أعتمر

وهل أذنبت يا صاح ؟
 ألزمتني الذنب الذي جئته صدقت ! فاصفح أيها المذنب
 لا تنس يا صديق أن كرامة الوطن فوق كرامة الأدب ، وأن
الشعر وسيلة لا غاية ، وأنا جميعا نسعى إلى غرض واحد هو
 تحرير البلاد

فمن كان أكثر الناس إشادة بذكر الحرية وتغنيا بالاستقلال
 فهو شاعرنا المفلق ، وكاتبنا المبدع ، وإن كان شعره منحل العقد ،
 وثره مختل البناء

انت شاعر ، ولكن في أى عصر ؟ فى العصر الذى قلت فيه :
 كائن وساما يعتلى صدر جاهل جنى من الريحان يحمله قبر
 وحافظ شاعر ، ولكن فى أى زمن ؟ فى الزمن الذى قال فيه :
 لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلها منظما
 كنتم شعراء يوم كانت قصائدكم تهيم فى كل واد ومعانيكم تدب
 فى كل قلب ، ويوم كان الطلاب فى مدارسهم والعمال فى مصانعهم
 يشيدون بذكركم النابه ويتغنون بشعركم الجميل

فأما اليوم وقد جنحتم إلى السكون وركنتم إلى الهدوء، وهجمت
 منكم تلك البراكين الثائرة ، وتوارت تلك الشمس الباهرة ، وأخليت
 الميدان لكل مجر بالخلاء ، ومستأسد بالعراء ، ثم طوئتم اللواء ،
 وفررتم من الهيحاء ، فانا ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، وكأتركتم
 الأدعياء يصدعون الرؤوس ، ويزهقون النفوس ، يغتصبون الشهرة

اغتصاباً ، ويستلبون المجد استلاباً ، كأن ليست للنقد عين ساهرة ،
وكأنكم لا تسمعون

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد
يجب أن تعذرا أنت يا صديق وأن يستغفر إخوانك فقد فرطتم
في جنب الوطن ونسيتم حق البلاد

أين الشعراء ؟ أين الأدباء ؟ إني والله
أودهم ودأ إذا خامر الحشا أضاء على الأضلاع والليل دامس
ولكن ما العمل ؟ والدهر عابس ، والوقت عصيب ، ويكاد
المرء ينسى أباه إن خذله ، ويهجر أخاه إن خلاه ، فهل بقي في قوس
الصبر منزع ، أو عادت للرجاء بقية ، وهذا البلاء يتطايّر من كل جانب
والأمل ينهار في كل واد ؟ !!

يا صديق إن شموخ الأهرام ، وجلال النيل ، وجمال مصر
وما إلى ذلك من المعاني التي أوحى إليك وإلى إخوانك الشعر تتطلع
اليكم بعين كلها أمل وقلب ملؤه الرجاء ، فهل فيكم اليوم من مسعد
أو هل لديكم من معين ؟ ؟
واحر قلباه !!

عاتبنا الأستاذ زكي مبارك على نبوة كانت منه إلى الشعراء ،
وهنات اعتمدتم بها في مقاله « دواعي الشعر » : وأخذناه بأن

ينزل على حكم الحق من بذل المعذرة ، وإعطاء النصف من نفسه ؛
فاعتبننا في الأفكار بكلمة جافية حديدة كأنها الكأس الأولى ؛ لولا
ما يلفظها به من مزاج التودد والازدلاف إلى ناحية من المرضى ؛
فسأخنا فيما أوحش منها لما آنس ، واغتفرنا ما أحفظ لما أَرْضَى ،
فكانت كأسا شربناها على قذاتها ، وعتي صديق تقبلناها على علاتها .
فلم نكد نقول : آها منه ! : حتى قلنا : وآها له

ومن لك يوما بأخيك كله !

لاذ الأستاذ منا بالوطن : فذكر بحقوقه ، وأرى من نفسه بحق
أن غضبته للوطن كانت ، ومحاماته ونضجه إنما كانا حمية له ، وأنه زرى
على الشعراء لتفريطهم في جانبه ، ونومهم عنه فيما يقول
مهلا قليلا أيها المذكر بالوطن وحقه ، فما ذكرت ناسيا ، ولا
نهبته غافلا ، إن بنا من الوجد على ذلك الوطن والحذب عليه . مثل
مأبك ، غلة تحرق ، وجوى يؤرق
وتلك طريق لست فيها بأوحد

ذلك حق كله . ولكنك تعلم أننا قد غشيتنا غاشية ، ودهمتنا حال
تركت إفصاحنا في التوجع ، وبياننا في التفجع ، كيان الطير تهفو إلى
وطن ، وحنين الابل تغدو إلى عطن .
شجو حزين ، ومنطق لا يبين

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له . ببعض الأذى لم يدر كيف يحجب
شاهدى على ذلك مقال أنت . ألسنت القائل آنفا : « ولكن

ما العمل والدهر عابس ، والوقت عصيب «
 على أن أحدنا لا يزال يرفع صوته في الفينة بعد الفينة ، بالكلمة
 كأنها دمعة يتيم ، وعبرة مهجور ، ينطق بها لحنا ، ويرسلها في حذار
 ورقبة ، ثم يحس على أثرها رأسه ، هل طار عن جسده ؟
 أترى نعيش إلى انطلاق الألسن ؟
 ما بالك أيها الأستاذ تشركنا في العمل وتفردنا بالتعجب ،
 كما يقولون :

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها :
 إن لك يانا ولسانا ، فأين الذى لهما من أثر في هذه الآونة ؟
 إن قلت قلنا ، وإن سكت سكتنا ، وليس بنا أن نجحد فضلك !
 لقد هجت عجبا ، وأحدثت طربا ، حيث تقول « فمن كان أكثر
 الناس إشادة بذكر الحرية ، وتغنيا بالاستقلال ، فهو شاعرنا المفلق
 وكاتبنا المبدع وإن كان شعره منحل العقد ونثره مختل البناء »
 إن للغربان والضفادع أوطانا ، وفي الحق أن ينود كل ذى وطن
 عن وطنه ، بيد أنه ليس بحسن ولا جميل نعيم الغربان ونقيق
 الضفادع !! أكل صائحة تطربك أيها الأستاذ ؟ رويدا لا يسمعك
 الأدياء والمتشاعرون ، فتملاها علينا نعيما ونقيقا ! لا والله لا يحسن
 الزيادة عن الوطن ولا النضح عنه حتى يكون قولا عليه مسحة السحر
 وله أخذ كأخذ النفت في العقد ، ينزل على حكمه العصي ويصحب
 الجحوش ! أين أنت من البلابل المغردة والطيور الساجعة ، أمثال

كتاب (الأفكار) ولا أمثال لهم ؟ !

عد عن ذا ، كما يقول الشعراء ، وتعال إلى حديث بشاشة واحسان
بعد حديث عتب وإعتاب لقد علمت أن جريدة الأفكار أندى الجرائد
صوتا بالحق ، وأرحبها صدرا للحرية ، فبعثت اليها بكلمة طريفة في
سبيل الوطن ، وأكبر ظنى أن رئيس تحريرها النبل متفضل بنشرها
فان نشرت فلن تمتري ، إن كنت من الممترين ، في أن الشعراء يفون
لوطنهم بعض الوفاء وأن لهم قلوبا ترعى كرامة الوطن ، وكرامة
الأدب ، ولعلك تقول مكان ، واحر قلباه ! ، واطرباه ! والسلام
حسن القاياتي

— ٩ —

لقد سبقت كلمتنا في إعتاب السيد حسن القاياتي ، وكنا حسبناه
أكبر ما شرحناه ، إجلالا للوطنية ، وأحمد ما كتبناه ، إعظاما للحرية
فاذا به يدأب في العتب ، ويصر على المحاسبة ، كأن ليس لنا عنده من
عذر وكائن الشعراء ليسوا بخاطئين
أراد السيد حسن أن يعتذر عن إخوانه الشعراء ، وأن يغسل
عنهم عار الكسل والخمول ، فذكر من عنت الدهر ، وريب الزمن ،
ماظنه شافعا في سكوتهم ، مبررا لجمودهم ، كأن في ضم الفكرة إلى
مثلها ، ووضع البيت بجانب البيت ، شيئا من التجمهر يأباه القانون
ونوعا من المظاهرة تحاربه السلطة ، وكأن القصيدة ذات القوافي

الكثيرة، والفكر العديدة، شبيهة بالعصبة تجمع في طريق واحد، لغرض واحد، وكأن الشاعر الشاكي الخيال، شبيه بالناثر الشاكي السلاح.

قد يكون الشعر الباهر، كالسيف القاهر، وقد تكون القصائد البارة، كالقنابل الرادة، وقد يتهيب جانب الشاعر، فوق ما يتهيب جانب الفارس، فيكون من كل هذا عذر لاخواننا الشعراء، ورفقائنا الأدباء، ويكون سكوتهم من الجبن أبعد، وإلى الحزم أقرب

ولكن ألا يحب صديقي السيد حسن أن يكون لعصرنا من طريف الاستعارات، وحديث المجازات، ما يرفع ذكرنا في الأواخر ويلحقنا بالأوائل؛ ممن لبسوا الكل حالة لبوسها فصرحوا تارة، ولحوا أخرى، ونالوا بالمثل الخرافي، ما لم ينالوا بالشعر الحماسي، فكانوا بقومهم ناهضين، ولأعدائهم قاتلين؟

فهبني اعتذرت عما نسبت إليهم من الجبن، ورجعت عما وصفتهم به من الخوف، أتراني لا أنعتهم بضيق الحيلة، وضعف الوسيلة، وأنهم لا يعرفون من القول إلا أظهره، ومن الشعر إلا أشهره، وأن مقاتلهم بادية، ومطاعنهم ظاهرة، حتى لا سلامة لحياتهم، إلا بسكوتهم، ولا داعي لحفهم غير نطقهم

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية النهر
لعلك يا صديقي تذكر ما فعل الأعراي الأسير، ولعلك تذكر ما أرسل الرجل مع عبديه، إلى طفليته، وما قال القبعثري للحجاج

وما أجاب به عبد المسيح خالد بن الوليد . ثم لعلك ولعلك ..
 أتريد يا صديقي أن لا تكون لنا شخصية معروفة ، وأن لا يعثر
 القارىء فى الآداب العربية على طرفة أبدعناها ، أو بدعة أحدثناها ،
 كأن القول لا يخرج من التصريح ، إلى التلميح . وكأن الزمن لم يلجئنا
 إلى الإشارة بعد العبارة . أو كأننا لا نعرف مقامات الكلام ،
 ومقتضيات الخصام .

لك يا صديقي أن تعتذر عن إخوانك . وعلى أن أشكر لك هذه
 الغيرة . ولكن حذار أن تظن أنا عملنا كل ما يمكن ، وفعلنا كل
 ما نستطاع .

ولقد عجبت من قولك (ان لك بياناً ولساناً ، فان قلت قلنا ، وان
 سكت سكتنا) كأنك تحسبني لا ألوم نفسى
 ألا فلتعلم وليعلم إخوانك ، أن التبعة واقعة على وعليكم ، وأنا
 جميعاً فى جنب الوطن مفرطون ، ولمجد النيل ناسون
 ما أنصفتك جفونى وهى دامية ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

الحديد في دم الأديب (١)

في أخبار الأدب الفرنسي أن أديبا كان يكتب كل يوم قصة ويرسلها إلى إحدى الجرائد ، وكان يتمنى في كل صباح أن تنشر له قصة فيأخذ عليها أجرا ينتفع به في معاشه ، ولكن الجريدة التي كان يرسل إليها أقاصيصه لم تنشر له شيئا ، وكذلك كان يستقبل كل صباح بأمل خائب وإحساس مطعون

واتفق له يوما أن يتأمل أحوال البيت الذي يعيش فيه فوقف على أخبار طفل يتيم دمعت له عيناه ، فكتب فيه أقصوصة سماها « اليتيم » وأرسلها إلى تلك الجريدة التي أهملت كل ما كتب ، وكان يخشى أن تنال تلك الأقصوصة ما نالت أخواتها السوالف من الإهمال ثم فوجئ بظهور تلك الأقصوصة في صباح اليوم التالي ، وما كاد ينتهي من مراجعة الجريدة حتى جاءه خطاب فيه صك بمبلغ من المال مكافأة على قصته ، وفي الخطاب فوق هذا كلمات من طيب الشاء

وأراد ذلك الأديب أن يحاسب نفسه وأن يقارن بين ما كتب بالأمس وما كتب اليوم ، فرأى أن أقاصيص الأمس كانت من وحي الخيال ، أما قصة اليوم فكانت من وحي الحياة ، وهذا هو السر فيما ظفرت به من كريم القبول

ولكم بعد هذا أن تراجعوا حظوظ من عرقتهم من الأدباء ،
 فسترون أن أبلغهم أثرا في أنفس الجماهير ، وأقدرهم على أسر القلوب
 وغزو العقول ، وامتلاك النفوس ، هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة
 بصنوف الأرزاء ، وعرفوا كيف تقسو الدنيا وكيف تلين ، أولئك
 هم الذين يكتبون وفي كل حرف سر ظاهر أو غرض دفين

أما الأدباء المدللون الذين حبتهم الدنيا بألوان من الترف والنعيم
 فهم ينظمون ويكتبون وكأنهم يلعبون ، وليس للألأعيب في عالم
 الأدب بقاء

الحياة هي كتاب الأديب ، ومن حظه أن يعرف البؤس والشقاء
 وأن يدرك كيف يكون الضجر والاكنتاب ، وأن يشهد بعينه كيف
 يرتفع السفلة والأغبياء ، وكيف يطيش الحظ الأهوج فيظلل بجناحيه
 رموس المرورين من أهل الجاه المزيف والمجد المكذوب

إن أراجيف المرجفين ، وأكاذيب المضللين ، وتنسك الما جنين
 وتعلم الجاهلين ، واستنساار البعاث ، واستذآب الكلاب ، واستبسال
 الجبناء ، كل أولئك مما يؤرث نيران الحق في صدر الأديب الموهوب
 ويحواله إلى طاغية غشوم يبطش بأهل الكذب والرياء والنفاق
 والأديب الذي يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو

ضعيف ليس أهلا لمجد القلم ولا شرف البيان
 الأدب الصادق ليس إلا حومة قتال ، ولكن أى قتال ؟ قتال
 في سبيل الحق والخير والجمال . والحياة لم تكن يوما دار سلام ،

إنما السلام في المقابر ، فمن شاء أن يستريح فليمت ، أما الأحياء فقد كتب عليهم أن يناضلوا ويقاتلوا ويصاولوا ما بقي فيهم عرق ينبض وقلب يثور ، فان جنحوا للسلم فقد استسلموا إلى سكرات الموت ، وبئس المصير !

أتفهمون هذا يا طلاب الأدب الفحل الذي يحطم الأسداد ويهدم الحصون ؟

خذوا وحيكم من الحياة يا طلاب الأدب ، وتذكروا دائما أن وقود عقولكم وقلوبكم لا يكون إلا من الألم ومن الصدق ، فان أعوزكم هذان العنصران فلن تصلوا إلى شيء ، وهل يصل الوادعون والكاذبون إلى حظ أفضل من حظ السيد فلان ؟ إنه حظ لا أشتريه بخمسة قروش وإن بهركم ما يملك من الجاه ومن المال !

الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج ، ويصونه من الخضوع لأرباب الألقاب ، ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا في ظلال الشهامة والصدق ، وشرف القول والفعل ، وطهارة القلب والوجدان

وأديب واحد بهذه الخلال أنفع لأمته ووطنه من ألوف العبيد الذين يلبسون ثياب السادة وهم أذلاء ، ويتشدقون بأخبار الفضائل وهم في أنفسهم من أهل البغي والفسوق

إن الأديب الحق هو الذي ينقل قراءه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ، هو الذي يبذل نفسه قرائه من الأمن

والسكون ، ويشغلهم بعواطفهم ونوازعهم وأهوائهم ، وقيم الحرب
بينهم وبين ما في قلوبهم من أصول الشر والخير والعدو والوفاء ،
لأن الأمن والسكون لم يكونا إلا من صور الجمود ، ولو شئت لقلت
من صور الموت ، وإن غضب الفيلسوف فلان

أكتب هذا وقد سئل فلان عنى : فشاء له أدبه أن يقول « إن
مذهب زكى مبارك فى الأدب سيفسد عشرة أجيال » وأنت يا هذا
ماشأنك حتى تعادىنى فى سبيل ما سأفسد من الأجيال ؟ إنك لرجل
ميت ، والعداوة بينى وبينك هى العداوة بين الموت والحياة ، إن
كان يستطيع الموت أن يعادى الحياة

أنا الذى سيفسد عشرة أجيال ؟ إذن ما بالك تشرقون كل ما
أكتب وكل ما أقول ، إنكم لتنبهون منى كل شئ حتى الألفاظ
والتعابير ، ولو شئت لدلت الناس على آثارى فيما تكتبون وما تقولون
وسترون إن امتدت الخصومة بينى وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك
وكيف أوردكم موارد الحتف وإن اعتصمت بشاهقات البروج
إن الذين يعادونى لا يعرفون عواقب ما يصنعون ، أنهم لا
يعرفون أن العداوات تمد دمي بفيض من قسوة الحديد ، أنهم يجهلون
أن الهدوء يفسد أمعائى ويحوجنى إلى زيارة الطبيب ، فأوغلوا ما
شتم فى البغضاء فان لى فى ذلك مغائم كثيرة تصل على أيديكم بلا
جزاء ولا ثواب

وأتم ، يا قرائى ، ما رأيكم ؟ أتروتنى من الأشرار ؟ وكيف وما

كنت في حياتي باغيا ولا عاديا ، لقد ابتدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلاني الناس وشأني لعشت بلبلا وديعا لا يسمعون منه غير أنغام الحنين ، ولكن لؤم اللئام حولني إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر ، والطير والحيوان ، ولا أذكر الانسان فما سمعت بأخباره في هذا الزمان !

أما بعد فلهذه نعمة في كل شيء ، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه ، ويرهف وجدانه ، ويقهره على حمل السيف. وقد جربت ذلك في نفسي وفي قلبي ، وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم في اليقظة والنم ؟ انظروا فسترون أن « فلانا » الذي ذكرته في هذا المقال سيفزع من أجله ألف فلان ، فليس لي عدو واحد وإنما ألف ، وقد يكون أبعدهم عن البال هو الذي سيعاني أخطر الأحوال بعد قراءة هذا المقال فلا تجزع يا فلان فلسست أغنيك ، إنما أغني رجلا غيرك يتجلد ويتصبر في بعض الأحيان .

فان لم يكن بد من التخصيص - تهدئة الرأي العام في صفوف الأعداء - فأنا أصرح بأنني لا أغني إلا ذلك الرجل الجليل الذي زعم لمحدثيه أن مذهب زكي مبارك في الأدب سيفسد عشرة أجيال ، فان لم ينزجر فسنرجع اليه باسمه الصريح (وفي هذا بلاغ لقوم يعقلون)

٢٥ يولييه سنة ١٩٣٥

الى الاستاذ سلامه موسى

قرأت كلمتك الطيبة التي تدل على ما فطرت عليه من أدب وذوق ، وعز على أن تقول في شرح ما شجر بيني وبينك من خلاف :

« ولو لم يكن الجدل بيننا على صفحات القرطاس في الشؤون الأدبية لانهى فيما أظن بأن يمسك كل منا بخناق الآخر »
ولك أن تطمئن من هذه الناحية فان تلك الزوابع التي ثارت بيني وبينك لم تستطع أن تكدر ما في القلوب ، وما أذكر أني اقتحمت معركة أدبية إلا وأنا أعتقد أني أجاهد في سبيل الحق ، فاذا كنت خاسمتك مرة أو مرتين فاني لم أفعل ذلك حبا في الجدل والملاحاة ، وإنما صنعت ما صنعت وأنا طاهر القلب والوجدان ، ومن واجبك أن ترحب بالعنف حين يوحى به الصدق ، ولا سيما إذا تذكرت أني لا أكيد ولا أغتاب ، ولا أسمح لنفسي بالهجوم على أحد في السر إلا بقدر ما أستطيع الهجوم عليه في العلانية ، واسمح لي بعد هذا أن أقول إنك شرحت صدرى بما كتبه عني ، ويسرنى أن أسمع من مثلك كلاما مثل الذي قلته عن كتاب النثر الفني ، وهذه الشهادة لا أستكثرها عليك ، فقد تفضلت بتقديم

مؤلفاتي إلى قرائك مرات كثيرة قبل أن ترانى ، وفى هذا دليل على أنك تهتم بالفكرة قبل أن تهتم بالأشخاص ، وذلك خلق عظيم وقد وقفت عند قولك عن مؤلف النثر الفنى « يجب بالحق أن نخجل من مجازاته على هذا الاحسان بمحاربته فى عيشه وعمله

ولست أشك فى أن الجامعة المصرية تخسر باخراجه منها أكثر مما يخسر هو ، فإن رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب والفرصة المواتية لخدمة الأدب فى مدرسة فرنسية أو أمريكية بالقاهرة ، ولكن هذا الايلام للنفس يعكر صفوها ويشكك الانسان فى القيمة التى تعود عليه من الاخلاص والجد » وأنا أقول إنى لن أشك يوما فى قيمة ما يعود على الرجال من الجد والاخلاص ، وقد درست نفسى غير مرة فرأيت حالى أحسن الاحوال ، وما أذكر أنى كنت أعرف ضيق العيش إلا وأنا موظف فى الحكومة المصرية التى خدمتها نحو خمس سنوات فلم أصب منها غير سوء الجزاء

وأقسم ما فكرت فى المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية وإنما كان همى أن أغرس الشوق إلى الدرس فى نفوس تلاميذى ، وقد أقيمت فى صدورهم جذوة لن تخدم ولن ينالها سكون ، ولئن قضت الأغراض بأن أبعد عن الجامعة فان زملائي سيدكرون دائما أنى تركت فى أنفسهم آثارا أطيب من المسك ،

وقد حزنوا لفراقى حزننا أليما .

أما الاحقاد التى تتلظى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء ، وستنكل به تنكيلا ، ولن تدوم له أيام الطغيان ، ولن يبقى له فلان وفلان ، والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هو أقل ما أنتظره من الجزاء فى المستقبل القريب ، وما العدل على الله بعزير إنما هى محن يبتلينا بها لنظفر بريضة العقل والقلب والروح ، فله الحمد على ما قضاه

إن أعظم منصب فى الجامعة المصرية لا ينبنى من المجد مثل ما انالى كتاب النثر الفنى ، وستفى أحجار الجامعة المصرية وتبىد ذكرياتها ، ثم يبقى ذلك الكتاب على الزمان

والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى محاربتى إلا لظنهم أنى رجل أعزل ، لأنحاز إلى حزب من الأحزاب ، وليس لى فى الحكومة عم ولا خال

ولكن خاب ظنهم ، فإن الحق أعز وأقوى ، وسيرون كيف أزلزل أرواحهم ، وكيف أملاؤ قلوبهم بالرعب ، وكيف أريهم عواقب ما يصنعون

إن النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل فى تثقيف عقولهم ، أما الشرثرة الفارغة التى يعتصم بها أمثال طه حسين فلن يكون لها فى عالم الجد بقاء

وبعد فأنا أعرف أن أمامى مصاعب كثيرة ، وأعرف أنى أقف

وحدى في ميدان القتال ، ولكنى لن أحزن ولن أضعف ، وحسبى
من النصر أن أكون غصة في حلق المبتلين والمرجفين
١٥ أغسطس سنة ١٩٣٥

قصيدة حافظ في حشمت باشا

نشرت جريدة السياسة في ١٧ يونيه سنة ١٩٢٦ قصيدة
عينية للشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم في رثاء المغفور له نصير اللغة
العربية أحمد حشمت باشا . ولقد قرأت تلك القصيدة مرات كثيرة
وقيدت ما فيها من جيد المعنى ورائع الخيال ، ثم بدا لى أن أكتب
عنها كلمة وجيزة وفاء لهذا الشاعر الذى انفرد بالاجادة في مواقف
الوفاء

ولنذكر أولاً أن الشاعر لم يجد بهذه القصيدة إلا وهو موجه
حزين ، وهو فى حزنه هذا يشعر القارىء بأنه صادق اللوعة مجروح
الفؤاد ، ولقد يندر أن تجد نفساً تصدق صدق حافظ فى بكاء
الناهبين من الأصدقاء إلى عالم البقاء ، ولننظر كيف يقول فى المطلع
حبس اللسان واطلق الدمعاً ناع أصم بنعيك السمعا
وكيف أشاد باحسان الشيخ محمد عبده إليه مع تقادم العهد
لك منه قد طوقت عنق ما أن أربغ لطوقها نزعا
مات الامام وكان لى كنفاً وقضيت أنت وكنت لى درعا

فليشمت الحساد في رجل أمست مناه وأصبحت صرعى
 ولتحمل الأيام حملتها غاض المعين وأجذب المرعى
 وليأمل القارىء روعة التعبير في قوله يبكى نفسه « أمست مناه
 وأصبحت صرعى » ولينظر كيف دق المعنى حين جمع الشاعر بين
 اللفظتين « أمست » و « أصبحت » فهو يشير إلى انه موصول
 الياس دائم القنوط ، وقد أكد هذا المعنى بقوله بعد ذلك « غاض
 المعين واجذب المرعى » وهو خيال بدوى ، ولكنه جميل . ثم قال

إني أرى من بعده شللاً بيد العلى وبأنفها جدعا
 وأرى الندى مستوحشاً قلقاً وأرى المروءة أقفرت ربعا
 قد كان في الدنيا أبو حسن يولى الجميل ويحسن الصنعا
 ان جاء ذو جاه بمحمدة وترا شاه بمثلها شفعا
 فاذا نظرت الى أنامله تندى حسبت بكفه نبعا
 سلني فاني من صنائعه وسل المعارف كم جنت نفعا
 قد أخصبت أم اللغات به خصبا أدر لأهلها الضرعا
 تالله لولا أن يقال آتى بدعا لطف بقره سبعا
 ثم أخذ يشكو ظلمات الحياة بعد ذهاب الأوفياء فقال :

قد ضقت ذرعا بالحياة ومن يفقد أحبته يضق ذرعا
 وغدوت في بلد تكنفني فيه الشرور ولا أرى دفعا
 كم من صديق لي يحاستني وكأن تحت ثيابه أفعى
 يسعى فيخفي لين ملمسه عني مسارب حية تسعى

كم حاولت هدمي معاولهم وأبي الاله فزادني رفعا
 أصبحت فردا لا يناصرني غير البيان واصبحوا جمعا
 ومناهمو أن يحطموا يدي قلها اثار عليهم النقعا
 ولرب حر عابه نفر لا يصلحون لنعله شسعا

وتلك نفثة قد تبدو نائية عن السياق . ولكنها في الواقع وصف
 لغربة الشاعر في الحياة . وفي تلك الغربة الموحشة تتبين النفس قيمة
 الصديق الغالي الذي تقفر بموته مذاهب الايناس . ثم عاد الشاعر
 إلى موضوعه فقال :

من ذا يواسيني ويكأوني في هذه الدنيا ومن يرعى
 لاجاه يحميني ولا مدد عنى يرد الكيد والقذعا
 بك كنت أدفع كل عادية وأجيب في الجلى إذا أدعى
 وأقيل عشرة كل مبتئس وأفى الحقوق وأنجح المسعى

حتى نعى الناعى أبا حسن فوددت لو كنت الذى ينعى

وفي هذه الآيات يذكر الشاعر أنه كان يدفع كل عادية ، ويحجب
 في كل شدة ، ويقيل كل عشرة ، وينى كل حق ، بفضل ما كان لذلك
 الفقيد من وافر المعروف . أحسن الله له الجزاء

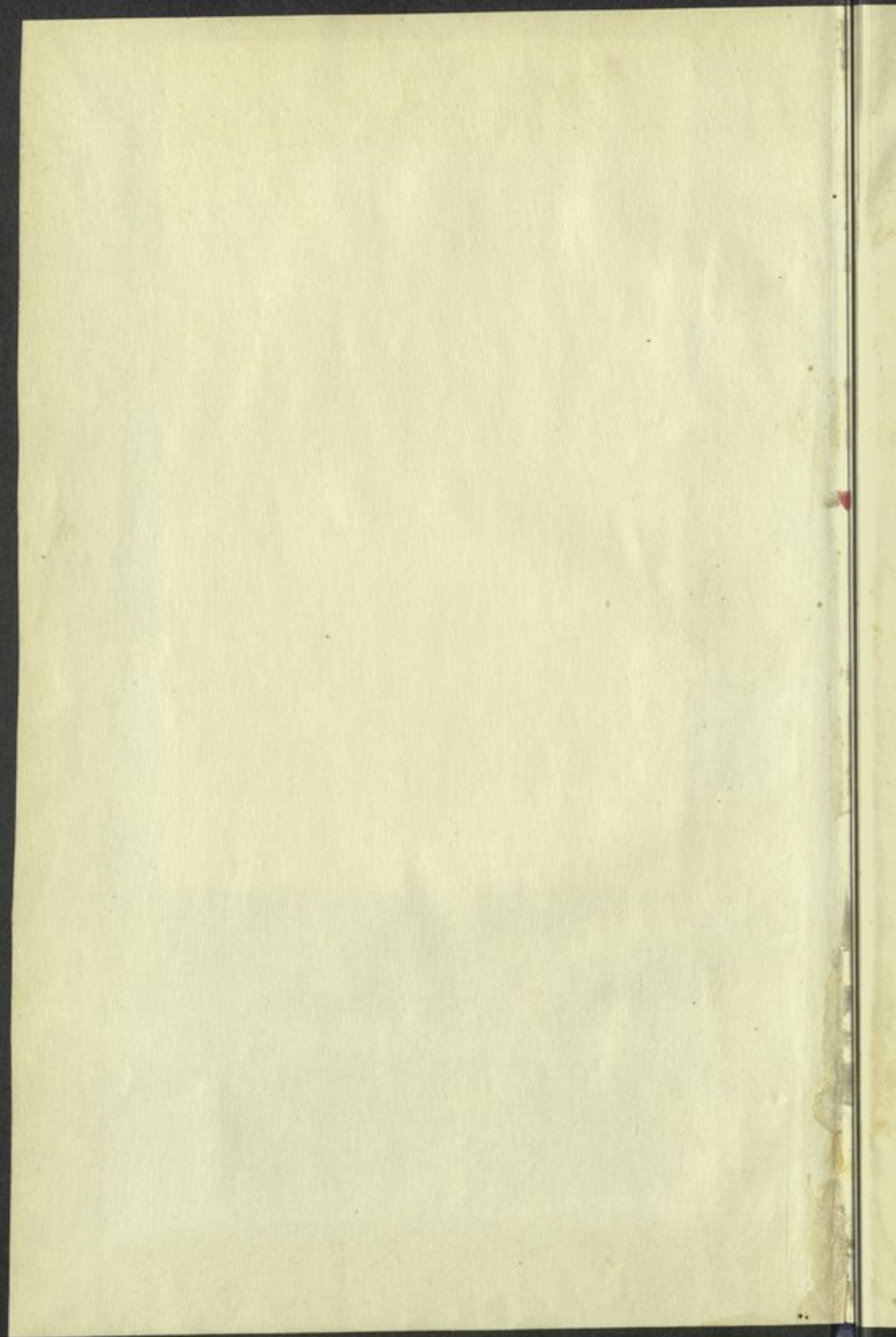
ولم يفت الشاعر أن يذكر أن صلته بذلك الوزير لم تسلم من
 كيد الوشاة ، ولكنها كانت أعز وأمنع من أن تذهب بها الأعاصير
 غيظ العداة فحاولوا سفها منهم لحبل ودادنا قطعاً
 راموا له بتا - وقد حملوا ظلماً - فكان لوصله أدعى

(تم الجزء الثانى من كتاب البدائع)

فهرس

(الجزء الثاني من كتاب البدائع)

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢	الاحسان جميل . ولكن الى من؟	١٠٥	إنما ينافق الضعفاء
٦	أدب محمد السباعي	١٠٦	الحياة الحرة
١٧	كلمة تستحق الخلود	١١٠	الأدب عند الأحياء
١٨	المواساة الروحية للوُلفين	١١٣	ذكرى صديق
٢٢	النباتيون في باريس	١١٩	موسم تستبق الخيرات
٢٤	اللحم والشهوات	١٢١	المحدث حافظ ابراهيم
٢٦	المسلمون والاقباط	١٣٢	خطر يهدد الثقافة المصرية
٢٧	ضجيج المعروف	١٣٧	إله الحب و إلهة الجمال
٢٨	الأمم والحكومات	١٤٨	ظلم العواطف
٣٣	أنا أكايد زمانى	١٥٦	الآمل الضائع
٣٤	الوطن الغالى	١٥٨	الوطن الذى يحفظ الجليل
٣٥	قهوة سوفليه	١٦١	أسماء عربية
٣٧	المكتبة المصرية	١٦٢	أسماء مصرية لكلا ب فرسية !
٣٩	بعض الحقائق	١٦٤	الاستعمار على كف عفريت
٤١	بين الورق والذهب	١٦٥	العرب واليونان
٤٣	بعض المدارس الأهلية	١٦٧	ساعة حب «قصيدة»
٤٧	التعليم فى فرنسا	١٦٩	طه حسين بين البغى والعقوق
٥٦	والد المؤلف	١٧٩	نجيب الهلالى وزير آخر الزمان
٦٥	خطاب الشيخ ابراهيم الدباغ	١٨١	الآلم والحياة
٦٨	لغة العرب قبل الاسلام	١٨٣	دواعى الشعر
٧٩	العيد فى سنتريس	٢٠٥	الحديد فى دم الأديب
٨٨	شوقى	٢١٠	إلى الأستاذ سلامه موسى
٩٧	النباتيون فى باريس	٢١٣	قصيدة حافظ فى حشمت باشا



DATE DUE



892.74:M94:J4.A.5

مبارك، زكي
البدائع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039104



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

8
A